محمد بن علي الشوكاني

فتح القدير

تحقيق وتقديم

عبد الرحمن عميرة

دار الوفاء
بيروت

Bibliotheca Alexandrina

20637

962-4
شقى
ت

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف: 962 ش ق ت
رقم التسجيل: ٢١٠٧٤

نعوم شقير

تاريخ السودان

تحقيق وتقديم
الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم

دار الجيل
بيروت

طبعة جديدة
١٩٨١

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

مقدمـــة

ولد نعوم شقير، مؤلف هذا السفر الجليل، بشويفات لبنان في أواسط ١٨٦٣ ثم انتقل الى مصر وعمره دون العشرين ليلتحق بخدمة الحكومة كاتباً. وبعد قليل من الزمان التحق بالمخابرات الحربية المصرية وعمل بقسم التاريخ والذي تولى رئاسته فيما بعد. وقد ظل نعوم في خدمة المخابرات حتى توفى بالقاهرة في ١٩٢٢.

ومن خلال عمله بالمخابرات تسنى له أن يقف على أخبار السودان التي كانت ترصده المخابرات وعلى التقارير التي وضعها رجالها. وقد تسنى له أيضاً أن يجمع الأخبار من الوافدين إلى مصر من السودانيين ومن الضباط والعساكر والموظفين والتجار والأعيان ممن اشتركوا في حوادث السودان أو كانوا على علم بها. وكان من أبرز هؤلاء الزبير باشا رحمه، وعبد القادر حلمي وابراهيم باشا فوزي. وبعد سقوط أم درمان قابل كثيراً من أمراء المهدية وأعيانها وجمـــع منهم بيانات مستفيضة. ثم انه جمع بيانات كثيرة عن ممالك السودان من رواة الأخبار وحفظة التاريخ من أمثال الشيخ الطيب الذي كان مرجعه الأساسي فيما كتب عن سلطنة الفور. وقد كان على صلة بالكتب التي صدرت بتشجيع المخابرات، مثل كتاب ونجت وكتابي سلاطين اهرولدر. وقد قرأ ما تيسر له من المؤلفات التي تناولت تاريخ السودان مثل تاريخ بدج وتاريخ ملوك سنار وكتب الرحالة مثل كايو، وبعد فتح أم درمان شارك نعوم في جمع وثائق المهدية وأعد عنها تقريراً. وكان من قبل قد وقف على الوثائق التي غنمت بعد الوقائع الحربية السابقة. ومن واقع هذه الوثائق جمع نعوم حصيلة عظيمة من المعلومات عن المهدية وحوادثها.

أضف إلى ذلك انه شارك بنفسه في بعض الوقائع مثل حملة إنقاذ غردون والحملة على طوكر ثم حملة الفتح. وقد نظر نعوم بعين فاحصة وسمع بأذن واعية واستوعب هذه المعلومات الواسعة ورتب، مثل ما يستوعب ويرتب العقل الآلي،

وكانت حصيلة ذلك كله هذا السفر الجليل في جغرافية السودان وتاريخه ، والذي ظل رغم توالي الزمان وتبدل الحال وتقدم الدراسات التاريخية مرجعاً لا يستغني عنه قارىء التاريخ العام وطلبة المدارس وطلاب التاريخ في الجامعات .

لقد جمع نعوم معلوماته بأمانة وصدق ثم أعطاها في هـــذا الكتاب بأمانة وصدق أيضاً . ولكثرة مـا أورد أضحى الكتاب خزينة للحقائق التاريخية . ومن الواضح ان نعوماً كان يتجه بعاطفته اتجاه المخابرات التي عمل بها ، وقد ظهر أثر ذلك في تعليقات هامشية هنا وهنا وفي اطرائه لبعض رجـــال الحكومة واتخاذه مواقعهم وإشاراته المعادية للمهدية ورجالها في مواضع كثيرة . غير ان ذلك لم يؤثر فيما يقدم من معلومات أو تقنين للحوادث . ولم يبخل نعوم في أن يعطي الخصم حقه وان كان مقتضباً في ذلك .

وانـا قد نظرنا في هذا السفر بغية نشره ورأينا أن نستبعد الجزء الاول منه ، وهو ما كان خاصاً بجغرافية السودان . والطرف الأخير من الجزء الثالث ، وهو ما يختص بأوائل العهد الثنائي . ان أغلب معلومات الجزء الاول أضحت عتيقة أو أضحت من قبيل المعلومات العامة ، بعضها يتصل بأمور صرنا نملك عنها ما هو أحسن وأوفى ممـا كتب نعوم ، وبعضها كتب لفائدة السائحين ولا فائدة منها اليوم لهم أو لغيرهم ، وما جاء في هذا الجزء والطرف الذي أسقطناه من الجزء الثالث عن العهد الثنائي لا يفيد كثيراً لأنه كتب في السنة الثالثة أو الرابعة لهذا العهد ، وأغلب ما فيه تعيينات وزيارات وخطب لبعض القادة .

وهكذا يبقى من الكتاب الجزء الخاص بالتاريخ من أقدم العصور حتى نهاية المهدية .

ثم انا نظرنا في نصوص السفر ملياً وصححنا ما وقع فيه من أخطاء مطبعية ، سواء كان في الطبعة الأولى أو الطبعتين البيروتية .

ومع أننا التزمنا بأن نكون متباعدين متحايدين فلا نلون آراء نعوم بآرائنا أو نكون بينه وبين القارىء فاننا أوردنا في نهاية السفر جملة من التعليقات لتصويب أخطاء وقع فيها من واقع الحقائق، لا من دافع الرأي والاتجاه، أو لتنوير القارىء بما استجد بعد نعوم من آراء حول بعض المسائل . وهي تعليقات، على أي حال، قليلة . وقد أبقينا على بعض تعليقات لنعوم أوردها في نهاية سفره مع المحافظة الدقيقة على نصوصها . وهي ترد مع تعليقات في آخر الكتاب ، وقد ذكرنا في آخرها عبارة المؤلف دلالة على ان هذا تعليق من المؤلف .

ومن الواضح اننا ألغينا تجزئة الكتاب وجعلناه سفراً واحداً يشمل تاريخ السودان من قديمه الى حديثه . كذلك أبقينا على الفهارس . وهي ضرورة في كتاب كبير كهذا .

وبعد ، فأنا نرجو أن نكون قد أسهمنا في خدمة تاريخ السودان بالمساهمة في إصدار طبعة جديدة لتاريخ نعوم شقير .

والله الموفق ...

د. محمد ابراهيم ابو سليم

الباب الأول

في

تاريخ ايثيوبيا

« وهو تاريخ البلاد منذ عهد الدولة المصرية السادسة سنة ٣٧٠٣ ق م الى دخول
النصرانية لبلاد النوبة سنة ٥٤٥ ب م »

الفصل الاول

في

تاريخ ايثيوبيا قبل انتظام ملكها

« وذلك منذ عهد الدولة المصرية السادسة سنة ٣٧٠٣ ق . م . الى بدء الدولة الثامنة عشرة سنة ١٦٠٠ ق . م . »

حدودها : امتدت مملكة ايثيوبيا قديماً من الشلال الاول عند اسوان الى أقاصي الحبشة شمالاً وجنوباً ومن سواكن ومصوع على البحر الاحمر الى صحراء ليبيا شرقاً وغرباً وهي تشمل بلاد الحبشة ومعظم بلاد السودان .

اسمها : وقد عرفت ايثيوبيا في الآثار المصرية كما عرفت في التوراة باسم « كوش » . اما ايثيوبيا فهو الاسم الذي أطلقه اليونان على جميع بلاد السود والشديدي السمرة ومعناه الوجه الاسود او المحرّق فهو على اطلاقه يشمل بلاد السودان والحبشة والعرب إلا انه خُصَّ بالبلاد التي فيها كلامنا .

سكانها : واول من سكن هذه البلاد فيما نعلم « السود » وقد اختلفت العلماء في أصلهم فمن قائل انهم نشأوا في القارة وتشعبوا فيها قبائل شتى على ما نراهم اليوم ومن قائل انهم هاجروا اليها من آسيا عن طريق البحر الاحمر

قالوا وما كانوا سوداً بل كانوا بيضاً فسوّدتهم حرارة الشمس وطبيعة القارة على توالي الأجيال كما قال ابن سينا في ارجوزته الطبية :

في الزنج حرّ غيّر الاجسادا حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

وأصحاب هذا الرأي لا يعيّنون تاريخ مهاجرة السود الى افريقية او ربما اضطروا الى القول بهاجرتهم اليها من عهد بعيد قبل التاريخ لأنهم يختلفون في أصلهم اختلافاً كلياً عن جميع السكان الذين هاجروا الى افريقية بعد التاريخ .

ثم ان اولاد « كوش » بن حام هاجروا الى افريقية بعد الطوفان فاستولوا عليها فسميت باسمهم كما مر . ومهما يكن من اصل الايثيوبيين الاولين فالثابت المقطوع به في التاريخ ان سكان البلاد التي جنوبي الشلال الاول كانوا منذ اول عهد التاريخ كما هو اليوم مختلفي الاجناس عن سكان البلاد التي الى شماليه .

وكان الايثيوبيون في اول امرهم قبائل شتى لا تجمعهم كلمة ولا تربطهم جامعة دأبهم الانشقاق وشن الغارات بعضهم على بعض كبادية هذه الايام . ومن هذه القبائل المدوّنة أسماؤها على الآثار المصرية .

«الأوايو» « Uauaiu » وقد سكنوا الصحراء الشرقية حيث العبابدة الآن.

« والمازايو » « Mazaiu » وقد سكنوا جنوبيهم الى طريق بربر فسواكن.

« والبوانيت » « Puanit » وقد أقاموا بين طريق بربر فسواكن وجبال الحبشة .

« والدنقس » « Dangas » وهم أقزام الى جنوبي البوانيت وقد سميت بلادهم ببر الاظلال « Land of the Shades » التي عُدّت حينئذ آخر المعمور حيث الأحياء تلامس الأنفس المفارقة الاجسام وهي البلاد المعروفة باسم « نجباي » بين الحبشة وزنجبار وقد كانوا في حرب دائمة مع الأحباش ولا يزالون كذلك الى اليوم .

هذا ويستدل من الآثار ان قبائل الصحراء المجاورة لمصر كانوا كما هم في هذا العهد يخالطون الحضر على النيل فيأتون من صحرائهم بالمواشي وخشب

السنط والفحم والصمغ والصيد وجلود الحيوانات والحجارة الكريمة ويقايضون منها الأقوات والأنسجة. وكان المصريون يسالمونهم لمنع تعدياتهم والانتفاع بتجارتهم ويجعلون لمشايخهم جعلاً معلوماً يجرونه عليهم في كل سنة فيتعهدون بحماية الطرق وحفظ الأمن ولكنهم ما كانوا يقيمون طويلاً على العهد اذ كان خصب وادي النيل يغريهم فيغزونه من وقت الى آخر فينهبون ويسلبون ويعودون بالنهب والاسلاب الى صحرائهم . وكان المصريون ايضاً كلما فرغوا من حروبهم في الشمال يبعثون بالسرايا الى تلك الصحراء وغيرها من بلاد ايثيوبيا فيسبون ويغنمون من خيراتها ومعادنها ويعودون الى مصر فيدوّنون أخبار غزواتهم على جدران هياكلهم ومدافنهم كما يشاهد في الآثار المصرية الباقية الى الآن .

بدء تاريخها : واول من غزا ايثيوبيا فيما نعلم الملك بيي الاول ثاني ملوك الدولة المصرية السادسة (سنة ٣٧٠٣ : ٣٥٠٠ ق . م) فانه أرسل قائده أونا « Una » الى جهات كورسكو ليجمع بعض انواع الخشب فساعدته قبائل تلك الجهات على جمعه وأقروا للملك بيي بالطاعة .

وأرسل الملك متوسوفيس وهو الملك الثاني عشر من ملوك هذه الدولة القائد هرخف لغزو بلاد البوانيت فعاد بغنائم البخور والابنوس والعاج والجلود حمّلها على ٣٠٠ حمار وأحضر معه قزماً من الدنقس أتى به من بر الاظلال وكان الملوك المصريون يُسرّون بقنية الأقزام في قصورهم لأنهم كانوا على زعمهم يحسنون رقص الآلهة فلما وصل هرخف بالقزم الى ارض مصر كان الملك متوسوفيس قد مات وخلفه اخوه بيي الثاني فسُرّ بخبر القزم وكتب الى هرخف يأمره بإحضاره الى ممفيس وهذا نصّ الكتاب : « واصحب معك في المركب بعض الخفراء لحراسته لئلا يقع في الماء او يفلت في الليل لأني أسرّ برؤية القزم اكثر من سائر الغنائم التي أتيت بها من بلاد البوانيت » . فحفر هرخف هذا الكتاب مع خبر غزوته على واجهة قبره في جزيرة الفنتين تجاه اسوان .

ثم لا نعلم شيئاً يُذكر بين مصر وايثيوبيا الى ايام الدولة المصرية الثانية

عشرة (٣٠٦٤ : ٢٨٥١ ق . م) إذ نرى اوسرتسن الاول ثاني ملوك هـذه الدولة قد عقد لقائده هونو « Huno » وأرسله الى بلاد البوانيت بطريق قفط والقُصير لجمع الجزية من أمراء تلك البلاد. فعند وصوله الى القصير بنى مراكب كبيرة وسار بهـا في البحر الاحمر حتى وصل بلاد البوانيت فجمع الجزية من البخور وغيره من محاصيل تلك البلاد وعاد الى مصر .

وجرّد هذا الملك حملة على ايثيوبيا بطريق النيل فمدّ حدود مصر جنوباً الى الشلال الثاني . وقد وُجد حجر في هيكل تجاه حلفـا نُقل الى فلورنسا بإيطاليا وعليه صورة هذا الملك وبجانبها صور مشايخ القبـائل الثمانية الذين تغلب عليهم في هذه الحملة ومشايخ السود الذين تغلب عليهم في بداءة ملكه .

ثم جاء اوسرتسن الثالث خامس ملوك هذه الدولة فمدّ حدود مصر جنوباً الى شلال سمنه وبنى عنده هيكلاً لا تزال آثاره باقيـة الى اليوم . وقد وُجد هناك حجران وُجعلا الحد الجنوبي لمصر مكتوباً على الواحد منهما مـا نصّه : « هذا حد مصر الجنوبي الذي عُيّن في السنة الثامنة من حكم الملك اوسرتسن الثالث المخلد الذكر فلا يجوز لأحد من السود ان يتعداه إلا في سفن تقلّ البقر والمعزى والحمير من بلاده » وعلى الحجر الثاني ما يُفهم منه ان الملك المذكور وضع هـذا الحجر في السنة السادسة عشرة من ملكه فجعله حداً فاصلاً بين مصر وايثيوبيا وانه أمر ان ينصب تمثاله في تلك الجهة فكان كما أمر . وترى في معتوقه في جنوب الشلال الثاني طابية من آثاره .

وفي جزيرة ارقو تماثيل وخرائب من ايام الدولة المصرية الثـالثة عشرة (سنة ٢٨٥١ : ٢٣٩٨ ق . م) .

واما الدولة الرابعة عشرة (سنة ٢٣٩٨ : ٢٢١٤ ق . م) فلا نعلم شيئاً من أمر ايثيوبيا في أيامها .

وفي بدء الدولة الخامسة عشرة هاجم مصر الرعاة العمالقة من آسيا الجنوبية فتغلبوا عليها وملكوها ستماية سنة ونيفاً فكان منهم الدول المصرية ١٥ و ١٦

و ١٧ (٢٢١٤ : ١٦٠٠ ق . م) وكان المصريون يكرهونهم لأنهم غرباء فلم ينفك أبناء الملوك القدماء عن إثارة الفتن فشغلوهم عن ايثيوبيا . وهاجر في عهدهم كثير من المصريين الى ايثيوبيا فراراً من ظلمهم فأسّسوا عدة مهاجر أهمها مهجر ارقو الذي لا تزال آثاره ظاهرة الى اليوم .

الفصل الثاني

في

مملكة نبتة

« وهو تاريخ ايثيوبيا منذ بدء الدولة الثامنة عشرة سنة ١٦٠٠ ق. م. الى نهاية الدولة الخامسة والعشرين من الدول المصرية سنة ٦٦٤ ق. م. »

ثم ان هؤلاء المصريين الذين هاجروا الى ايثيوبيا أخذوا معهم من جميع أنواع الفنون والصنائع المصرية فحسن بذلك حال الايثيوبيين وتدرجوا في سلم المدنية والعمران حتى انه لم تكن الدولة المصرية الثامنة عشرة (١٦٠٠ : ١٣٨٠ ق. م.) إلا رأيناهم مملكة منظمة وعليهم ملك منهم بل لم يتم المُلك لأحمس اول ملوك الدولة الثامنة عشرة المذكورة إلا بمعونة ملك ايثيوبيا الذي زوّجه ابنته وظافره على طرد الرعاة من مصر وإعادة الاستقلال اليها . ويظهر ان هذا المُلك الذي انتظم للايثيوبيين كانت عاصمته منذ نشأته مدينة نبته عند جبل البرقل بقرب مروى المعروف في الهيروغليف بالجبل المقدس .

ودامت العلاقات الودية بين مصر وايثيوبيا الى حكم تحوتمس الاول ثالث ملوك هذه الدولة فانه غزا الايثيوبيين وانتصر عليهم وولى على البلاد التي فتحها امراء مصريين لادارة شؤونها وضبط أحكامها ولقّب كلاً منهم بأمير ايثيوبيا

الملوكي وقد دوّن خبر انتصاره هذا على صخرة في جزيرة طنبس عند الشلال الثـــاني .

وخرج السود في شاطىء النيـــل الأعلى على تحوتمس الثالث (سادس ملوك هذه الدولة) فحمل عليهم بجيشه ففرّ أكثرهم الى الجبال فأمر بنهب مواشيهم وأموالهم من ذهب وآنية معدنية وريش نعـــام وغير ذلك وهدم مساكنهم وأحرقها وعاد بالغنائم الى مصر. ولهذا الملك هيكل قائم الى الآن تجاه حلفا نقش على جدرانه تاريخ انتصاراته على الليبيين والفينيقيين وغيرهم . وكان قد شرع في بناء هيكل بعمدة فأتمه خلفه امنحتب الثاني ولا تزال آثاره الى اليوم وعليه كتابة تدل على ان هذا الملك أسر سبعة من ملوك الاموريين في تاخيس « Takis » من بـــلاد الشام فأرسلهم في الذهبية الملوكية الى ثيبة (الاقصر) فعلق ستة منهم على سور المدينة وأرسل السابـع الى نبته عاصمة ايثيوبيا فعلقه هناك ليوقع الرعب في قلوب قبائل السود كافة. وهذا اول عهدنا بمدينة نبته.

وغزا امنحتب الثالث (المعروف ايضاً بأمنوفيس الثالث تاسع ملوك هذه الدولة) ايثيوبيا في السنة الخامسة من ملكه فانتصر عليهـــا انتصاراً عظيماً ودوّن ذلك على صخرة بقرب جزيرة فيلي في جنوب الشلال الاول المعروفـــة الآن بجزيرة أنس الوجود . وعلى بعض الصخور بسمنه كتابة تدل على انـــه توغل بجيوشه في ايثيوبيا وأسر من أهلها ٧٤٠ نفساً من ذكور واناث وأطفال وقطع ٣١٢ يداً أحضرها معه بعد الغزوة . وبنى هيكلا في عاصمة نبته وضع امام بابه صفين من الكباش الرابضة على هيئـــة أبي الهول . وفي صُلب آثار هيكل من بناء هذا الملك وخلفه الملك امنحتب الرابـع .

وغزا حورمحب آخر ملوك هذه الدولة الايثيوبيين فانتصر عليهم ورجـــع بالغنائم والأسرى ودوّن خبر انتصاره على الغار الكبير في جبل السلسلة شمالي اسوان حيث ترى صورته على شكل مقاتل حامل على كتفه فأساً كأنه يلتمس من الاله « آمن رع » دوام حياتـــه وتأييد نصرته على اهل الجنوب وكأن « آمن رع » قد اجاب دعوته فانتصر وعاد من غزوته راكباً هودجاً نفيساً

ومعه بعض رجاله وامامه الخدم يمهدون له الطريق وخلفه الفرسان يقودون الأسارى ويليهم العساكر حاملين التروس والموسيقى العسكرية تصدح أمامهم ثم يأتي بعدهم جم غفير من الكهنة وأرباب المناصب الملكية لاستقبال الملك قائلين في مدحه « لقد قدم المقدّس الفاضل بعد ان قهر كبار الامم أجمع وقوسه تلمع في يده فحبذا هذا الملك القادر الفخيم الذي جاء برؤساء ايثيوبيا الأذلاء الأدنياء الأصل وجلب الغنائم بقوته العالية كما أمره آمن رع فتممت هذه النصرة الباهرة » وترى الأسارى يصيحون قائلين « يا ملك مصر وجّه نظرك الينا وأعنّا فأنت شمس الشعوب التسعة وقد اشتهر اسمك وبلغ أقصى ايثيوبيا فزع حربك وملأ قلوب الامم رعبك وانت في مكانك مقيم فانك شمسنا » .

وكان هذا الملك يأخذ الجزية من السود من فضة وذهب وأبنوس كما تشهد بذلك نقوش مقبرة الكرنك . هذا ما كان من العائلة الثامنة عشرة المصرية مع ايثيوبيا .

وقد رأيت في بعض التواريخ القديمة ان الايثيوبيين غزوا مصر في ايام موسى النبي واكتسحوا البلاد الى ممفيس فاستشار المصريون آلهتهم في شأن الايثيوبيين فأوحت اليهم ان يجندوا جيشاً ويعقدوا لواءه لرجل من العبرانيين فاختاروا موسى قائداً على جيشهم وأطلقوا له الحرية ليفعل ما يشاء لردع الايثيوبيين فزحف موسى بالجيش على عاصمة ايثيوبيا ولم يتخذ طريق النيل كما انتظر الايثيوبيون بل سار بطريق الصحراء قيل وكان في طريقه ارض تموج بالحيات فأخذ معه في أقفاص من الببيروس عدداً من طيور « ابي منجل » المصرية التي تصيد الحيات فلما وصل الى تلك الارض أفلتها من الاقفاص فأهلكت جميع الحيات وفتحت الطريق للجيش فأطبق موسى على الايثيوبيين مفاجئاً لهم فانهزموا شر انهزام الى عاصمتهم الحصينة فحصرهم فيها وكانوا يخرجون اليه ويناجزونه فيردهم على أعقابهم خاسرين وكانت ابنة ملك ايثيوبيا في قصرها تشاهد القتال فأعجبتها بسالة موسى فوقع حبه في قلبها وعشقته

فأسرّت بذلك الى بعض رجالها الذين كانت تثق بهم وقالت لهم : اذهبوا الى موسى واخبروه بأني أسلمه المدينة بشرط انه يتخذني زوجة له فأجاب موسى الى طلبها ودخل المدينة وتزوج بها. قلت وهذه من القصص التقليدية الخرافية التي لا دليل على صحتها .

ثم كانت الدولة المصرية التاسعة عشرة (سنة ١٣٨٠ : ١٢٣٠ ق . م) فكان لها من الشأن مع ايثيوبيا ما كان للعائلة التي قبلها وأعظم فغزا ملوكها ايثيوبيا وتغلبوا عليها وأقاموا الحكام لإدارتها وبنوا فيها الهياكل التي لا تزال شاهدة بسطوتهم الى اليوم .

وأشهر ملوك هذه الدولة الذي كان له أعظم الشأن مع ايثيوبيا رعمسيس الثاني ثاني ملوكها (١٣٤٨ : ١٢٨١ ق . م) فانه غزا الايثيوبيين وانتصر عليهم وأقام في تلمس (كلابشة) هيكلاً صغيراً نادر المثال حفره في الصخر تذكاراً لنصرته ولا يزال باقياً الى اليوم ويُعرف عند اهل كلابشة ببيت الولي وهو من أثمن الآثار القديمة في مصر وايثيوبيا وعلى جدرانه نقوش صور وكتابات من أبدع صنع فترى فيها رعمسيس الثاني راكباً عربة تجرها جياد الخيل وهي تنهب الارض نهباً وهو يطلق سهامه على جيوش العدو غير المنظمة فينهزمون امامه الى الغابات . ثم ترى رئيساً من الايثيوبيين مجروحاً يحمله رجاله الى بيته وواحداً من اولاده يحثو التراب على رأسه حزناً عليه وآخر يركض ليخبر والدته وهي تطبخ على نار موقدة في الارض . ثم ترى رعمسيس جالساً تحت مظلته الملوكية والايثيوبيين الذين تغلب عليهم وفي مقدمتهم أمير كوش (المسمى امينابت) يقدمون له الهدايا من خواتم وأكياس الذهب وجلود الفهد وعروش فخيمة ومراوح وسن الفيل وبيض النعام وغيرها . ثم يتقدم وفد من الايثيوبيين ومعهم أسد ونمران وغزلان ثم نرى جماعة من الرؤساء المصريين يتبعهم امير كوش وبعض الايثيوبيين آتين بهدايا من النبات والجلود والقرود وظريف المعاني Camel Opard وغيرها من الحيوانات .

ولرعمسيس الثاني هيكل آخر منحوت في صخر في الدر أقامه لعبادة

الاله آمن رع ذكر فيه ايضاً انتصاره على الايثيوبيين . وله هيكل من الحجر الرملي الصلب في السبوع وعليه صورته يقدم البخور للاله آمن وهو يقول له « لك اعطي كل القوة واعطيك العالم بسلام » وفي اسفل جدران بعض الغرف أسماء اولاد رعميس وعددهم ١٧٨ نفساً. ومن أعماله انه جدد استخراج الذهب والزمرد من معدنيهما في وادي العلاقي المعروف قديماً باسم اكيتا Akita الذي ينتهي عند النيل بكوبان تجاه دَكّا . وهناك آثار قلعة يظن انهـا من عهد رعمسيس الثاني وان القدماء كانوا يذهبون منها الى ذلك الوادي .

ومن بناء رعمسيس الثاني هيكل « ابو سمبل » على ١٧٠ ميلاً من الشلال الاول وهو هيكل عظيم منحوت في الصخر في منحدر أكمـــة مرتفعة فوق النيـــل اقامه تذكاراً لانتصاره على الحثيين في الشمال الشرقي من سورية وهو اعظم الهياكل في ايثيوبية الشماليـــة واجملها بل في صنعه ونحته من العظمة مع البساطة ما لا يوجد في غيره من هياكل وادي النيل كلها. وفي واجهته ثلاثة تماثيل هائلة لرعمسيس الثاني تمثله جالساً ويداه على ركبتيه والتاج على رأسه وعلوّ الواحد منها ٦٦ قدماً وطول قدمه ١٥ قدماً وطول اذنه٣ اقدام و٥ قراريط وكلها منحوتة في الصخر . وفي داخل الهيكل أعمـدة من الصخر نفسه علو الواحد منها ١٧ قدماً . وفي صدره مذبح فيه تمثـال هرمخيس « Son God » ورعميس الثاني امامه يقدم له الطاعة وهناك صورة آمن رع وثوث وغيرهمـا من الآلهة وأسماء اولاد رعمسيس . وعلى جدران الغرف كتابات بالهيروغليفة تبين تاريخ انتصاره على الحثيين والكوشيين اي الايثيوبيين وهناك صور الأمم الافريقية والأسيوية التي تغلب عليها وأمير كوش واقف أمامه . ولرعمسيس الثاني هيكل في نبتة باقية آثاره الى الآن وهو أقدم هياكل تلك المدينة .

هذا وفي جزيرة ساي خرائب من عهد هذه الدولة والدولة التي تقدمتها .

ودامت سلطة مصر على ايثيوبيا الى عهـــد الدولة العشرين (١٢٣٠ : ١١١٠ ق.م) فقد وجد ماريوت سنة ١٨٧٦ حجراً في شونة الزبيب بالعرابة المدفونة بمصر مكتوباً عليه ما نصه : « ان الملك رعمسيس الثاني عشر (وهو

آخر ملوك هذه الدولة) أصدر أمره الى « بيانخاس » حاكم الايثيوبيا ورئيس الأمم الاجنبية التابعة للدولة المصرية يقول له فيه : « أنفذت اليك مستشاري الرئيس ياني بكتاب ضمّنته أوامري فعنـد وصوله اليك ساعده على إنجازها بالحسنى لأنه هو المكلف بإتمامها وعليك ان تلاحظ توابيت «المعبودة» وتضعها في سفينة وتأتي بها معه الى المكان الذي أعدّ لهـا واحضر معك الحجارة النفيسة للصناع واحذر من التـأخير في إنجاز هـذه الأوامر وإلا خلعتك وعاملتك بحسب ما يصل إليّ من أخبارك » .

وبعد هذا العهد اشتغلت مصر عن ايثيوبيا بالفتن الداخلية والحروب مع آسيا . وحدث ان احد ملوك الدولة الحادية والعشرين (١١١٠ : ٩٨٠ ق.م) المسمى سمنتوميامون نفى بعض الكهنة المصريين الى ايثيوبيا فأدخلوا عبـادة الإله « آمن » الى نبتة وقوّوا الايثيوبيين فخرجوا عن طاعة مصر واستقلوا تحت حكم كاهن منهم. ومن ذلك الوقت أخذ نجم ايثيوبيا في الظهور والارتفاع حتى علا على نجم مصر. ففي آخر ايام الدولة الثانية والعشرين (٩٨٠ : ٨١٠ ق.م) هاجم الايثيوبيون مصر وفي آخر ايام الدولة الثـالثة والعشرين (٨١٠ : ٧٢١ ق . م) استولوا على صعيدها .

وكانت مصر في هذه الأثنـاء قد انقسمت الى عشرين ولاية بعضها مستقل عن بعض وعلى كل ولاية أمير فتغلب الملك تفنخت اول ملوك العـائلة الرابعة والعشرين (٧٢١ : ٧١٥ ق . م) عليها كلها وجعلها مملكة واحدة وزحف على الوجه القبلي يحـاول استرجاعه من الايثيوبيين حتى وصل الى اهنـاس الجنوبية .

الملك بعنخى : وكان على الايثيوبيين في ذلك العهـد ملك قادر يسمى بعنخى مقيم في نبتة عاصمة ايثيوبيـا فجرد عليه جيشاً جراراً وقاتله في عدة وقائع حتى انتصر عليه ونقش خبر نصرته هذه على حجر وُجد في نبتة ونُقل منها الى متحف الجيزة بمصر وهـذا ملخص ترجمته عن العقد الفريد عن ده روجه ببعض التصرف :

« في غرة توت من السنة الحـــادية والعشرين من حكم ملك الوجه القبلي والبحري « بعنخى ميامون» خلد ذكره صدر أمره بما نصه : اسمعوا ما فعلته زيادة عن أجدادي انا الملك الخارج من سلالة مقدسة النائب عن المعبود «توم» المميز بشارة الملك منذ الصغر انا المقدس الطيب حبيب المعبودات ابن الشمس « بعنخى ميامون » بلغني ان الامير تفنخت استولى على مدينة منف وغيرها من المدن المصرية الشمالية وسار نحو الجنوب بجيش جرار فأطاعته الأمراء وأعيان البلاد وصاروا تحت رجليه أذلة كالكلاب حتى وصل الى اهنـــاس الجنوبية فحصرها حصاراً شديداً ومنع أهلها من الدخول والخروج ودام على قتالها حتى فتحها. وكان الأمراء يبعثون إليّ بالرسل يسألون عن سبب قعودي عن تفنخت وعدم المدافعة عن الوجه القبلي وقالوا ان النمروذ رئيس الاشمونيين هدم حصون نفروس ودمرها مخافة ان يأخذها تفنخت والتجأ الى مدينـــة اخرى فاقتفى تفنخت أثره فاضطر الى الخروج عن حزبي والانضمام اليه فغمره بأنعامه وأعطاه اهناس الجنوبية . فعند ذلك أرسلت الى قوادي الذين في ثيبة وغيرها من بلاد مصر ان يستعدوا لقتـــاله ويسلبوا مواشيه وسفنه التي في النيل ويمنعوا العمال من الخروج الى الحقول ويحاصروا مدينـــة ارمنت ففعلوا وأمددتهم بالجيوش وقلت لهم : لا تهاجموه ليـــلاً هجوم الخادعين بل هاجموه متى رأيتم انه أعدّ جيوشه وخيوله وسار لقتالكم واذا قيل لكم انه يجمع مشاته وفرسانه في مدينة اخرى ويستعد للهجوم عليكم فاثبتوا في مكانكم الى ان يأتيكم فحاربوه مستبسلين واعلموا ان المعبود «آمن» هو الذي أرسلنا اليهم ولا بدّ ان ينصرنا عليهم . واذا وصلتم الى ثيبه فانزلوا في النيل وطهروا أنفسكم بمائـــه وألبسوا ملابس الأعياد وضعوا عنكم القسي والسهام ولا يتعرّض احد منكم « لآمن » صاحب الحـول والطـول اذ بدونـــه لا يكون لفارسكم قوّة وهو يجبر العظم الكسير ويفني العدد الكثير وينصر الواحد على الالف فاغتسلوا بمـــاء معابده واسجدوا له وقولوا ثبت أقدامنـــا على الحق لنحارب في ظل سيفك لأن المقاتلين الذين ترسلهم يبددون الألوف . فعند ذلك خرجوا قائلين اسمك سيفنا

وعلمك مرشد لجيوشنا وخبزك في أجسامنا ومشروباتك تطفىء ظمأنا وشجاعتك سلاحنا والنصر مقرون باسمك وما يثبت جيش رئيسه معتد باغ فمن يشابهك أيها الملك المنصور الفعال الآمر بالحرب . ثم انحدروا في النيل الى ان وصلوا ثيبة ففعلوا ما أمرهم به ملكهم . واستأنفوا السير في النيـــل فقابلتهم سفن حربية مشحونة بالملاحين والجنود والضباط الماهرين المدرّبين وقد جاءت من الوجه البحري لمحاربتهم فانتشب القتال بين الفريقين وكان النصر لجنود الملك بعنخى فقتلوا من الأعداء وأسروا وأرسلوا أسراهم أحيـاء الى بعنخى . ثم زحفوا على مدينة اهناس الجنوبيـة فاجتمع أعيان الأقسام الغربية والشرقيـة والبلاد الوسطى وحكامها واتفقوا على محاربتهم فأطبق عليهم رجـال بعنخى وأوقعوا بهم وأخذوا سفنهم وأكرهوا من سلم منهم على الفرار فعبروا النيـل الى الغرب فأقاموا في محل يدعى « بابيك » . وفي صباح اليوم الثـاني اجتاز رجال بعنخى النهر مقتفين أثرهم فأدركوهم واختلطوا بهم وقتلوا كثيراً من رجالهم وخيولهم ووقع الرعب فيمن بقي ففروا الى الوجـه البحري منهزمين شر هزيمة . ثم زحف جيش بعنخى على ارمنت فلما بلغ النمروذ خبرهم جمـع رجاله وخيوله وسبقهم اليها فحصروه فيها من الجهات الاربـع ومنعوا أهلها من الدخول والخروج وأرسلوا كتاباً الى الملك بعنخى يعلموه بما كان فلما قرأ كتابهم اغتاظ وتلوّن كالنمر وقال لئن ابقي جنودي على بقية جيوش الوجه البحري او مكّنوا احداً منهم من الفرار ولم يفنوهم على بكرة أبيهم فبحياتي وبحق المعبود « رع » وبحق ابي « آمن » لأقاتلنّ بنفسي وأهدمنّ جميـع حصونهم وأحرمنّهم القتـال ولكن يلزمني قبل ذلك ان احتفل بموسم رأس السنة في جبل البرقل وأقدم القربان لأبي « آمن » يوم تجلّيه في ذلك العيد ثم أتوجه الى ثيبة لأشاهده هناك في موسمه العظيم وبعد ذلك أتفرغ للوجه البحري فأذيقه طعم سطوتي . ولما بلغ جنوده الذين في مصر انه لم يكتف بمـا فعلوا تقدموا الى مدينة «واب» وافتتحوها وأرسلوا يخبرونه فلم يسكن غضبه . ثم هاجموا « تهنى » وكانت مدينة حصينة غاصة برجال الوجه البحري فأقاموا المتاريس

حولها وهدموا أسوارها وأوقعوا بأهلها وكان في جملة القتلى ابن تفنخت امير المشواشيين فأرسلوا يخبرون ملكهم بذلك فلم يسكن غضبه . فهجموا على « حيبنو » وفتحوها عنوة وأرسلوا يبشرونه بذلك فلم يسكن غضبه .

ولما كان اليوم التاسع من شهر توت وصل بعنخي بجيوشه الى ثيبة واحتفل فيها بموسم « آمن » السنوي ثم توجه تواً الى ارمنت التي كانت لا تزال تحت الحصار وخرج من سفينته فوضع النير على خيوله وركب عرباته فانتشر الفزع في قلوب الناس الى أقصى بلاد آسيا ! ثم برز كالأسد وهجم على الأعداء وقال لهم اذا أقمتم على القتال أخرت أوامري بالعفو عنكم فيما بعد وأذقتكم مرارة سطوتي فلم يسمعوا له فوضع معسكره في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة وشدّد عليها الحصار وأقام متاريس من تراب لتقيه مقذوفات أسوارها ونصب سلالم للارتقاء اليها وصوّب رجاله عليها السهام ورموها بحجارة المجانق ووالى الهجوم عليها ثلاثة ايام حتى أفسد هواؤها وحرم اهلها استنشاق الهواء النقي فسلمت فأرسل النمروذ رسله حاملين الذهب والحجارة النفيسة والأنسجة الفاخرة وقائلين لقد ظهر الملك وتاج الثعبان على رأسه وغيظه مكتوم ولم نلبث حتى أطعنا تاجه ثم أرسل النمروذ امرأته لترجم حرم الملك بعنخي وجواريه وبناته واخواته في العفو عنهم فسجدت امام حرم الملك في القصر قائلة أيتها النساء الكريمات حرم الملك وبناته واخواته اغثنى وسكّن غضب الملك صاحب القصر فما أشد سطوته واعظم عدالته ... ولما مثل النمروذ بين يدي الملك بعنخي قال له الملك: لقد سددت طريق الحيوة عن نفسك فقال النمروذ: لو صعدتُ الى السماء كالسهم لأدركتني كيف لا وقد أخضعتَ بلاد الجنوب وأطاعتك بلاد الشمال فهل لنا ان نستظل بظلك فقد أفنى بأسك جميع رجالنا فلا أبٌ يُرى مع ابنه وامتلأت بلادنا بالاطفال ثم خرّ ساجداً امام جلالة الملك وقال : انا احد عبيدك الذين يدفعون الجزية لخزينتك فاحسب ما تجمع من عبيدك كلهم وخذ مني جزية تزيد على مجموع جزيتهم ثم شرع في تقديم جزيته فكانت شيئاً وافراً من الفضة والذهب واللازورد والزبرجد والحديد

والاحجار النفيسة حتى ملأ خزينة الملك وجـــاء بحصان في يده اليمنى وآلة موسيقية تشبه «الربابة» مصوغة من الذهب واللازورد في يده اليسرى وقدمها للملك. فخرج الملك اذ ذاك من قصره وتوجه الى معبد « هرمس » إله ارمنت فقابله عساكرها بالفرح وقال له الكهنة مـا أعظم الملك بعنخى سلالة الشمس لقد جئت الى مدينتك يا حامي حمى ارمنت فاعمل لنـا عيداً لقدومك . ثم جاء المدينة ودخل قصر النمروذ وطاف في غرفه وشاهد جميع خزائنه وأمر بإحضار زوجاته وبناته فأتينَ خاضعات لجلالته فلم يلتفت اليهن . وبعد ذلك تفقد اصطبلات القصر فوجد الخيول بلا علف فأقسم بحيـاته وبالإله « رع » وقال ان اجاعة خيولي هي أقبح ذنب جنيته ايها النمروذ فقال النمروذ : لا تغير قلبك بالغضب ايهـا الملك فاني سأخبر سيد الخدم بغضبك وأعدُّ العلف لخيولك . هذا وقد أهدى الملك بعنخى أموال ارمنت كلهـا الى خزينة آمن رع ساكن ثيبة .

وجاءه ملك اهناس بهدايا من ذهب وفضة وحجارة كريمة وجياد من خيوله وسجد أمامه وقال السلام عليك أيها الملك الحاكم المنصور الثور الذي لا يبطش بالثيران لقد كنت في اعمق هاوية محاطاً بالظلمة فأخرجتني من الهاوية وقشعت عني الظلام انا عبدك ولك جميع ما أملك وها هي جزية اهـــل اهناس التي يقدمونها لملكهم فقبلها منه .

ثم سار بجنوده شمالاً وكان كلما مرَّ بمدينة وقد اقفلت دونه ابوابها يدعوها للتسليم فتسلم له فيدخلها ويأخذ منها الجزية ولا يقتل من اهلها احـــداً حتى اشرف على مدينـــة منف (تجاه القاهرة) فأرسل الى اهلهـا يقول لا تقفلوا أبوابكم دوني ولا تحاربوني فـاني سأدخل مدينتكم وأخرج ولا أسيء الى احد منكم بل أقدم القرابين الى « بتاح » ومعبودات منف كلهـــا وأقيم في معبد « شيق » الصلوة الى « سوكاري » فاعتبروا بأهل الوجه القبلي فاني لم أعاقب منهم الا من طغى ولم أقتـل الا من أغضب المعبود فلم يسمعوا لقوله وأغلقوا دونه أبوابهم . وجاء تفنخت من « صا الحجر » ليلا الى منف وقـال لقواده

وجنوده البرية والبحرية وكانوا ٨٠٠،٠٠٠ رجل ان منف غاصّة بأعظم جنود الوجه البحري وأشوانهـا ملأى بالقمح والشعير وأنواع الحبوب وفيها جميـع العُدَد وسورها متين وطابيتها متسعة حصينة مبنيـــة حسب قواعد الدفاع والنهر محيط بشرقي المدينة فلا يجد العدو مكاناً يهاجمكم منه وانتم تعلمون ان مراعينا غاصة بالمواشي وخزانتي ملآنة من الفضة والذهب والنحاس والملبوسات والعطور والعسل فسأذهب وأعطي جميع ذلك لأمراء الوجـه البحري فاثبتوا في حاميتكم ودافعوا عن انفسكم الى ان أعود اليكم ولما أتمّ كلامه ركب حصانه لأنه أسرع من عربته وقفل راجعاً الى الوجه البحري خوفاً من الملك بعنخى.

وفي صباح اليوم الثاني اقترب الملك بعنخى من منف بقصد كشفها فوجد الماء مرتفعاً الى اسوارها وسفنها راسية على شاطئها وتأملهـا فرآها حصينة منيعة لها استحكام قوي وسور مرتفع حديث البناء ولم يجد فيها موضعاً يهاجمها منه فاستشار رجاله في شأنها فقالوا نجمع كثباناً من التراب مساوية لسورها وننصب عليها سلالم ونقيم المتاريس من حولها فلما سمع الملك بعنخى هذا الرأي تلوّن كالنمر وقال حياتي وحياة المعبود « رع » وابي « آمن » لأهاجمنّ هذه المدينة في الحـــال وآخذنّها كريح عاصف ثم أمر قوّاده فأدنوا السفن والارماث ومراكب النقل من الشاطىء فلم يشعر بهم احد وأمر رجاله فأحدقوا بسورها ودخلوها من جهـــة النهر وكان قد أوصاهم قائلاً اذا تسوّر احدكم السور فلا يقف في مكانه واذا سلم لكم احد الرؤساء فلا تقتلوه لأن هـذا مذموم فعملوا بوصيته وبذلك دخل المدينة وقتل من اهلها خلقاً كثيراً وأحصى أسراها بين يديه . وفي ثاني يوم الواقعة ارسل جماعة من رجاله للمحافظة على المعـابد ثم توجه بنفسه الى هيكل معبودات منف وقدم لها قرباناً من المشروبات وطهر المدينة بالنطرون والبخور وأرجع الكهنة الى أماكنهم ثم توجه الى معبـــد « بتاح » وتطهر في بابه ولما دخله قدّم لأبيه « بتاح رسبتيف » قرباناً عظيماً من ثيران وعجول واوزّ وغير ذلك من الاشياء النفيسة . ثم دخـل قصرها الملوكي فأتاه بعض رؤساء الوجه البحري يجزيتهم راجين ان يأذن لهم في مشاهدة

أنوار وجهه فقبل منهم الجزية . وأهدى جميع خزائن منف واشوانهـــا الى هياكل « آمن » و « بتاح » وباقي معبودات « حكا بتاح » . وفي اليوم التالي عبر النيل الى الشرق وتقرّب الى « توم » ومعبودات مدينة « أماح » بقربان من ثيران وعجول واوزّ راجياً ان يمنحوه السعادة . ثم توجه نحو المطرية فمرّ بمدينة مرتى » وقدم قرباناً لمعبوداتها وتطهر في المنبع الرطب . وغسل وجهه بماء « نو » حيثما تغسل الشمس وجهها. ثم قصد « شيوكامان » وتقرّب للشمس وقت شروقهـا بقربان من ثيران بيض ولبن وعطور وغير ذلك من الاخشاب ذات الرائحة الذكية . ثم دخل معبـــد الشمس (في المطرية) وصلى مرتين وطلب له كبير الكهنة من المعبود ان يهزم أعداءه وبعد ذلك صلى الملك صلاة البـــاب وهي صلاة خصوصية عندهم وكسا الضريح وتبخر بالبخور وتقرب للمعبود بالمشروب وازهار « الحبَنْبن » وهي من ازهار المعبـد العطرية . ثم صعد في السلم الى الطاق الكبير فرأى الشمس في ضريحها وعظّم السفينة المقدسة المعلقة في مقام « رع » و « توم » ثم أقفل الابواب وطيّنها بالابليز وختمهـا بالختم الملوكي وقال للكهنة لا يُسمح لأحد ان يفك ختمي ويدخل هـذا المحل فخرّ الكهنة امامه ساجدين وقالوا سيبقى هذا الختم محفوظاً مباركاً ولا يصيبه أقلّ ضرر ايها الملك القـــادر المعظم محب المطرية . ثم دخل معبد « توم » وصلى فيه .

وفي اليوم التالي عاد الى الشاطىء الذي فيه سفنه وسار الى مدن كهاني واتريب وكامور وغيرها من مدن الوجه البحري فقـدم القرابين لآلهتها وأتاه ملوكها ورؤساؤها وأعيانهـا الممتازون بوضع الريش والمظلات فوق رؤوسهم فسلموا له وقدموا الجزية من الذهب والفضة والحجارة الكريمة والخيول والعطور والنفايس .

فلما بلغت هـذه الأخبار مسامع الملك تفنخت امير المشواشيين ارسل الى بعنخى رسولاً يقول له : اكظم غيظك أيهـــا الملك الظافر فاني وَجل من رؤيتك ولا طاقـــة لي على حربك وقد امتـلأ قلبي رعباً منك لأنك كمعبود

الجنوب « نبتا » وكمعبود الشمال « مونت » وانت الموصوف بالثور المنصور ان أردت شيئاً لا يعارضك فيه احد وقد بلغت الآن جزائر البحر وأقمت في حمى المعبودة « نيت » فراراً من سطوتك وخشية مـن تعنيفك الموجع وتوبيخك المؤلم فأنا الخادم وانت السيد أفلا يعفو السيد عن خادمه . خـذ لخزانتك كل ما أملكه من ذهب وحجارة نفيسة وخذ أجود ما عندي من الخيول والسروج وابعث برسول من قبلك ليزيل الرعب من قلبي فأذهب معه الى المعبود واحلف يمين الطاعة امامه. فأرسل الملك اليه الكاهن الاعظم ورئيس الجيوش فأعطاهما تفنخت فضة وذهباً وملابس وحجارة نفيسة متنوعة ثم ذهب معهما الى المعبود وتاب اليه وحلف يميناً مقدسة بأنـه لا يخالف للملك أمراً ولا يتعدى له قولاً ولا يسيء الى احد من الرؤساء بغير رضاه فقبل الملك توبته واخذ الجزية منه وعفى عنه .

ولما كان صباح اليوم الثـاني أتى ملكا الوجه القبلي وملكا الوجه البحري ليقدموا تحيتهم للملك بعنخى ويتشرفوا بالمثول لديه وكانت فرائصهم ترتعـد كفرائص النساء فلم يأذن لهم في الدخول عليه لأنهم كانوا مدنسين بالسمك المحرم أكله في قصور الملوك ولكنه أذن للنمروذ في الدخول عليـه لأنه كان طاهراً ولم يأكل السمك المنهي عنه ولبث الباقين واقفين خارجاً على أرجلهم .

وبعد ذلك أراد الملك بعنخى الرجوع الى بلاده فشحن سفنه بمـا أهدى اليه من الذهب والنحاس والملابس والخيرات الواردة من الوجه البحري وبلاد الشام والعرب وسار في النيل وقلبـه مفعم سروراً واهل مملكته في الشرق والغرب يستقبلونه بمزيد التجلة والتعظيم وكلما حـلّ ببلاد رفع أهلها هتاف الفرح قائلين أيهـا الملك المنصور بعنخى لقد أتيت وحكمت الوجه البحري وصيّرت رجاله أذلةً كالنساء وحـل الفرح في قلب امك التي ولدتك فصرت شهماً وأعطاك « آمن » جوهره فبشرى لك أيتها البقرة التي ولدت ثوراً كان له على ممر الأدهار ذكر مخلد وملك مؤبـد ألا وهو الملك بعنخى الملك المحب لقسم ثيبة اه » .

ولما تمت للملك بعنخى الغلبة على مصر ألحقها ببلاده وأبقى لأمرائها الامتياز الذي كان لهم من قبل وجعل تفنخت ملكاً بالنيابة عنه فأقام في تأنيس (صا الحجر) مركز حكومته القديم وعاد بعنخى الى نبتة فجعلهـــا تخت الملك لمصر وايثيوبيا .

الملك كاشتا : ولكن لم يلبث ان مـــات وخلفه الملك كاتشا او كاشتا ولم يكن من عائلة ملوكية بل كان متزوجاً بابنة كاهن مصري فنقض عليه تفنخت المذكور واضطره الى اخراج جنوده من مصر ثم توفي تفنخت فخلفه ابنـــه باكوريس وكان قوي الادراك فقيهاً عادلاً فاتخـذ خطة والده وشرع في نزع مصر الوسطى والوجه البحري من الأمراء فنجح في ذلك وجعل مصر كلهـا تحت سلطانه .

الملك سباقون : وفي اثنـــاء ذلك مات كاتشا ملك الايثيوبيين عن ولدين فخلفه احدهما المسمى سباقون وتوجه الى مصر لقتال باكوريس واستعان عليه بأمرائها الذين كانوا يكرهونه لنزعه الملك منهم فوقع باكوريس في قبضته بمدينة تانيس فألقاه حياً في النار واستقل بايثيوبيا ومصر وكان رأس دولة عرفت في تاريخ مصر بالدولة الخامسة والعشرين الايثيوبية (سنة ٧١٥ : ٦٦٤ ق.م) . وكان سباقون رجلاً عادلاً فخوراً محباً للتقدم والاصلاح فلمـا تولى سرير الملك تلقب بألقاب الفراعنة وشرع في تنظيم مصر وضبط إدارتها فأبقى كل رئيس على اقليمه مع حفظ نفوذه على الرؤساء بمراقبة أمراء ايثيوبيين وجعل شقيقته آمن ريتس ملكة على الوجه القبلي في ثيبة . ولهذه الملكة في متحف الجيزة تمثال من حجر الغرانيت الاصفر بقد اهيَف وقوام رشيق ووجه صبوح جميل يزينه التـــاج على رأسها والاساور العريضة في معصميها والحجول الكبيرة في رسغيها على مثال اساور السودانيات وحجولهنّ في هذه الايام والتمثـال قائم على قاعدة من الغرانيت الاسود منقوش عليها اسمهـا واسم اخيها سباقون وابيها كاتشا .

وشاد سباقون في مصر الجسور واحتفر الترع حرصاً على البلاد من ان يمسها غرق او شرق ورمم كثيراً من المعابد واستبدل عقوبة القتل بالاشغال الشاقة واشتهر بحسن التـــدبير وجودة السياسة فتمتعت مصر في اول ايامه بالراحة ولكن لم تدم لها لأن مملكة اشور كانت في ذلك العهد في معظم سطوتها وقد كدرت صفاء الفينيقيين والاسرائيليين والفلسطينيين فأجمعوا على ان يستنصروا ملك مصر لينقذهم من جورها فأرسل « هوشع » ملك اسرائيل هدايا فاخرة الى سباقون (وفي التوراة سوا) وسأله التحالف معهم على شلمنصر ملك اشور فأجابهم سباقون الى ذلك آملاً انه بتعـــاهده معهم يتذرّع الى اخذ ممالكهم وإضافتها الى ملكه كما اضافها اسلافه الفراعنة فقبل الهدايا واعتبرها جزية كما اعتبر مساعدته لهم من قبيل مساعدة الرئيس للمرؤوس وقد بالغ في هـــذا الاعتبار حتى انه نقش على حائط هيكل الكرنك (بالاقصر) انه اخذ الجزية من بلاد الشام كما اخذها مشاهير ملوك مصر الذين تقدموه . فلمـا شاع خبر هذه المعاهدة وبلغ مسامع شلمنصر سار الى « هوشع » ملك اسرائيل فأسره وأخضع قومه ثم سار الى مدينة السامرة وحصرها فمات قبل افتتاحها وكان آخر ابناء العائلة الملوكية الاشورية فخلفه رئيس قواده اسرحدون فسار على خطته وفتح السامرة ثم تقدم الى فلسطين وقتل الملك «يهوبيد» احد المتحالفين مع سباقون فخـــاف سباقون على بلاده وذهب بجنوده الى الشام فانضم الى حانون ملك غزه احد المتحالفين وسار الملكان معاً لقتال الاشوريين فالتقيـا بهم في مدينة رافيا وانتشبت الحرب بين الفريقين وانجلت عن انهزام الجيوش المصرية والشامية ووقع حانون اسيراً في يد سرجون ونجـا سباقون فضلّ في الصحراء الى ان دلّه راعٍ من فلسطين على طريق مصر . وبعد رجوعه ثار عليه سكان الوجه البحري تحت رئاسة اسطيفانيس احد أقرباء الملك باكوريس المتقدم الذكر فانهزم سباقون الى الصعيد .

الملك سبيخون : وبعد قليل مات سباقون وترك حكم الايثيوبيين وصعيد مصر لابنه سبيخون وبقي الوجه البحري تتنازعه فئتان من المصريين فاغتنم

سنيخون فرصة الانشقاق وحارب الوجه البحري واسترجعه الى ايثيوبيا .

الملك طهراق : ولكن ما ثبتت قدمه حتى نقض عليه طهراق احد الامراء الايثيوبيين فقتله وتولى مكانه وكان اسطيفانيس لا يزال محاصراً في مدينة منف فزحف عليه ونزع المدينة منه وطهر مصر من العصاة ثم دعا امه من ايثيوبيا ولقبها بحاكمة الوجه البحري والقبلي وسيدة الامم وكتب على جدران هيكل جبل البرقل اسم مصر بين أسماء البلاد التي خضعت لصولته وبقي متنعماً في مصر الى ان جاءه « اشور اخي الدين » ملك اشور فاتحاً فعجز عن ردّه فتقهقر مع جيشه الى مدينة نبتة واستولى ملك اشور على منف وثيبة ونهب أمتعة هياكلها واوسلها الى بلاده فوضعها في المعابد تذكاراً لنصرته. ثم اشتغل في تنظيم ادارة مصر فأرجع الحكم لأمرائها العشرين وأقام كل امير على اقليمه وضرب عليهم الجزية وعاد الى نينوى تاركاً بعض جنوده حامية في قلاع مصر خوفاً من غائلة الايثيوبيين وقد مرّ في طريقه بنهر الكلب عند مدينة بيروت فنقش على حجر هناك بقرب الحجر الذي نصبه رعمسيس الثاني نقوشاً كبيرة بيّن فيها فتكه بالمصريين والايثيوبيين وادّعى السيادة عليهم .

وفي سنة ٦٦٩ ق.م مرض اشور اخي الدين فاغتنم طهراق الفرصة وزحف على الاشوريين في منف فهزمهم منها واستولى عليها بعد محاصرتها حصاراً شديداً فلما علم اشور اخي الدين بذلك ورأى عجزه عن الدفاع تنازل عن الملك لابنه الاكبر اشور بانبال فتقدم بجنوده الى مصر فنكل بالايثيوبيين وأخرجهم منها وأرجع الحكم الى أمراء مصر العشرين مرة ثانية وعاد الى بلاده ظانّاً ان الايثيوبيين لا يعودون الى مصر فما وصل الى نينوى حتى عاد طهراق فاسترجع مدينة ثيبة وأبطل عبادة العجل « ابيس » منها ثم عاد الى بلاده لرؤيا رآها في المنام وكانت مدة حكمه على مصر عشرين سنة وعلى ايثيوبيا خمسين سنة . وفي المتحف المصري في الجيزة رأس تمثال من الحجر الغرانيت الاسود قالوا انه رأس طهراق لمشابهته لصوره المرسومة على الآثار وهو مستدير

الوجه واسع العينين ممتلىء الخدين بارز الشفتين مع انقلاب خفيف فيهما وفطس قليل في الانف وبالجملة فان ملامحه تحاكي ملامح النوبة الحاليين .

الملك أورد أمن : وخلفه على عرش ايثيوبيا صهره أورد أمن وكانت مصر بعـــد ذهاب طهراق منها قد عادت للاشوريين وأعادوا الحكم الى أمرائها العشرين مرة ثالثة وبقيت تابعة لمملكة اشور الى ان رأى اشور بانبال ان في حكمها عناء ومشقة بالنظر الى بُعدها عن بلاده فأغضى عنها وبقيت تحت حكم أمرائها العشرين .

الملك نوات ميامون : وفي اثناء ذلك توفي اورد امن ملك ايثيوبيا وخلفه « نوات ميامون » فرأى في الحلم انه سيملك الوجه القبلي والبحري فاستبشر بهذه الرؤيا وغزا الوجه القبلي وكان فيه طائفة من الايثيوبيين قد أسسوا حزباً قوياً في ثيبة وضواحيها وأقاموا فيها زماناً حائزين لرتبة الكهانة في معبـــد آمن رع فلمـــا رأوا « نوات ميامون » وهو من جنسهم طامعاً بمصر ساعدوه على عزمه فاستولى على الوجه القبلي بلا قتـــال ثم اخذ في فتح الوجه البحري فعارضه أمراؤه فردهم القهقرى فتحصنوا في قلاعهم ولم يبرزوا لقتاله فملَّ من الانتظار وعاد الى منف متحيراً في امره ولكن اجتمع الأمراء برئاسة واحد منهم يسمى بكرو للنظر فيما يفعلونه فأشار عليهم بالطاعة لنوات ميامون فوافقوه وأتوا الى منف مقدمين له الطاعة فانشرح صدره لإتمام حلمه في السيادة على مصر ونقش هـــذه القصة في حجر وجده ماريوت باشا في اطلال مدينة نبتة بجبل البرقل سنة ١٨٦٣ م وهو محفوظ الآن بمتحف الجيزة وهذا ما جاء فيه ملخصاً عن العقد الفريد ببعض التصرف :

« على الملك العظيم المنصور والحكيم القـــاهر نوات ميامون ملك الوجه القبلي والبحري بيكارع سلالة الشمس محبوب « آمن » ساكن نبتة ... سلام .

في احدى الليالي رأى الملك في الحلم ثعبانين الواحد عن يمينه والآخر عن يساره فلما استيقظ ولم يرَهما دعا المفسرين وسألهم تفسير هذا الحلم فقـــالوا له

انك ستملك الوجهين القبلي والبحري من ارض مصر ويضيء تاجاهما على رأسك ويكون « آمن » مساعداً لك على الامر . ففي تلك السنة ارتقى الى عرش الملك وخرج من مكانه كالباشق اذا انطلق من أجمته فصحبه خلق كثير وتوجه الى نبتة عاصمة ايثيوبيا فتمتع بمشاهدة معبودها « آمن » في الجبل المقدس واهدى اليه الازهار ثم اخرجه من معبده وقدّم له القرابين وهي ٣٦ ثوراً و ٤٠ كأساً من المشروبات ومعها ١٠٠ حمار . ثم سار نحو مصر فلما اقترب من جزيرة اسوان عبَر النيل اليها ودخل هيكل «خنوم رع » معبود الشلالات واخرج تمثاله من مكانه وقدم له القرابين ثم توجّه الى ثيبة (الاقصر) ودخل هيكل معبودها « آمن رع » فرحّب به الكهنة والخدم وكلّلوه بالازهار فأخرج تمثال «آمن رع » من مقدسه وعمل له موسماً كبيراً في أرجاء المدينة . ثم ركب النيل وسار نحو الوجه البحري فكان السكان عن الشاطئين الشرقي والغربي يرحبون به ويهتفون سر مصحوباً بالسلامة والامن ورمّم الهياكل التي دُمّرت وانصب تماثيل المعبودات وثبّت الكهنة في وظائفهم وأقم شعائر الدين . وبقي سائراً بلا معارض حتى وصل الى منف فخرج اليه اهلها محاربين فحاربهم حرباً شديداً وقتل منهم خلقاً كثيراً ودخل منف عنوة فزار معبد « بتاح رستيف » وتقرب الى « بتاح سوكر » والمعبودة « سوخت » إلهة المحبة وانشرح فؤاده من مساعدة المعبودات له إكراماً لمعبوده « آمن » ساكن نبتة . وأمر بتوسيع معبد « بتاح » وأنشأ فيه إيواناً جديداً بناه بالحجر وكساه بخشب السنط وطلاه بالذهب وملأه بالبخور العربي وجعل له ابواباً من النحاس بإطار من الحديد وبنى وراءه حظيرة لحيوانات المعبد وكانت ١١٦ رأساً من المعزى وكثير من البقر . ثم تقدم لمحاربة أمراء الوجه البحري فالتجأوا الى اسوارهم وتركوا له البلاد فحصرهم وانتظر لعلهم يخرجون لقتاله فلم يفعلوا فعاد الى منف واقام بقصره وعزم على ان يرسل اليهم فرسانه ليرقبوا حركاتهم وقبل قيامهم جاء الحجاب واخبروه ان الأمراء وقوف بالباب فقال اسألوهم هل أتوا محاربين او طائعين فقالوا أتينا طائعين لمولانا الملك فقال الملك

وجب عليّ شكر « آمن » معبود ثيبة العظيم الذي حقق لي الآن ما أرانيه في الحلم ثم خرج من قصره لمشاهدة الامراء وكانوا من عبّدة الشمس فلما رأوه خرّوا على جباههم احتراماً لهيبته فقال لقد تأكدت ان الشمس المعبودة تحبني وان « آمن » جعلني مباركاً فسأفعل كل ما يأمرني به فقال الامراء نسأل هذا المعبود ان يرشدك الى الخير ويؤيدك بالنصر فأنت ملكنا ومولانا. ثم قام بكرو امير مدينة بسانبو وقال مخاطباً الملك : انت تميت من تشاء وتحيي من تشاء ولا يلومك احد وقال بقية الامراء : أتينا ايها الملك لنستنشق منك روح المحبة فنحن نريد ان نخدم « آمن » ونكون في جملة اتباعك فهل لك ان تقبل رجاءنا ؟ فانشرح صدر الملك من كلامهم وأمر لهم بالخبز والشراب وابقاهم عنده اياماً كثيرة وهو يغمرهم بالعطايا والاحسان على كثرتهم ثم استأذنوه في الرجوع الى بلادهم للقيام بواجب رعاياهم فأذن لهم . ثم أتاه وجوه البلاد القبلية والبحرية مقدمين له الجزية والهدايا فاطمأن بذلك قلب الملك بيكارع سلالة الشمس نوات ميامون دام بصحة وعافية وعيشة راضية ودام له الملك أبد الدهر .

وفي آخر ايام هذا الملك اعتصب وجهاء بلاد مصر واعيانها وثاروا على الايثيوبيين فطردوهم من الوجه البحري وتقاسموا الملك فيما بينهم وكانوا اثني عشر حاكماً فسميت حكومتهم بالمقاسمة الاثني عشرية وداموا على ذلك ١٥ سنة الى ان قام احدهم بسامتيك من سلالة العائلة الصاوية فطمع بالاستقلال واستعان بعساكر يونانية متطوعة فتغلب عليهم واستبدّ بالملك . ثم سار الى الوجه القبلي ففتحه من الايثيوبيين وأعاد الحدود المصرية الى اسوان . وهكذا انتهى حكم الايثيوبيين على مصر بعد ان حكموها ٤٩ سنة وكان حكمهم عادلاً ومع ذلك لم يكن مقبولاً لأنهم غرباء .

الفصل الثالث

في

مملكة مروى

« وهو تاريخ ايثيوبيا منذ بدء الدولة المصرية السادسة والعشرين سنة ٦٤٤ ق . م
الى دخول الديانة المسيحية لبلاد النوبة سنة ٥٤٥ ب . م »

١ - تاريخ مروى في عهد الفرس وآخر عهد الفراعنة على مصر
(٦٤٤ : ٣٣٢ ق . م)

ما انقضت الدولة المصرية الخامسة والعشرون حتى انقضت معها مملكة نبتة في ايثيوبيا وقام في مكانها مملكة مروى فنالت في التاريخ شهرة لم تنلها نبتة وامتدت من الشلال الاول الى أعالي النيل الازرق وكانت عاصمتها مدينة مروى على النيل الكبير في مكان يعرف الآن بالبجراوية على ٢٣ ميلاً شمالي شندي .

واول من ذكر مروى في التاريخ هيرودوتس المؤرخ اليوناني الشهير الذي عاش في القرن الخامس للمسيح قال : « وفوق جزيرة الفنتين تبتدىء بلاد الايثيوبيا فيتعذر السفر في المراكب مسيرة اربعين يوماً بسبب كثرة الصخور

في طريق النيل وبعد ذلك تركب قارباً وتسافر مسيرة اثني عشر يوماً فتصل الى مدينة كبيرة اسمها مروى قيل انها عاصمة ايثيوبيا » . ثم ذكرها كثيرون غيره من مؤرخي اليونان والرومان .

فرار العساكر المصرية الى ايثيوبيا : وأهم مـــا ذكره هيرودوتس من أخبارها فرار العساكر المصرية اليها في عهد الملك بسامتيك المارّ ذكره الذي أسس الدولة المصرية السادسة والعشرين (٦٤٤ : ٥٢٥ ق . م) قال : « ان بسامتيك لما تولى الملك كانت مصر تئنّ عجزاً وضعفاً مما قاسته من الحروب مع اشور في عهد الايثيوبيين فأخذ في تقويتها وإحياء ربوع العلم والصناعة فيها . ثم التفت الى مناعتها فجعل حاميـــة في دفنة البليوسية المعروفة الآن بالفرَمه بقرب بورت سعيد ليدفعوا غارات العرب والسوريين . وحامية في ماريه اي بحيرة مريوط لوقايتها من الليبيين . وحامية عنـــد جزيرة الفنتين لحمايتها من الايثيوبيين وكانت عساكر هذه الحاميات من المصريين .

وكان لبسامتيك جيش قوي من اليونان حـــارب به حرباً طويلة في سورية وفتح مدينة اشدود وكان يعزه ويكرمه فأغـــاظ ذلك المصريين المقيمين في الحاميات المذكورة وكانوا قد قضوا فيها مدة الثلاث سنوات المفروضة عليهم فسألوه ان يبـــدلهم بغيرهم فرفض ففروا الى ايثيوبيا وكانوا نحواً من ٢٤ الفاً (والاقرب الى التصديق ان الذين فرّوا الى ايثيوبيا هم رجال حـــامية الفنتين فقط وهو رأي المؤرخ شارب الانكليزي) فلما بلغ الخبر بسامتيك تبعهم حتى أدركهم فتوسل اليهم كثيراً ان يعـــدلوا عن هجر آلهة بلادهم وترك نسائهم واولادهم فما صغوا له وأجابوه بما معناه :

تلقى بكل بلاد إن حللتَ بها اهـــلاً بأهل واخواناً بإخوانِ

ولما وصلوا الى ايثيوبيا قدموا انفسهم الى ملكها فرحّب بهم ووهبهم بلاد أعداء له من الايثيوبيين وقال لهم اطردوهم من بلادهم واسكنوها ففعـــلوا فازداد الايثيوبيون تمدناً باستيطان هؤلاء العساكر بينهم وتعلموا آداب المصريين. وقد نشأ من ذرّيتهم في ايثيوبيا طائفة كبيرة عرفت بطائفة الاسمـــاخ اي

الجالسون عن يسار الملك اه » . هـذا وقد سماهم هيرودوتس « الاتومولي فعرفوا بهذا الاسم الى القرن الاول للميلاد. واختلف المؤرخون في تعيين البلاد التي سكنوها فذهب البعض انهم سكنوا بلاد الجزيرة بين النيل الازرق والنيل الابيض وذهب البعض الآخر انهم سكنوا جنوبي جزيرة مروى بين النيـــل الكبير والاتبرة ولعلّ الاقرب الى الصواب ان ملك مروى انتقى أشدهم وضمهم الى جيشه وارسل الباقي لقهر أعدائه كما مرّ .

وتوالت مـلوك الدولة السادسة والعشرين على مصر ولم يكن بينهم وبين ايثيوبيا ما يذكر سوى ان بسامتيك الثـاني ثالث ملوك هذه الدولة ثار عليه اهل ايثيوبيا فتوجه لقتالهم سنة ٥٩١ ق . م ومات بعد رجوعه بقليل .

خبر كمبيز مع ايثيوبيا : وفي آخر مدة هـــذه الدولة كان الفرس قد صاروا في عزّ ومنعة وعليهم الملك كمبيز فطمع في مصر فجرّد لهـا وفتحها عنوة وأسس الدولة السابعة والعشرين (سنة ٥٢٥ : ٤١٥ ق . م) ثم طمع في ايثيوبيا وحاول فتحهـا فلم يفلح . وقد روى هيرودوتس الذي زار مصر في عهد خلف كمبيز اخباراً لطيفة عما كان لكمبيز مع ايثيوبيا قال :

« قرّ رأي كمبيز على غزو الايثيوبيين فرأى ان يرسل لهم الجواسيس اولاً ليستطلعوا طلعهم ويتحققوا خبر مائدة الشمس التي كان يسمع بهـا في بلادهم فأحضر جمـاعة من جزيرة الفنتين يحسنون لغة الايثيوبيين وارسلهم الى ملك ايثيوبيـا بهدايا فاخرة وهي ثوب من الارجوان وطوق من الذهب واساور وصندوق من الرخام مملوء اطياباً وبرميل من نبيذ البلح وعلمهم مـا يقولونه للملك . قيل وكان الايثيوبيون الذين ارسل اليهم كمبيز هـــذه الرسالة أطول النـاس قامة وأكملهم خلقاً وكان لهم عادات تختلف عن عادات سائر الأمم اشهرها انهم يولون الملك لمن كان له اكبر جثة وكانت له قوة عظيمة بنسبة جثته . فلما وصل رسل كمبيز الى ملك هذا الشعب قدموا له الهدايا وقالوا : « ان كمبيز ملك الفرس أراد ان يكون بينك وبينه مودة وإخـــاء فأرسلنا اليك بهذه الهدايا التي هو نفسه يسر بهـا كثيراً » . ولكن لم يخفَ على الملك

قصد كمبيز فقال لهم ليس حب المحالفة هو الذي حمل ملك الفرس على إرسالكم إليّ بهـــذه الهدايا ولا انتم تقولون الحق ولكن الصحيح انه طمع في بلادي فأرسلكم لتتجسسوا اخبارها فهو ليس بعادل ولو عدل لما طمع في غير بلاده ولا حاول استعباد امة لم تسىء اليه بشيء ثم تناول قوساً كبيرة ووترها وقال خذوا هذه القوس الى ملككم وقولوا له ان ملك الايثيوبيين ينصح لملك الفرس بأنه متى صار الفرس قادرين على وتر قوس هـذا حجمها بهذه السهولة فليأتِ لحرب الايثيوبيين المكروبيين ولكن بجيوش اعظم عـدداً من جيوشهم وفي اثناء ذلك فليقدم الشكر للآلهة لأنها لم تلهم الايثيوبيين الرغبة في توسيع نطاق بلادهم بفتوحات جديدة . ولما قال هـــذا حلّ القوس ودفعها الى الرسل ثم أخذ الثوب الارجواني بيـده وسألهم ما هو وكيف يصنع فلمـا أجابوه قال هؤلاء النـــاس خداعون واثوابهم خدّاعة . ثم سألهم عن الطوق والاساور فأجابوا انها حُلى وأوضحوا له كيفية لبسها فضحك وظنّ انها سلاسل وقال عندنا سلاسل أقوى منها . ثم سألهم عن الطيوب ولما اعلموه بتركيبها وكيفية استعمالها أبدى الملاحظة التي أبداها عنـــد كلامه عن الثوب الارجواني . ثم سألهم عن الخمر وكيفية استخراجها وسُرّ بشربها سروراً عظيماً . وسأل عن الاطعمة التي يأكلها الملك وعن اطول حيوة عند الفرس فأجابه الرسل ان طعام الملك الخبز وأوضحوا له ماهية الحنطة وقالوا ان اطول حيوة عند الفرس ثمانون سنة فقـال الملك اذاً لا عجب من أناس طعامهم الزبل ان تكون سني حياتهم قليلة ثم قال مشيراً الى الخمر وبهذا الشراب يمتاز الفرس على الايثيوبيين ولولاه لما عاشوا كل هذه المدة .

ثم ان الرسل سألوا الملك في نوبتهم عن حيوة الايثيوبيين وطعامهم فأجابهم ان اكثرهم يدرك سن المئة والعشرين وبعضهم يفوق هـذا السن وان طعامهم اللحم المسلوق وشرابهم اللبن . ولمـــا أظهر الرسل دهشتهم من طول حيوة الايثيوبيين أتى بهم الى نبع ماء عجيب اذا اغتسل به احد اصبح جلده ناعماً لامعاً كأنه مُرخ بالزيت وفاحت منه رائحة كرائحة البنفسج وقـال الرسل

ان ماء تلك العين كان خفيفاً جداً حتى لا يطفو عليه شيء لا الخشب ولا ما هو أخف منه بل كل ما يلقى فيه يغرق الى قعره (قال هيرودوتس) : فان كان هذا الماء كما قالوا لم يبعد ان يكون طول حياتهم من كثرة استعمالهم إياه. ثم سار الملك بالرسل الى السجن فرأوا المسجونين مقيدين بقيود ذهبية لأن النحاس عند هؤلاء الايثيوبيين كان أندر المعادن وأثمنها . ثم أتى بهم الى ما يسمونه « مائدة الشمس » وهي مرج في ظاهر المدينة يملأ ليلاً بأنواع الأطعمة من لحوم الحيوانات ذوات الاربع التي يرسلها كبراء المدينة لأغراض في انفسهم فيأتي من شاء نهاراً ويتناول غذاءه منها وهم يعتقدون ان الارض نفسها تنبت لهم هذه اللحوم من وقت الى آخر .

واخيراً زاروا قبور الايثيوبيين وهي مصنوعة من البلور على الطريقة الآتية : يجففون الجسد اولاً على طريقة المصريين او طريقة اخرى ثم يطلونه بالجصّ (Gypsum) ويدهنونه حتى يشبه منظره الحي ما امكن ثم يضعونه في اسطوانة مجوّفة من البلور الذي يصنعون منه كثيراً بسهولة وبذلك يُرى الميت ولا تنبعث منه رائحة كريهة فيحفظ أدنى أقارب الميت هذه الاسطوانة في بيوتهم مدة سنة فيقدمون لها الذبائح وباكورة كل شيء وفي نهاية السنة يخرجونها خارجاً ويضعونها في مكان قرب المدينة .

ولما رأى الجواسيس كل شيء عادوا الى بلادهم وقصّوا على الملك كمبيز جميع ما رأوه وسمعوه فغضب من كلام ملك ايثيوبيا غضباً شديداً وأمر جيشه بالزحف على الايثيوبيين في الحال ولكنه لم يدبّر له الاقوات ولا قدّر انه غازٍ بلاداً بعيدة في أقصى المعمور بل سلك مسلك النزق والحمق كمن أضاع رشده وزحف بجميع جيوشه البرية فلم يبقَ في مصر الا اليونانيين ولما وصل ثيبة ارسل نحو خمسين الفاً الى الامونيين (واحة سيوه) وأمرهم باستعبادهم وحرق هيكل جوبيتر بالنار فذهبوا ولم يعودوا ولا عاد منهم مخبر ويظن انه ثارت عليهم عاصفة من الرمال في الطريق فأهلكتهم . وسار هو بباقي جيوشه الى الايثيوبيين ولكنه لم يقطع خمس الطريق حتى نفدت منه الاقوات فشرع

العساكر في أكل حيوانات الحمل حتى نفدت. فلو عدل كمبيز عن عزمه اذ ذاك وعاد بجيشه لعُدّ حكيماً وغُفرت زلته الاولى ولكنه بقي مستمراً في السير حتى صارت العساكر تأكل العشب فلما وصلوا الى الرمال اضطرّهم الجوع الى اعمال فظيعة فصاروا يجتمعون عشرة عشرة ويلقون القرعة فمن أصابته أكلوه فلما رأى كمبيز ما حلّ بجيشه عدل مرغوماً عن غزو الايثيوبيين وقفل راجعاً الى ثيبة بعد ان فقد جانباً عظيماً من جيشه ثم أتى الى منف وسمح لليونانيين بالرجوع بحراً الى بلادهم وهكذا انتهت غزوة كمبيز للايثيوبيين » اه . ومن ملوك ايثيوبيا الذين عاصروا كمبيز فاشتهروا بالسطوة والاقتدار ودانت لهم كل قبائل ايثيوبيا شرقاً وغرباً حورسياتف ونستوسنن .

ثم ترى المصريين قد استقلوا عن الفرس وقام منهم الدول الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون (سنة ٤١٥ : ٣٤٠ ق.م) . ولكن لم يكفّ الفرس عن مناوأتهم كل هذه المدة فشغلوهم عن ايثيوبيا ودامت الحرب سجالاً بين الفريقين حتى فاز الفرس وكانت مصر اذ ذاك بيد الملك نكتانيبس فانهزم الى ايثيوبيا السفلى وملك الفرس مصر المرة الثـــانية فأسسوا الدولة الحادية والثلاثين (سنة ٤٣٠ : ٣٣٢ ق . م). وكان آخر ملوكها الملك دارا الثالث الذي كان معاصراً لاسكندر المكدوني الشهير .

٢ - تاريخ مروي في عهد اليونان على مصر
(٣٣٢ : ٣٠ ق . م)

وفي ايام الملك دارا اخذت دولة الفرس تتقهقر وبدأ نجم اليونان في الارتفاع فشرع الاسكندر في مدّ فتوحاته وتوسيع نطاق مملكة ابيه ففتح الهنـــد وفارس ثم التفت الى مصر فأخذها من الفرس وبنى الاسكندرية فجعلها عاصمة البلاد . وتولاها بعـــد وفاته (سنة ٣٢٣ ق . م) البطالسة اليونان فمدّوا حدودهم في ايثيوبيا الى المحرّقة على نحو ثمانين ميلاً من الشلال الاول حيث بنوا

هيكلاً لا تزال آثاره باقيـــة الى الآن . ومن آثارهم هياكل كلابشة والدكة وغيرهمـا من بلاد ايثيوبيا السفلى وهيكل جزيرة فيلي المعروف الآن « بقصر أنس الوجود » شرع في بنائه بطليموس فيلادلفوس وهو بطليموس الثـــاني (سنة ٢٨٥ : ٢٤٧ ق. م) ثم اشتغل فيه كل من جاء بعده من البطالسة حتى أتموه فاذا هو من أجمل الهياكل التي بناها القدماء والباقي منه الى الآن يدل على انه كان من الجمال وحسن الهندام على جانب عظيم .

الملك ارجمينس : وقام على ايثيوبيا في ايام بطليموس الثاني المتقدم الذكر « الملك ارجمينس » وكان للكهنة الايثيوبيين الى ايامه سلطة عجيبة على الشعب والملك معـاً حتى كان من عادة كهنة مروى انهم اذا غضبوا على ملك ارسلوا اليه رسلاً يأمرونه بقتل نفسه بحجة ان ذلك يسرّ الآلهـة . قيل وكان الامر يسحره فيخضع له صاغراً حتى قام ارجمينس هـذا وكان ملكاً حربياً متثقفاً بآداب اليونان وعلومهم وكان يكره الكهنة ولا يطيق غطرستهم فأرسلوا اليه امراً ليقتل نفسه فهـاجه الامر وحمل عليهم في الهيكل الذهبي الذي كانوا يقيمون فيه وقتلهم عن آخرهم . وسنّ قوانين جديدة لمملكته وحوّر كثيراً في ديانة الايثيوبيين . ومن آثاره البـاقية الى الآن هيكل في دكّا المعروفة قديماً باسم سلقيس بناه على أطلال هيكل من بناء الدولة المصرية الثانية عشرة.

الملك ازخر آمن : وقام بعـده على ايثيوبيا الملك ازخر آمن فبنى هيكلاً في دبود المعروفة قديماً باسم تاهت ولا تزال آثاره ظاهرة الى اليوم . ولم يشتهر من ملوك مروى في عهد البطالسة على مصر غير هذين الملكين .

مملكة اكسوم ومملكة سوبه : ومن ممالك ايثيوبيا التي اشتهرت في هذا العهد مملكة اكسوم في شمالي الحبشة على بضعة اميال من عدوه . ومملكة سوبه على النيل الازرق على ١٥ ميلاً من الخرطوم . وقـد ذكر المؤرخون ان بطليموس يورجيتس الثاني ثامن البطالسة (سنة ١٤٦ : ١١٧ ق . م) زحف على مملكة مروى ففتحها ثم سار جنوباً ففتح مدينـة اكسوم ودوّن خبر فتوحاته باللغة

اليونانية على حجر من الرخام في ميناء ادولس المعروفة الآن بميناء زولا على عشرين ميلاً الى الجنوب من مصوع وهي ميناء اكسوم. وقد وصف المؤرخون ايثيوبيي تلك الايام بالشجاعة الوحشية وعدم النظام كأهل السودان في هذه الايام . اما جيش بطليموس فكان على أتمّ النظام وكان معه في هذه الغزوة خمسماية فارس من اليونانيين فألبس مئة فارس منهم نسيجاً ثخيناً من الكتان وألبس خيلهم ايضاً من هذا النسيج لكي لا تؤثر فيهم سهام الايثيوبيين . ولم يسبق ان ملكاً من ملوك مصر مدّ فتوحاته جنوباً الى الحد الذي وصل اليه بطليموس ولكنه لم يستطع حفظ سلطته على البلاد التي فتحها فعادت لأهلها كما كانت وعادت حدود اليونان الى المحرّقة .

٣ - تاريخ مروى في عهد الرومان على مصر
(٣٠ ق . م : ٦٤٠ ب . م)

وكان آخر من ملك مصر من البطالسة كليوبترا ابنة بطليموس اوليتس وبعد وفاتها آل ملك مصر الى الرومان في عهد الامبراطور اوغسطوس قيصر فجعلها ولاية من ولاياته يتولاها والٍ او نائب روماني ويحكمها بموجب الشرائع الرومانية . وكان اول من تولاها من الرومان « كرنيليوس جالوس » وقد ظهر من كتابة على بعض الآثار ان « الملك تواكوتاس خوانوس » (ويُظن انه ملك سوبه) ارسل رسلاً في ايام هذا الوالي الى فيلي ودخل في حماية الرومان .

الملكة كنداكة : وفي سنة ٢٣ ق . م اخرج الامبراطور اوغسطوس قيصر معظم عساكره من مصر لغزو بلاد العرب وكان على مروى حينئذ ملكة تلقب بكنداكة تحب الحرب والفتوح فاغتنمت الفرصة وسارت بجيش مؤلف من٣٠ الف مقاتل الى مصر تريد افتتاحها ففتحت حامية فيلي وحامية اصوان اللتين على حدود مصر ودخلت مصر العليا وكان النائب الروماني اذ ذاك

رجلاً شديد البأس يسمى بترونيوس فحمل على كنـداكة بجيش منظم مؤلف من عشرة آلاف راجل وثمانماية فارس فلما سمعت كنداكة باستعداده رجعت الى ايثيوبيا السفلى فتأثرها حتى أدركها بقرب سلقيس (دكا) وطلب منهـا ردّ الاسرى والغنائم التي أخذتها من مصر ولمـــا لم تجبهُ جواباً مرضياً حمل عليها وكان معظم جيشها غير منظم ولا سلاح له الا الفؤوس والنبابيت فانتصر عليها انتصاراً عظيماً وشتت جيشها كل مشتت ثم تقـدم الى ابريم وكان فيها حامية قوية للايثيوبيين فاستولى عليها ثم سار الى نبتة فخرّبها. وفرّت الملكة كنداكة من وجهه فامتنعت في قلعة في الشلال الرابع ولما رأت ان لا طاقة لهـا على حربه بعثت اليه في طلب الصلح وكان بترونيوس قد نفد منه الزاد وأضنى جيشه الحرّ فاضطر ان يرجع الى الاسكندرية قبل نهـاية الصلح وفي طريقه أقام حامية في ابريم مؤلفة من ٤٠٠ رجل وحامية في دكا . فلما رأت كنداكة ان بترونيوس رجع عنها مضطراً جمعت شتات جيشها وسارت حتى وصلت ابريم فحصرتها ولكنها لم تلبث ان رأت عجزها عن استمرار الحصار فرفعته وأرسلت سفراءها المرة الثانية الى بترونيوس في طلب الصلح فأرسل بترونيوس السفراء الى الامبراطور اوغسطوس قيصر وكان اذ ذاك في جزيرة ساموس في الارخبيل الرومي فصالحهم على الشروط التي قدمتها كنـداكة . ولهذا الامبراطور هيكل قائم الى الآن في دندور على ٥٢ ميلاً من الشلال .

ثم لم يكن بين الرومان وايثيوبيا ما يُذكر الى ايام الامبراطور نيرون وهو الامبراطور الخامس من أباطرة الرومان على مصر فانه في سنة ٦٠ ب.م ارسل حملة الى ايثيوبيا بقصد اكتشاف منابع النيل فكان من اخبارها انهـا سارت فيه حتى وصلت الى مستنقع لا يمكن سلوكه فعـادت بالخيبة الى مصر ولعلّ هذا المستنقع هو « السدّ » . قالوا وكان الحاكم على مروى في عهد هذه الرسالة ملكة تلقب بكنداكة . وهذا آخر عهدنا بملكة مروى .

اما « مملكة اكسوم » فيؤخذ مما كتبه المؤرخون عن هذا العهد انه كان بينها وبين الرومان علائق تجارية دامت طويلاً وان الرومان لم يسمحوا لأهلها

ببناء المراكب او الملاحة في البحر الاحمر. ثم كانت النصرانية فاعتنقتها مملكة اكسوم في القرن الرابع وعُرفت البلاد بعد ذلك باسم الحبشة ولا تزال تعرف بهذا الاسم الى اليوم وقد أفردنا للحبشة تاريخاً خاصاً قائماً بذاته .

اما « مملكة سوبه » فلم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من اخبارها في الجاهلية الا ان آثارها الباقية الى الآن تدلُّ على انها كانت على درجة سامية من الحضارة والعمران . ويظن البعض انها كرسي مملكة سبأ التي جاءت لتختبر حكمة سليمان . وبقيت سوبه على الوثنية الى ان امتدت النصرانية اليها من مصر فقامت فيها مملكة نصرانية عُرفت عند مؤرخي الاسلام بمملكة علوة وسنأتي على ذكر تاريخها .

النوبة والبجة : هذا وقد ذكر استرابو (٥٤ ق . م : ٢٤ ب . م) ان الايثيوبيين فوق اصوان كانوا في إبامه اربع قبائل مختلفة : التروقلوديته ، والبلامس (والمشهور انهم البجة) ، والنوبة ، والمقباري . فسكن البلامس والمقباري في الصحراء الشرقية شمالي مروى الى جهة حدود مصر في مكان الأوايو والمازايو المتقدم ذكرهم وكانوا تحت حكم الايثيوبيين. وسكن التروقلوديته في الصحراء الشرقية فكان حدُّهم الشمالي بيرينيس (راس بناس) والغربي النيل وظنّ بعضهم انهم هاجروا الى هذه الجهة من جزيرة العرب بعد افتتاح بطليموس يورجيتس لايثيوبيا . وسكن النوبة على النيل . وذكر غير استرابو من المؤرخين وجود قبيلة الاشتيفاجي على شطوط البحر الاحمر .

ولكن لم يشتهر في تاريخ ايثيوبيا بعد ان دالت دولة مروى الا النوبة والبجة الذين ما زالوا الى الآن مقيمين في الاماكن المارّ ذكرها .

وقد انتظم للنوبة ملك في تلمس (كلابشة) وكان بينهم وبين البجة وقائع معدودة فترى على جدران هيكل كلابشة المتقدم الذكر كتابة باليونانية مفادها: ان الملك سلكو ملك النوبة وكل الايثيوبيين انتصر على البجة في عدة وقائع . وذكر فوبسكوس ان بروبس النائب الروماني الذي تولى مصر من سنة ٢٧٦: سنة ٢٨٤ ب . م غزا البجة في صحراء ثيبة فقهرهم وأرسل منهم اسرى الى

رومية . وذكر بعض المؤرخين ان البجة ما زالوا يغزون الحدود المصرية كلما سنحت لهم الفرصة .

هـذا وكانت المحرّقة آخر حدود مصر الجنوبية في ايام الرومان كما كانت في ايام اليونان . فرأى الامبراطور ديوقليشيان (٢٨٤ : ٣٢٣ ب . م) ان خراج البلاد التي بين المحرّقة واصوان لا يفي بنفقـات العساكر اللازمة لجمعه فلا فائدة من حفظها فأقطعها للنوبة وأعـاد الحدود المصرية الى اصوان فقوّى حامية الفنتين وعقد مع النوبة معاهدة جديدة وجعـل للنوبة وللبجة جعلاً معلوماً من المـال يدفع لهم كل سنة على شرط ان البجـة يكفـّون عن غزو الحدود المصرية وانهم اذا لم يمتنعوا عنه من انفسهم منعتهم النوبة بالقوة . وقد أسكن بعضهم في جزيرة الفنتين وسمح لهم بالصلاة في الهيـاكل مع الرومانيين وسمح لكهنتهم بالاقامة في الهياكل مع كهنة الرومانيين فوفوا بالعهود الى ايام الامبراطور مارشيان ثم نكثوا بها وغزوا بلاد مصر العليـا فغنموا وأسروا وعادوا الى بلادهم فهـاجمهم الجنرال مكسيمينوس الروماني قائد ثيبة فقهرهم جميعاً اي النوبة والبجة معاً وذلك سنة ٤٥١ ب . م فطلبوا الصلح على ان لا يدخلوا مصر ما دام هذا القائد على ثيبة اما مكسيمينوس فلم يرضَ ان يكون بينه وبينهم صلح حتى يرجعوا الاسرى ويدفعوا قيمة مـا غنموه من مصر ويجعلوا بعض كبارهم رهناً ففعلوا فعقد معهم صلحاً لمئة سنة .

وكان من عادة النوبيين منـذ القديم ان يذهبوا كل سنة الى هيكل أيسس في جزيرة الفنتين ويأخذوا احد التماثيل الى بلادهم فيستخيرونه في شؤونهم ثم يرجعونه الى الهيكل فلما فرض عليهم في هذا الصلح ان لا يدخلوا مصر سألوا مكسيمينوس ان يأذن لهم في زيارة الهيكل كل سنة لئـلا يعترضهم خفراء الرومان فأذن لهم وكتبت المعاهدة على ورق البيروس وعُلقت في هذا الهيكل ولكن لم يكن الا القليل حتى مات مكسيمينوس فنقض النوبيون المعـاهدة ودخلوا بلاد ثيبة فاكتسحوها واسترجعوا رهائنهم بالقوة وأعادوا عبادة ايسس وسرابيس الى بلاد ثيبة وذلك بعد ان بطلت عبادة الاوثان تماماً من تلك البلاد

بأمر ثيودوسيوس الاول بسبعين سنة ومـا زالت مصر تعاملهم بالرفق الى ان قام الامبراطور جوستينيان (سنة ٥٢٧ : ٥٦٦ ب . م) فأغلظ معـاملتهم وأمر نرفس قائد حامية فيلي فخرب هيـاكلهم وسجن كهنتهم وارسل تماثيل آلهتهم الى البيزانتيوم (الآستانة) وكان هذا آخر عهد الوثنية في بلاد مصر.

النصرانية في مصر وايثيوبيا : امـا تاريخ دخول النصرانيـة الى مصر فقد كان في عهـد الامبراطور نيرون (سنة ٤٥ : ٦٨ ب . م) وفي المشهور انهـا دخلتها عن يد القديس مرقس فلاقت اضطهادات شديدة من أباطرة الرومان وكان أشدهم اضطهاداً لهـا ديوقليشان (سنة ٢٨٤ : ٣٢٣ ب . م) فانه نكل بالمسيحيين وقتل في يوم ١٣ يونيو سنة ٢٨٤ ب . م ما يعد بالآلاف فصار المسيحيون يؤرخون سنيهم من هذا اليوم وهو تاريخ الاقباط المعروف بتاريخ الشهداء الى هذا العهد . ولكن اضطهاد ديوقليشان لم يضعف النصرانية بل زادها قوة وانتشاراً حتى اعتنقها الامبراطور قسطنطين الكبير (سنة ٣٢٣: ٣٣٧ ب. م) الذي جعل سرير ملكه في القسطنطينية وجعل الديانة المسيحية ديانة مملكته في اوروبا وآسيا ومصر . ومع ذلك لم تبطل الوثنيـة بل بقيت متبعة في وادي النيل وبقي لها أنصار الى ايام الامبراطور ثيودوسيوس الاول (سنة ٣٧٩ : ٣٩٤ ب . م) الذي نهى المصريين عن عبادة الاصنام في اول سنة من حكمه وأمرهم باتباع الديانة المسيحية وانفاذاً لأمره أسرع فهدم الهياكل وأزال الانصاب وأبطل جميع التقاليد التي كان المصريون يعتبرونها من ضروريات التديُّن وساعده على ذلك ثيوفيلس بطريرك الاسكندرية إلا ان الديانة الوثنية لم تنتفِ من جزيرة فيلي حتى أواسط القرن السادس كما مرّ .

ومن هذا العهد (سنة ٥٤٥ م) أخذت النصرانية تمتـد جنوباً في وادي النيل حتى عمّت كل بلاد النوبة . وقد تقدم لنا ان الحبشة اعتنقوا النصرانية في القرن الرابـع فأصبحت بلاد ايثيوبيا كلهـا تدين بالنصرانية إلا البجة في الصحراء الشرقية فانهم بقوا على الوثنية .

ثم لم تكد النصرانية تنتشر في بلاد ايثيوبيـا حتى كان الاسلام في جزيرة العرب وافتتح المسلمون مصر سنة ١٨ هـ ٦٤٠ م واحتاطوا ايثيوبيا من الشمال والشرق فكان لهم مع نصارى الحبشة والنوبة ووثني البجة من الشأن مـا سنبيّنه في محله إن شاء الله .

الفصل الرابع

في

آثار ايثيوبيا ولغاتها وديانتها وتمدنها وحكومتها وشرائعها وأخلاق أهلها وعاداتهم

آثار نبتة : واما آثار ايثيوبيا الباقية الى الآن فتدل انها كانت على جانب عظيم من المدنية والعمران . وأشهر هذه الآثار وأقدمها آثار نبتة عند جبل البرقل وهي خرائب هياكل وأهرام . اما الهياكل فمن عهد الملك رعمسيس الكبير المصري ومن بنائه او من بناء طهراق الايثيوبي وخلفائه واما الاهرام فكلها من بناء طهراق وخلفائه . وقد رأيت هذه الاهرام من النيل سنة ١٨٩٦ ولم أوّفق الى زيارتها ولكن الذين زاروها قالوا ان في جبل البرقل ١٣ هرماً وفي بلدة نوري تجاهه ٢٥ هرماً وكلها مبنية بالحجر الرملي على شكل اهرام مصر إلا انها تختلف عن هذه في كونها اصغر وفي واجهة كل هرم منها إيوان كإيوانات الهياكل المصرية . واما مدينة نبتة نفسها فقد تخرّبت تخرُّباً تاماً ولم يبقَ ما يدل عليها سوى أطلال بالية قرب جبل البرقل .

آثار مروى : ويلي آثار نبتة في القدم والأهمية آثار مروى ومعظمها قائم

حيث كانت عاصمتها بقرب جبل أم علي على ٢٦ ميلاً الى الشمال الشرقي من شندي وبضعة أميال من النيل وهي خرائب هياكل (بينها هيكل امون) وأهرام تبلغ الثمانين هرماً في ثلاثة مجاميع . وقد رأيت هذه الاهرام سنة ١٨٩٨ فاذا هي قائمة في مرتفعات على مسافة ساعة او اكثر من النيل وقد وصفها الذين زاروها فقالوا ان اضلاع قاعدتها تختلف من ١٢ : ٦٠ قدماً وارتفاع أعلاها ١٦٠ قدماً وهي على شبه اهرام مصر إلا ان نسبة قاعدة الهرم الى علوه فيها أعظم منها في اهرام مصر . هذا وفي جزيرة مروى على نحو ٣٢ ميلاً الى الجنوب الشرقي من شندي بركة تجتمع اليها مياه الامطار تعرف بالنقع حولها آثار هياكل فخيمة . وبين النقع وشندي جدران وأعمدة هيكل يبلغ محيطه الف يرد. وقد ذكر الباحثون ان في نبتة نفسها آثار لملوك مروى وان الهيكل القائم الآن في بلدة عمارة على ١٠٠ ميل من الشلال الثاني هو من بناء ملوك مروى . وقال بعض المؤرخين ان مروى كانت تجهز للحرب جيشاً مؤلفاً من ٢٥٠ الف مقاتل وكان فيها ٤٠٠ الف من أرباب الصنائع وان قد حكمها ٤٥ ملكاً وملكة اكثرهم من الملكات وترى على الآثار رسوم بعض هذه الملكات يقدّمنَ القرابين للآلهة او يمثلنَ أبطالاً منتصرين وقد لُقّب الملكات بكنداكة كما لُقب ملوك مصر بالفراعنة والفرس بالقياصرة .

ومما هو جدير بالذكر ان اسم مروى غير معروف في الجزيرة الآن بل البلدة المعروفة بهذا الاسم واقعة قرب البرقل عند موقع مدينة نبتة وبين مروى هذه ومروى القديمة قرب شندي طريق في الصحراء تمر بآبار الجكدول طولها نحو ١٨٠ ميلاً .

وقد اختلف العلماء في مؤسسي مروى والذي عليه البعض انهم الكهنة الذين طُردوا من ثيبة سنة ٩٠٠ ق . م .

آثار اكسوم : ثم يلي آثار مروى في الشهرة والقدم آثار اكسوم وسيأتي ذكرها .

آثار سوبه : اما سوبه فلم يبقَ من آثارهـا الى الآن إلا خرائب قديمة . وكان قد بقي فيها الى زمن الفتوح المصري بعض التماثيل والأنصبة فنُقلت منها

آثار ايثيوبيا السفلى : هذا في آثار ايثيوبيا العليا وهي مصرية ايثيوبية اي انها من بناء المصريين . اما آثار ايثيوبيا السفلى المتقـدم ذكرها في فيلي ودبود ودندور وكلابشة ودكا والمحرّقة وكوبان والسبوع وعمدة والدرّ وابريم وابو سمبل وحلفا وسمنه وطنبس وارقو فكلها او اكثرها مصرية اي من بناء الملوك المصريين .

لغات ايثيوبيا : اما لغة الآثار في ايثيوبيا فهي اللغة الهيروغليفية المصرية بعينها لكن الهيروغليف الذي على آثار ايثيوبيا غير متقن الصنع كالهيروغليف الذي على آثار مصر. هذا ونرى على الآثار ايضاً بعض كتابات باللغة اليونانية من زمن البطالسة وباللغة اللاتينية من زمن الرومان وباللغة القبطية من عهـد النصرانية . وعلى بعض الهياكل كتابة أحرفها قبطية ولكن رموزها لم تُحلّ بعد وقد سميت باللغة الايثيوبية المسيحية .

واما لغات الايثيوبيين انفسهم فمعلوم انها كانت تختلف عن لغـة المصريين والباقي منها الى الآن : لغة النوبة وهي لغة سكان النوبة السفلى وقد قال فيها بعض علماء اللغات انها من أصل افريقي لأنها لا توافق اللغـات السامية وقد تقدم الكلام عليها . ولغة البجة وهي من اللغات الحامية ويظن لبسيوس انها لغة مروى القديمة واما الدكتور هيس الالماني المقيم في مصر لدرس لغة النوبة فيقول ان هذه اللغة هي لغة مروى القديمة بدليل ان بعض كلمـاتها الاساسية كالماء والنور والارض تشابه ما ورد من الأسماء في تاريخ مروى . ولغة الجيز وهي لغة اكسوم القديمة وما زالت لغة بلاد التيغري الى هـذا اليوم وسيأتي ذكرها في تاريخ الحبشة .

ديانة الايثيوبيين : اما ديانة الايثيوبيين فعلى مثال ديانة المصريين القدماء وكان أعظم معبود لهم جوبيـتر آمون . ومن معبوداتهم الرئيسية ايسس

والصقر (Hauk) والتمساح الذي كانوا يعبدونه باسم سبق (Sebek) .

تمدّن ايثيوبيا : هذا وقد اختلف علمـــاء الآثار أيّ تمدن أقدم تمدن ايثيوبيا أم تمدن مصر وأيُّ البلادين أخذت تمدنها عن الاخرى والرأي الأظهر أن تمدن مصر هو الأقدم وان ايثيوبيـا أخذت الصنايع والفنون بل الديانة وشرائعها عن مصر بدليل ان النصب والهياكل بما عليها من الرسوم والهيروغليف تراها كأنهـا نسخ عاطلة عن الأصل القديم المصري . وقد كان بين مصر وايثيوبيا اتصال دايم وطرق الاتصال عدا النيل: طريق المرات بين كورسكو وأبي حمـد ، وطريق قفط الى القصير ثم في البحر الاحمر الى بلاد البوانيت ، وطريق قفط الى بيرينيس (راس بناس) مسيرة ١٢ يوماً . وأول من فتح بيرينيس بطليموس فيلادلفوس وسماها باسم اخته وفي آخر طريقهـــا جبل الزمرّد المعروف الآن باسم جبل زبارة. قبل وجنوب هذا الميناء قرب سواكن معادن ذهب . هـذا وفي الطرق الداخلية التي بين شندي وكلّ من سواكن ومروى وسوبه والتي بين الدبة وام درمان آبار قديمة العهـد تدل صريحاً على انها كانت مطروقة منذ عهد بعيد .

حكومتها وشرائعها : اما حكومة ايثيوبيا فكانت من النوع الملكي المطلق وكانت البلاد على ما رواه بلينى مقسومة الى ٤٥ مملكة أقواها وأزهاها مملكة مروى إلا ان بلينى لم يذكر أمستقلة كانت هـذه الممالك بعضها عن بعض أم تحت سلطان واحد ولا يبعد انها كانت في ذلك العصر على نحو ما كانت عليه مملكة سنار قبيل الفتح المصري . ويفهم مما كتبه وديودورس الصقلي ان بعض ممالك ايثيوبيا كانت انتخابية وملوكها ينتخبون من الكهنة ويؤلّهون بعـد تمليكهم لذلك كان حكمهم من النوع المطلق ولكن كان لا بدّ لهم من مراعاة شرائع البلاد وعرفها وعاداتها في اكثر أحكامهم . وقد كان من قوانين الخلافة عند بعض القبائل انه بعد موت ملكهم يخلفه ابن اخته فاذا لم يكن لأخواته ذرية ملكوا عليهم رجلاً من أجمل رجال العائلة المالكة وأقواهم. واذا أصيب الملك بجرح او تعطلت وظيفة عضو من أعضاء جسده اضطر رجـال حاشيته

ان يجرحوا انفسهم مثل جرحه او يعطلوا في جسمهم نظير العضو المعطّل في جسمه . واذا مات الملك اضطر جميع خدمه اتباعاً لقانون او عادة مستحكمة فيهم ان يقتلوا انفسهم وكانوا يعدّون ذلك أقوى شاهد على تمام اخلاصهم له.

وكانت هذه الشرائع مرعية في جزيرة مروى والبلاد التي الى شماليها وأما البلاد التي الى جنوبيها على شاطئي النيل فقد كان بعضهم يملكون عليهم راعياً من أشد الرعاة إقداماً واجتهاداً وبعضهم يملكون أغنى رجل فيهم لاعتقادهم ان الأغنياء هم أقدر الناس على إدارة البلاد وسدّ حاجات العباد .

أخلاق الايثيوبيين وعاداتهم : امـا سكان ايثيوبيا فظاهر من رسومهم التي على الآثار انهم من أصلين كبيرين وهمـــا السود وبنو كوش ثم نشأ عن اختلاط بعضهما ببعض جنس ثالث سميناه شبه السود كما مرّ وقد رأيت انـه هاجر الى ايثيوبيا الكثير من المصريين في مدّات مختلفة فسكنوا مع الايثيوبيين وتجنسوا بهم فنتج من هذا الاختلاط قبائل شتى تختلف في الهيئات والعادات كما تختلف في اللغات والاحكام .

وذكر المؤرخون القدماء نتفـاً من عادات الايثيوبيين وأخلاقهم فاذا هي متأصلة في عادات اهل السودان وأخلاقهم اليوم على بُعد العهد وتغيُّر الاحوال. فقـــد وُصف الايثيوبيون بحب الحرب والشجاعة الوحشية واشتهر بعضهم بالكرم والوداعة وحب العدل والصفح عن الزلات . وكان اكبر العيوب على من ارتكب ذنباً يستحق القتل ان يفرّ من وجه القصاص الى بلاد أجنبية . قال ديودورس : وكان اذا صدر أمر الملك بقتـل رجل فخيّل له الفرار من ايثيوبيا قيّدته أمه نفسها بوثاق متين ومنعته من الفرار ولم يبدِ أقل مقاومة لها وإلا جلب على نفسه وعلى أهله وذريته من بعده عاراً لا يُمحى . وكان التروقلوديته يحترمون المسنّـات من النساء كل الاحترام حتى انهم اذا كانوا في أشدّ قتالهم ودخلت بينهم امرأة مسنة تركوا سلاحهم وكفّوا عن القتـــال وكان من عادتهم ان يدفنوا موتاهم على رؤوس التلال ويغطوا قبورهم بالحجارة ويجعلوا فوق كل قبر قرن ماعز علامة عليه . وكان بعض قبـــائل ايثيوبيا

يدفنون موتاهم قرب هياكلهم في توابيت من خزف وبعضهم يرمونهم في النيل ويحسبون ذلك أفضل أنواع الدفن .

وقد وصف هيرودوتس الرجال الايثيوبيين بأنهم كبـــار الأبدان حسان الصوَر ويعمرون طويلاً وأما نساء الايثيوبيين فيظهر من تمثـال الملكة آمن ريتس السالف ذكرها ان المخدرات منهنّ كنّ صفر الألوان كمخدرات العرب في هذه الايام .

وكان الايثيوبيون يلبسون ثيـاباً من جلد النمر والاسد . ومن أسلحتهم القوس والنشاب والحراب والنبابيت والدرق. قال هيرودتس ولهم قسيٌّ طويلة من جريد النخل طول الواحدة أربع أذرع على الأقل وسهامهم قصيرة وهي من القنـا وفي رؤوسها حجارة محـددة يجعلون فيها السمّ ويستخدمونها لحفر أختـامهم وكان لهم حراب برؤوس من قرون الغزلان ودبابيس كثيرة العجر ومتى ساروا الى الحرب فركوا نصف أبدانهم بالجصّ والنصف الآخر بالزنجفر.

وكان العساكر يعقدون نبالهم حول رؤوسهم فيشكون أطرافها في الشعر حتى تبرز رؤوسها فوق جباههم كالأشعة ويكون منها اكليل. وكان للايثيوبيين ولا سيما سكان الصحراء الشرقية مهارة في رمي النبال فقلما كانوا يخطأون الغرض وكانوا يمرنون اولادهم منذ الصغر على ذلـك حتى كانوا لا يسمحون لهم بتناول الطعام إلا اذا أصابوا الغرض . وكانوا اذا اصطفوا للقتال أظلم الجو من كثرة السهام . وذكر استرابو ان نساء الايثيوبيين كن يحملن السلاح . وكانوا يكرهون الفيران كرهاً شديداً ويربون الكلاب للصيد ويصطادون الأفيـــال والنعـام بطرق مختلفـة ويأكلون لحومها . وكان غالب طعامهم اللحم المقدّد وشرابهم اللبن والذين سكنوا سواحل البحر الاحمر كان أكثر قوتهم السمك . ومنهم قبيلة تعرف باسم انتريبوفاجي تأكل لحوم البشر كالنيام نيام في هـذه الأيام. وكان للاكريدوفاجي وادٍ عميق طوله عدة غلوات فكانوا يملئونه حطباً وينتظرون الريح الجنوبية حتى تقذف رجل الجراد الى ذلك الوادي فيشعلون النار بالحطب فيختنق الجراد ويقع الى الارض فيغطيها على بعد غلوات فيجمعونه

ويقدّدونه ويخزنونه للتقوت به . وكان هؤلاء القوم في أسوأ حال من العيش ولذلك لم يكن فيهم من يزيد عمره على الاربعين سنة . وكان أثمن المعادن عند الايثيوبيين النحاس فكانوا يفضلونه على الذهب الذي كان عندهم بمقام الحديد عندنا حتى كانوا يجعلون منه سلاسل للمجرمين. وكانوا يمارسون الختان كالمصريين إلا ان هيرودتس لم يستطع الحكم في أي الفريقين اخذه عن الآخر .

هذا ما كان من اخبار ايثيوبيا او السودان في الجاهلية فلنتقدم الآن الى ما صارت اليه في النصرانية ثم في الاسلام .

الباب الثاني

في

تاريخ النوبة في عهد النصرانية

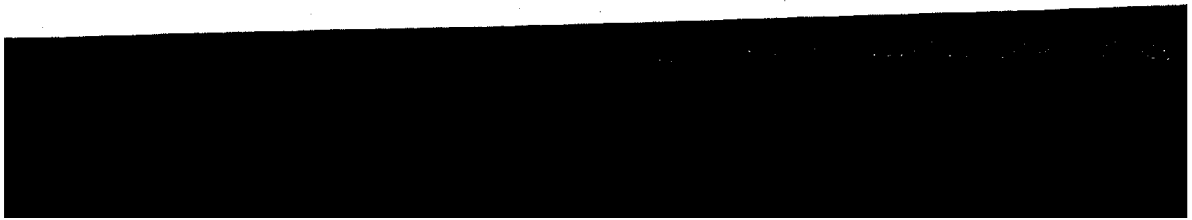

١ - تمهيد جغرافي

تقدم انه بعد ان دالت دولة مروى لم يشتهر في ايثيوبيا إلا أمتان: النوبة على النيل والبجة في الصحراء الشرقية وان النوبة اعتنقوا النصرانية في القرن السادس للمسيح وبقي البجة على الوثنية . ثم كان الاسلام ففتحوا مصر وكان لهم مع النوبة والبجة ما نبينه هنا نقلاً عن مؤرخي الاسلام الذين كتبوا عن هذا العهد دون غيرهم من المؤرخين . ويؤخذ مما كتبوه انه كان للنوبة في عهد النصرانية مملكتان قويتان : مملكة النوبة السفلى امتدت من الشلال الاول الى الشلال الرابع وكانت عاصمتها دنقلة العجوز . ومملكة النوبة العليا وعرفت ايضاً بمملكة علوة امتدت من الشلال الرابع الى أعالي جزيرة سنار وكانت عاصمتها سوبه عن يمين النيل الازرق على ١٥ ميلاً من الخرطوم .

قال المسعودي:« وأما النوبة فافترقت فرقتين فرقة في شرق النيل وغربه وأناخت على شاطئه فاتصلت ديارها بديار القبط من ارض مصر والصعيد من بلاد اسوان وغيرها. واتسعت مساكن النوبة على شاطىء النيل مصعدة ولحقوا بقريب من أعاليه وبنوا دار مملكة عظيمة تدعى دنقلة والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة وبنوا مدينة عظيمة وسموها سوبه » . وقال عن ابن دأب : « ثم سألني الهادي (الذي عاش في أواسط القرن الثاني للهجرة) عن مدينة دنقلة وهي دار مملكة النوبة كم المسافة بينها وبين اسوان قلت قد قيل اربعون يوماً على شاطىء النيل عمائر متصلة » . وقال ابو الفدا عن ابن سعيد: « ومن أمم السودان النوبة وهم يجاورون الحبشة من جهة الشمال والغرب . والنوبة في جنوب حدود مصر وكثيراً ما يغزوهم عسكر مصر . ويقال ان

لقمان الحكيم الذي كان مع داود النبي عليه السلام من النوبة وانه ولد بإيله . ومنهم ذو النون المصري وبلال بن حمامة . وهم نصارى . وقال المقريزي نقلاً عن كتاب « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » لعبد الله بن احمد بن سليم الاسواني : كان يسكن في بلاد النوبة (السفلى) قوم يقـــال لهم المقرة وأول ارض المقرة قرية تعرف بنافة على مرحلة من اسوان ومدينة ملكهم يقال لها نجراش على أقل من عشر مراحل من اسوان ويقـال ان موسى صلوات الله عليه غزاهم قبل مبعثه في ايام فرعون فأخرب نافة . فالنوبة والمقرة جنسان بلسانين كلاهما على النيل فالنوبة هم المجـاورون لأرض الاسلام وبين اول بلدهم وبين اسوان خمسة أميال ويقال ان سلها جدّ النوبة ومقرى جد المقرة من اليمن وقيل النوبة والمقرة من حمير واكثر اهل الانساب على انهم جميعاً من ولد حام ابن نوح . وكان بين النوبة والمقرة حروب قبل النصرانية وكانوا صابئة يعبدون الكواكب وينصبون التماثيل لهـــا ثم تنصروا جميعاً النوبة والمقرة .. ومدينة دنقلة هي دار مملكتهم .

وقال المقريزي في علوة نقلاً عن كتاب عبد الله الاسواني السالف الذكر « قال بلغني ان بعض متملكي بلد علوة سار فيها يريد أقصاها فلم يأتِ عليـه بعد سنين وان في طرفها القبلي جنساً يسكنون ودوابهم في بيوت تحت الارض مثل السراديب بالنهـار من شدة حر الشمس ويسرحون في الليل وفيهم قوم عراة . قال وسوبه مدينة العـــلوي شرقي الجزيرة الكبرى التي بين البحرين الابيض والاخضر المعروف الآن بالازرق الطرف الشمالي منها عنـد مجتمعها وشرقيها النهر الذي يجف ويسكن بطنه (ويشير الى نهر أتبرة) وفيها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيه جمـــاعة من المسلمين ومتملك علوة اكثر مالاً من متملك المقرة وأعظم جيشاً وعنـده من الخيل ما ليس عند المقري وبلده أخصب وأوسع والنخل والكرم عندهم يسير واكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الارز منها خبزهم ومزرهم. واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي والمروج الواسعة حتى انه لا يوصل الى الجبل إلا في

أيام . وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب . ودينهم النصرانية يعاقبة . وأساقفتهم من قبل صاحب الاسكندرية كالنوبة . وكتبهم بالرومية (اليونانية) يفسرونها بلسانهم وهم اقل فهماً من النوبة وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيش فليكن أمره وهو يتتوج بالذهب والذهب كثير في بلده .

« ومما في بلده من العجائب ان في الجزيرة الكبرى التي بين البحرين جنساً يعرف بالكرما او القرّنا لهم ارض واسعة مزروعة من النيل والمطر فاذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر واختط على مقدار ما معه وزرع في اربعة أركان الخطة يسيراً وجعل البذر في وسط الخطة وشيئاً من المزر وانصرف عنه فاذا أصبح وجد ما اختط قد زرع وشرب المزر فاذا كان وقت الحصاد حصد يسيراً منه ووضعه في موضع أراده ومعه مزر وينصرف فيجد الزرع قد حصد بأسره وجرّن . فاذا أراد دراسه وتذريته فعل به كذلك . وربما أراد أحدهم ان ينقي زرعه من الحشيش فيلفظ بقلع شيء من الزرع فيصبح وقد قُلع جميع الزرع . وهذه الناحية التي فيها ما ذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين في شهرين يزرع جميعها في وقت واحد . وميرة بلد علوة ومتملكهم من هذه الناحية فيوجهون المراكب فتوسق وربما وقع بينهم حرب. قال وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه ولا يرتابون به ولولا ان اشتهاره وانتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثله لما ذكرت شيئاً من شناعته فأما اهل الناحية فيزعمون ان الجن تفعل ذلك وانها تظهر لبعضهم وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها وتعمل لهم عجائب وان السحاب يطيعهم قال ومن عجائب ما حدثني به متملك المقرة للنوبة انهم يطرون في الجبال ويلتقطون منه للوقت سمكاً على وجه الارض وسألتهم عن جنسه فذكروا انه صغير القدر بأذناب حمر .

« قال وقد رأيت جماعة وأجناساً ممن تقدم ذكر أكثرهم يعترفون بالباري سبحانه وتعالى ويتقربون اليه بالشمس والقمر والكواكب ومنهم من لا يعرف الباري ويعبد الشمس والنار ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة او بهيمة وذكر انه رأى رجلاً في مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده فقال مسافته الى النيل ثلاثة أهلة وسأله عن دينه فقال ربي وربك الله ورب الملك ورب الناس كلهم واحد وانه قال له فأين يكون قال في السماء وحده . وقال انه اذا أبطأ عنهم المطر او اصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفةصعدوا الجبل ودعوا الله فيجابون للوقت وتقضى حاجتهم قبل ان ينزلوا . وسأله هل أرسل فيكم رسول قال لا فذكر له بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه وما أبدوا من المعجزات فقال اذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ثم قال قد صدقتهم ان كانوا فعلوا اه » .

الفصل الاول

في

تاريخ النوبة السفلى

منذ دخول النصرانية اليها سنة ٥٤٥ م الى انقراضها منها سنة ١٣١٨ م

ان جلّ ما نعلمه عن دخول النصرانية الى بلاد النوبة ان قد جاءها رسل من الاسكندرية سنة ٥٤٥م فبشروا اهلها بالنصرانية فاعتنقوها وتركوا عبادة الأوثان . ثم لا نعلم شيئاً من اخبارهم حتى كان الاسلام وافتتح المسلمون مصر سنة ١٨ هـ ٦٤٠ م قال ابن الاثير « فغزا المسلمون النوبة فرجعوا بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم فسموهم رماة الحدق » .

وقال المقريزي « وفي سنة ٢١ هـ بعث عمرو بن العاص عبد الله بن سعد ابن أبي سرح في عشرين ألف الى النوبة فمكث بها عبد الله بن سعد زماناً وصالحهم وقرّر عليهم شيئاً معلوماً من المال . ثم ان عمرو بن العاص كتب الى عبد الله بن سعد يأمره بالرجوع اليه فرجع . وسنة ٢٣ هـ ٦٤٤ م قُتل الامام عمر بن الخطاب وتولى بعده عثمان وكان عبد الله بن سعد من أقاربه فعزل عمرو ابن العاص عن ولاية مصر وولى عليها عبد الله بن سعد. وفي اول ولايته نقض النوبة الصلح الذي جرى بينهم وبينه وأرسلوا سراياهم الى صعيد مصر فأخربوا

وأفسدوا فغزاهم مرة ثانية عبد الله بن سعد بن ابي السرح المذكور وهو على إمارة مصر في خلافة عثمان (رضه) سنة ٣١ هـ . ٦٥٢ م وحاصرهم بمدينة دنقلة حصاراً شديداً ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرفه وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك وطلب ملكهم قليدورون الصلح وخرج الى عبدالله وأبدى ضعفاً ومسكنة وتواضعاً فتلقاه عبد الله ورفعه وقرّبه ثم قرّر الصلح معه على ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق في كل سنة ووعده عبد الله بجبوب يهديها اليه لما شكا له قلة الطعام ببلده وكتب لهم كتاباً نسخته بعد البسملة :

« عهد من الامير عبد الله بن سعد بن ابي السرح لعظيم النوبة ولجميع اهل مملكته . عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد ارض اسوان الى حد ارض علوة. ان عبدالله بن سعد جعل لهم أماناً وصدقة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاوروهم من اهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين واهل الذمة انكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي ﷺ ان لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على ان تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه. وعليكم حفظ من نزل بلدكم او بطرفه من مسلم او معاهد حتى يخرج عنكم وان عليكم ردّ كل آبق خرج اليكم من عبيد المسلمين حتى تردّوه الى ارض الاسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره الى ان ينصرف عنه . وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصلياً . وعليكم كنسه وإسراجه وتكريمه . وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها الى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب يكون فيها ذكران وأناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك الى والي اسوان . وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد ارض علوة الى ارض اسوان . فإن انتم أويتم عبد المسلم او قتلتم مسلماً او معاهداً او تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم او منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين رأساً فقد برئت منكم

هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وانتم على سواء حتى يحكم الله بيننـا وهو خير الحاكمين . بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ ولنـا عليكم بذلك اعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من اهل دينكم وملتكم الله الشاهد بيننـا وبينكم على ذلك . كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة ٣١ هـ اه » . وهذه الجزية التي تدفعها النوبة تسمى بقطاً .

« وكانت النوبة رفعت الى عمرو بن العاص ما صولحوا عليه من البقط قبل نكث عهدهم وأهدوا الى عمرو اربعين رأساً من الرقيق فلم يقبلها وردّ الهدية الى كبير البقط ويقال له سمقوس فاشترى له بذلك جهازاً وخمراً ووجّه اليه وبعث اليهم عبد الله بن سعد مـا وعدهم به من الحبوب قمحاً وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلاً ثم تطاول الرسم على ذلك فصار رسماً يأخذونه عند دفع البقط في كل سنة وصارت الاربعون رأساً التي أُهديت الى عمرو يأخذها والي مصر. وعن ابي خليفة حميـد بن هشام البحتري ان الذي صولح عليه النوبة ثلاثمائة وستون رأساً لفيء المسلمين ولصاحب مصر اربعون رأساً ويدفـع اليهم الف اردب قمحاً ولرسله ثلاثمائة اردب ومن الشعير كذلك ومن الخمر الف اقتيز للمتملك ورسله ثلاثمائة اقتيز وفرسين من نتـاج خيل الامارة ومن أصناف الثياب مائة ثوب ومن القباطي اربعة أثواب للمتملك ولرسله ثلاثة ومن البقطرية ثمانية أثواب ومن المعلمة خمسة أثواب وجبـة مجملة للملك ومن قمص ابي بقطر عشرة اثواب ومن احاص عشرة اثواب وهذه ثياب غلاظ » ...

قال ابن وصيف شاه : لمـا انتقلت الخلافة الى بني العباس وولي عبد الله السفاح سنة ١٣٢ هـ . ٧٥٠ م توجه عبدالله بن علي العباسي الى الشام في طلب من بقي من بني أمية ثم ارسل بالقبض على الامير عبيد الله بن مروان الحمار امير مصر فلما ان بلغ الامير عبيدالله ذلك دخل الى خزائن أمواله وأخذ منها عشرة آلاف دينار ذهباً ثم احضر اثني عشر بغلاً وحملها ذلك المال وشيئاً من القماش والفرش وغير ذلك وأخذ معه جماعة من العبيد والغلمان ثم شدّ على وسطه خريطة

فيها جواهر فاخرة مثمنة وخرج من مصر هارباً فتوجه الى نحو بلاد النوبة. فلما وصل هناك وجد مدائن خراباً وبها قصور محكمة البناء فنزل في بعض تلك القصور وأمر غلمانه بكنسها فكنست وفرش فيها ما كان معه من تلك الفرش الفاخرة ثم قال لبعض غلمانه وكان ممن يثق بعقله أمض الى ملك النوبة وخذ لي منه أماناً على نفسي من القتل فخرج الغلام وتوجه الى ملك النوبة فغاب ساعة ثم عاد ومعه قاصد من عند ملك النوبة فلما دخل عليه قال له ان الملك يقرئك السلام ويقول لك أمحارباً جئت اليه ام مستجيراً فقال له الامير عبيد الله ردّ عليه مني السلام وقل له قد جاء اليك ليستجير بك من عدو يريد قتله فمضى ذلك القاصد بالجواب فغاب ساعة ورجع وقال له ان الملك قادم عليك في هذه الساعة فقال عبيد الله لغلمانه افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة وجعل مرتبة في صدر المكان برسم ملك النوبة وجلس يرتقب مجيئه فبينما هو على ذلك اذ دخل عليه غلامه وقال له ان ملك النوبة قد أقبل فقام الامير عبيد الله وصعد على أعلى القصر ونظر الى ملك النوبة فاذا هو رجل اسود طويل القامة نحيف الجسم وعليه بردان قد ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ومعه عشرة من السودان حوله ومعهم حراب بأسنة تلمع فلما رآه عبيد الله استصغر امره واحتقره فلما قرب من المكان الذي فيه عبيد الله أتاه من عسكره نحو عشرة آلاف رجل من السودان في أيديهم الحراب فلما وصل ملك النوبة على عبيد الله وأحاط ذلك العسكر بالمكان الذي فيه عبيد الله ووقعت عين ملك النوبة على الامير عبيد الله بادر الى يد الامير عبيد الله وقبلها فأشار اليه عبيد الله بأن يجلس على تلك المرتبة التي وضعها اليه فأبى وصار يدفع تلك الفرش الفاخرة برجله فقال عبيد الله للترجمان لِمَ لا يقعد الملك على تلك المرتبة التي وضعناها له فقال له الترجمان في ذلك فقال ملك النوبة قل للامير كل ملك لا يكون متواضعاً لله فهو جبار عنيد متكبر ثم انه جلس بين يدي الامير عبيدالله وجعل ينكت في الارض باصبعه طويلاً ثم انه رفع رأسه الى الامير عبيد الله وقال له كيف سلبتم ملككم وأخذ منكم وأنتم أقرب الناس الى نبيكم فقال له عبيد الله

ان الذي سلبنا ملكنا أقرب الى نبينا منا فقـال له ملك النوبة فكيف أنت تلوذون الى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حُرّم عليكم من الخمور وتلبسون الديبـاج وهو محرّم عليكم وتركبون في سروج الذهب والفضة وهي محرّمة عليكم ولم يفعل نبيكم شيئاً من هذا وبلغنـا انك لما وليت على مصر كنت تخرج الى الصعيد وتكلف اهل القرى ما لا يطيقون وتفسد الزرع على الناس وتروم الهدايا والتقـادم من أهل القرى وكل هـذا لأجل كركي تصيده قيمته سبعة انصاف او ثمانية فصار ملك النوبة يعدد على الامير عبيد الله جملة ذنوب والامير عبيد الله ساكت لا يتكلم بحرف واحـد ثم قال له ملك النوبة فلما استحللتم ما حرمه الله عليكم سلبتم ملككم وأُخذ منكم وأوقع الله بكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم وانا أخاف على نفسي ان أنزلتك عندي ان تحل بي تلك النقمة التي أحلت بكم والبلاء عام والرحمـة مخصوصة ثم قال له ارحـل من ارضي بعد ثلاثة أيام وإلا اخذت جميع ما معك وقتلتك شر قتلة فلمـا سمع الامير عبيد الله ذلك خرج من ارض النوبة من يومه ورجع الى مصر فقبض عليه عمال الخليفة المنصور العباسي وبعثوا بـه الى بغداد فسجنه المنصور حتى مات في السجن اه عن ابن أياس .

وذكر القزويني هذه القصة فعزاها الى محمد بن مروان قال « وجرى ذكر ملك النوبة في مجلس المهدي (محمد بن ابي جعفر المنصور العباسي سنة ١٥٨هـ: ١٦٩ هـ أي سنة ٧٧٥ م : ٧٨٥ م) فقـال بعض الحاضرين ان له مع محمد بن مروان قصة عجيبة فأمر المهدي باحضار محمد بن مروان وسأله عما جرى بينه وبين ملك النوبة فقال لما التقينا ابا مسلم بمصر وانهزمنا وتشتت جمعنا وقعت بأرض النوبة فأحببت ان يمكنني ملكهم من المقام عندهم زماناً فجاءني زائراً وهو رجل طويل اسود اللون فخرجت اليه من قبتي وسألته ان يدخلها فأبى ان يجلس إلا خارج القبة على التراب فسألته عن ذلـك فقال ان الله تعالى أعطاني الملك فحقّ علي ان أقابله بالتواضع ثم قال لي ما بالكم تشربون النبيذ وانها محرّمة في ملتكم قلت نحن ما نفعل ذلك وانما يفعله بعض فسّاق

أهل ملتنا فقال كيف لبست الديباج ولبسه حرام في ملتكم قلت ان الملوك الذين كانوا قبلنا وهم الأكاسرة كانوا يلبسون الديباج فتشبهنا بهم لئلا تنقص هيبتنا في عين الرعايا فقال كيف تستحلون اخذ أموال الرعايا من غير استحقاق قلت هـذا شيء لا نفعله ولا نرضى به وانما يفعله بعض عمّالنا السوء فأطرق وجعل يردد مع نفسه « يفعله بعض عمالنا السوء » ثم رفع رأسه وقال ان الله تعالى جعل فيكم نقمة ما بلغت غايتها اخرج من ارضي حتى لا يدركني شؤمك ثم قام ووكل بي حتى ارتحلت من أرضه والله تعالى الموفق اه .

وقال القزويني : « بلاد النوبة ارض واسعة في جنوبي مصر وشرقي النيل وغربيه وأهلها أمة عظيمة نصارى يعاقبة ولهم ملك اسمه كابيل يزعمون انه من نسل ملوك حمير قال ﷺ : خير سبيكم النوبة وقال ايضاً : من لم يكن له أخ فليتخذ أخاً نوبياً . ومن عاداتهم تعظيم الملك الذي اسمه كابيل وهو يوهم انه لا يأكل ويدخل الطعام عليه سراً فإن عرف ذلك احد من الرعية قتلوه لوقته ويشرب شراباً من الذرة مقوى بالعسل ولبسه الثياب الرفيعة من الصوف والخز والديباج وحكمه نافذ في رعيته ويده مطلقة يسترق من شاء ويتصرف في أموالهم وهم يعتقدون انه يُحيي ويُميت ويُصح ويُمرض .

وقال البلاذري في كتاب الفتوحات في كلامه عن البقط : « ان المقرّر على النوبة اربعمائة رأس يأخذون بها طعاماً اي غلة وألزمهم امير المؤمنين المهدي محمد بن ابي جعفر المنصور (العباسي المارّ ذكره) ثلاثمائة وستين رأساً وزرافة اه » .

وقال الليث بن سعد وهو من الثقاة في اخبار النوبة : ولم يزل النوبة يؤدون البقط في كل سنة ويدفع اليهم ما تقدم ذكره الى ايام امير المؤمنين المعتصم بالله أبي اسحق بن الرشيد العباسي (سنة ٢١٨ هـ: ٢٢٧ هـ — ٨٣٣م: ٨٤٢ م) وكبير النوبة يومئذ زكرياء بن بحنس وكانت النوبة ربما عجزت عن دفع البقط فشنّ الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم ومنعوا اخراج الجهاز اليهم فأنكر فيرقي ولد كبيرهم زكريا على أبيه ذلّ الطاعة لغيره

واستعجزه فيما يدفع فقال له ابوه : فما تشاء ؟ قال : عصيانهم ومحاربتهم قال ابوه : هذا شيء رآه السلف من آبائنا صواباً وأخشى ان يفضي هـــذا الامر اليك فتقدم على محاربة المسلمين غير اني أوجّهك الى ملكهم رسولاً فأنت ترى حالنا وحالهم فإن رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة وإلا سألته الاحسان الينا فشخص فيرقى الى بغداد وكانت البلدان تزين له وهو يسير على المدن والمحدر بانحداره رئيس البجة ولقيـــا المعتصم فنظرا الى ما بهرهما من حال العراق في كثرة الجيوش وعظم العمارة مع ما شاهداه في طريقهما فقرّب المعتصم فيرقى وأدناه وأحسن اليه إحساناً تاماً وقبل هديته وكافأه بأضعافها وقال له تمنّ ما شئت فسأله في اطلاق المحبوسين فأجابه الى ذلك وكبر في عين المعتصم ووهب له الدار التي نزلها بالعراق وأمر ان يشترى له في كل منزل من طريقه دار تكون لرسلهم فانه امتنع من دخول دار لأحد في طريقـــه فأخذ له بمصر دار بالجيزة واخرى ببني وائل وأجرى لهم في ديوان مصر سبعمائة دينـــار وفرساً وسرجاً ولجاماً وسيفاً محلى وثوباً مثقلاً وعمامة من الخز وقميص شرب ورداء شرب وثياباً لرسله غير محدودة عند وصول البقط الى مصر ولهم حملان. وخلع على المتولي قبض البقط وعليهم رسوم معلومة لقابض البقط والمتصرفين معه وما يهدى اليهم بعد ذلك فغير محدود وهو عنـــدهم هدية يجازون عليها . ونظر المعتصم الى ما كان يدفعه المسلمون فوجده اكثر من البقط وأنكر عطية الخمر وأجرى الحبوب والثياب التي تقدم ذكرها وقرّر دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين وكتب لهم كتاباً بذلك بقي بيد النوبة . وطلب ملك النوبة من المعتصم إزالة المسلحة المعروفـة بالقصر عن موضعها الى الحد الذي بينهم وبين المسلمين لأن المسلحة على أرضهم فلم يجبه الى ذلك . ولم يزل الرسم جارياً بدفع البقط على هـــذا التقرير ويدفع اليهم ما أجراه المعتصم الى ان قدمت الدولة الفاطمية الى مصر اه. عن المقريزي .

وقال المسعودي في كلامه عن البقط : « وعدد ذلك ثلاثمائة رأس وخمسة وستون رأساً وأراه رسم على عدد ايام السنة هـــذا لبيت مال المسلمين بشرط

الهدنة بينهم وبين النوبة وللامير في مصر غير ما ذكرنا من عدد السبي اربعون رأساً ولخليفته المقيم في بلاد اسوان المجاورة لأرض النوبة وهو المتولي لقبض هذا البقط وهو السبي عشرون رأساً غير الاربعين وللحاكم المقيم في اسوان الذي يحضر مع امير اسوان لقبض البقط خمسة رؤوس غير العشرين التي يقبضها الامير وللاثني عشر شاهداً عدولاً مع اهل اسوان يحضرون مع الحاكم حين قبض البقط اثنا عشر رأساً من السبي على حسب ما جرى به الرسم في صدر الاسلام في بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة . والموضع الذي يتسلم فيه هذا البقط ويحضره من سميناه وغيرهم من النوبة من ثقاة الملك يعرف بالقصر وهو على ستة اميال من مدينة اسوان بالقرب من جزيرة بلاق اه » .

وقال (المسعودي) عند كلامه عن اسوان : « ومدينة اسوان يسكنها خلق كثير من العرب من قحطان ونزار بن معدّ من ربيعة ومضر وخلق من قريش واكثرهم نازلة من الحجاز وغيره . والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير . تودع النواة الارض فتنبت نخلة ويؤكل من ثمرها بعد سنتين . ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها الى ملك النوبة وابتيعت هذه الضياع من النوبة في صدر الزمان في دولة بني أمية وبني العباس . وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد أوفدهم الى الفسطاط ذكروا عنه ان ناساً من اهل مملكته وعبيده باعوا ضياعاً من ضياعهم ممن جاورهم من اهل اسوان وانها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم وانما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها فردّ المأمون امرهم الى الحاكم بمدينة اسوان ومن بها من اهل العلم والشيوخ وعلم من ابتاع هذه الضياع من اهل اسوان انها ستنزع من أيديهم فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا الى من ابتيع منهم من اهل النوبة انهم اذا حضروا حضرة الحاكم ان لا يقرُّوا لملوكهم بالعبودية وان يقولوا سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم تجب علينا طاعته وترك مخالفته فإن كنتم انتم عبيداً لملككم وأموالكم له فنحن كذلك ولما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام

للحاكم ونحوه مما أوقفوا عليه من هـذا المعنى فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكهم الى هذا الوقت وتوارث النـــاس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس المجاورة لأسوان . وصار النوبة اهل مملكة هذا الملك نوعين : نوعاً من وصفنا احراراً غير عبيد والنوع الآخر من اهل مملكته عبيد وهم من سكن من النوبة في غير بلاد مريس اه » كلام المسعودي ملخصاً .

وفي سنة ٢٥٥ هـ . ٨٧٠ م ذهب ابو عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحميد العمري الى محاربه النوبة (ورجع غانماً) اه عن المقريزي .

وقال المسعودي : « وانتهيت في تصنيفي الى هذا الموضع من كتابنا هذا في شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٢ هـ . ٩٤٤ م فأخبرت ان الملك في مدينة دنقلة الى النوبة ليرني بن سدر وهو ملك ابن ملك ابن ملك فصاعداً وملكه يحتوي على ام قرية وعلوة » .

وفي ذي الحجة سنة ٣٤٤ هـ . ٩٥٦ م أغار ملك النوبة على اسوان وقتل جمعاً من المسلمين فخرج اليه محمد بن عبد الله الخازن على عسكر مصر من قبل انوجور بن الاخشيد في محرم سنـة ٣٤٥ هـ . ٩٥٧ م فساروا في البر والبحر وبعثوا بعدة من النوبة أسروهم فضربت أعناقهم بعـد ما أوقع بملك النوبة . وسار الخازن حتى فتح مدينة ابريم وسبى اهلهـــا وقدم الى مصر في نصف جمادى الاولى سنة ٣٤٥ هـ بمائة وخمسين أسيراً وعدة رؤوس اه عن المقريزي. وقال المتنبي من قصيدة مشهورة يمدح بهـا كافور الاخشيدي الذي تولى مصر من سنة ٣٥٥ : ٣٥٧ هـ — ٩٦٦ : ٩٦٨ م :

« يصرّفُ الامرَ من مصر الى عدنٍ الى الحجـاز فأرضِ الزنج فالنوبِ »

وهو يدل على اتساع ملك مصر في ذلك الزمان وخضوع النوبة لها .

وقـال ابن الاثير : « وفي سنة ٣٩٧ هـ . ١٠٠٧ م سار ابو ركوة الى بلد النوبة فلمـــا بلغ الى حصن يعرف بحصن الجبل للنوبة أظهر انه رسول من « الحاكم » الى ملكهم فقال له صاحب الحصن الملك عليل ولا بد من استخراج

امره في مسيرك اليه وبلغ الفضل الخبر فأرسل الى صاحب القلعة بالخبر على حقيقته فوكل به من يحفظه وارسل الى الملك بالحال وكان ملك النوبة قد توفي وملك ولده فأمر ان يسلم الى نائب الحاكم فتسلمه رسول الفضل وسار به فلقيه الفضل وأكرمه وأنزله في مضاربه وحمله الى مصر فأشهر بها وطيف به . وكتب ابو ركوة الى «الحاكم» رقعة يقول فيها : يا مولانا ذنوبي عظيمة وأعظم منها عفوك والدماء حرام ما لم يحللها سخطك وقد أحسنتَ وأسأتُ وما ظلمتُ إلا نفسي وسوء عملي أوبقني وأقول :

فررت فلم يغنِ الفرار ومن يكن ... مع الله لم يعجزه في الارض هاربُ
ووالله ما كان الفرار لحاجة ... سوى فزع الموت الذي انا شارب
وقد قادني جرمي اليك برمّتي ... كما خرّ ميتٌ في رحا الموت سارب
وأجمع كل الناس انك قاتلي ... فيا رُبَّ ظنٍّ ربه فيك كاذب
وما هو إلا الانتقام وينتهي ... وأخذك منه واجباً لك واجب

ولما طيف به أُلبس طرطوراً وجُعل خلفه قرد يصفعه كان معلماً بذلك ثم حُمل الى ظاهر القاهرة ليُقتل ويُصلب فتوفي قبل وصوله فقُطع رأسه وصُلب . وبالغ الحاكم في إكرام الفضل الى حد انه عاده في مرضةٍ مرضها دفعتين فاستعظم الناس ذلك ثم انه عمل في قتل الفضل لما عوفي فقتله .

« وفي جمادى الاولى سنة ٥٦٨ هـ . ١١٧٣ م سار شمس الدولة توران شاه ابن ايوب اخو صلاح الدين الاكبر من مصر الى بلد النوبة فوصل الى اول بلادهم ليتغلب عليه ويملكه وكان سبب ذلك ان صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون ان نورالدين كان على عزم الدخول الى مصر فاستقرّ الرأي بينهم انهم يتملكون إما بلاد النوبة او بلاد اليمن حتى اذا وصل اليهم نور الدين لقوه وصدّوه عن البلاد فإن قووا على منعه أقاموا بمصر وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها فجهّز شمس الدولة وسار الى اسوان ومنها الى بلد النوبة فنازل قلعة اسمها ابريم فحصرها وقاتله اهلها فلم يكن لهم طاقة بقتال العسكر الاسلامي لأنهم ليس لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة

الحرب فسلموها فملكها وأقام بها ولم يرَ للبلاد دخلاً يُرغب فيه وتحتمل المشقة لأجله وقوتهم الذرة فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد الى مصر بما غنم وكان عامة غنيمتهم العبيد والجواري » .

وقال المقريزي في كلامه عن ثوران شاه هـــذا : « وأعطاه صلاح الدين قوص واسوان وعيذاب وجعلها له اقطاعاً فكانت عبرتها في تلك السنة مائتي الف وستة وستين الف دينار . ثم خرج الى غزو بلاد النوبة في سنة ٥٦٩ هـ . ١١٧٤ م وفتح قلعـة ابريم وسبى وغنم ثم عاد بعـــد ما اقطع ابريم بعض اصحابه » .

« وقد غلب اولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها من سنة . . . . . وبنى بدنقلة جامعاً يأوي اليه الغرباء » .

« وفي سنة ٦٧٤ هـ . ١٢٧٦ م كثر خبث داود متملك النوبة وأقبل الى ان قرب من مدينة اسوان وحرق عدة سواق بعـد ما افسد بعيذاب فمضى اليه والي قوص فلم يدركه وقبض على صاحب الخيل في عدة من النوبة وحملهم الى السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقاري بقلعة الجبل فوسّطهم (اي قطعهم بالسيف من الوسط) » .

وقدم سكندة ابن اخت متملك النوبة متظلماً من خـــاله داود فجرّد السلطان الملك الظاهر معـه الامير شمس الدين آق سنقر الفارقاني استاذ داره والامير عز الدين أيبك الافرم امير جاندار في جماعة كثيرة من العسكر ومن أجناد الولايات عربان الوجه القبلي والزرّاقين والزماة ورجـــال الحراريق فساروا في اول شعبان سنة ٦٧٤ هـ من القـاهرة حتى وصلوا الى ارض النوبة فخرجوا الى لقائهم على النجب (الابل) بأيديهم الحراب وعليهم دكادك سود فاقتتل الفريقان قتلاً كبيراً انهزم فيه النوبة وأغار الافرم على قلعة الدر وقتل وسبى وأوغل الفارقاني ومعه الافرم في ارض النوبة براً وبحراً يقتـل ويأسر

فحاز من المواشي ما لا يعد ونزل بجزيرة ميكائيل برأس الجنادل ونفر المراكب من الجنادل ففر النوبة الى الجزاير . وكتب الفارقاني لقمر الدولة نائب داود متملك النوبة أماناً فحلف قمر الدولة لسكندة على الطاعة وأحضر رجال المريس ومن فر . وخاض الافرم الى برج في الماء وكان فيه داود وأمرته وحصره حتى أخذه وقتل به مائتين وأسر أخاً لداود فهرب داود والعسكر في أثره مدة ثلاثة أيام وهم يقتلون ويأسرون حتى أذعن القوم وأسرت ام داود وأخته ولم يقدر على داود لأنه تخلص الى النوبة العليا فلقيه هناك ملكها فقاتله وهزمه وأسره وبعث به مقيداً الى السلطان بمصر فاعتقل بالقلعة الى ان مات وتقرّر سكندة عوضه وقرر على نفسه القطيعة في كل سنة ثلاث فيلة وثلاث زرافات وخمس فهود من أناثها وماية نجيب أصهب وأربعماية رأس من البقر المنتجة على ان تكون بلاد النوبة نصفين نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد الجنادل فانها كلها للسلطان لقربها من اسوان وهي نحو الربع من بلاد النوبة وأن يحمل ما بها من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان وان يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية فيدفع كل بالغ منهم في السنة ديناراً عيناً . وكتب نسخة يمين بذلك حلف عليها الملك سكندة ونسخة يمين اخرى حلفت عليها الرعية . وخرّب الاميران كنائس النوبة وأخذا ما فيها وقبضا على نحو عشرين أميراً من أمراء النوبة وأفرجا عمن كان بأيدي النوبة من اهل اسوان وعيذاب من المسلمين في أسرهم وألبسا سكندة تاج الملك وأقعداه على سرير المملكة بعد ما حلف والتزم ان يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب الى السلطان مع البقط القديم وهو أربعماية رأس من الرقيق وزرافة في كل سنة من ذلك ما كان للخليفة ثلثماية وستون رأساً ولنائبه بمصر اربعون رأساً على ان يطلق لهم اذا وصلوا بالبقط تاماً من القمح ألف اردب لمملكتهم وثلثماية أردب لرسله اه عن المقريزي . وقال ابن خلدون :

« ثم مات الظاهر بيبرس وانقرضت دولته ودولة بنيه وانتقل الملك الى

المنصور قلاون فبعث سنة ٦٨٦ هـ ١٢٨٨ م العساكر الى النوبة مع علم الدين سنجر الخياط وعز الدين الكوراني وسار معهم نائب قوص عز الدين ايدمر السيفي بعد ان استنفر العربان اولاد ابي بكر واولاد عمر واولاد شريف واولاد شيبان واولاد كنز الدولة وجماعة من الغرب ... وبني هلال وساروا على العدوة الغربية والشرقية الى دنقلة وملكهم في ذلك الحين بيت مأمون هكذا سماه النووي وأظنه أخا مرتشكين (سكندة) وبرزوا للعساكر فهزمتهم وأتبعتهم خمسة عشر يوماً وراء دنقلة ورُتب ابن اخت بيت مأمون في الملك ورجعت العساكر فرجع بيت مأمون الى دنقلة فاستولى على البلاد ولحق ابن اخته بمصر صريخاً بالسلطان فبعث معه عز الدين ايبك الافرم في العساكر ومعه ثلاثة من الامراء وعز الدين نائب قوص وذلك سنة ٦٨٨ هـ وبعثوا المراكب في البحر بالازودة والسلاح ومات ملك النوبة (ابن اخت بيت مأمون) المستنجد بهم بأسوان ودفن بها وجاء نائبه جريس (أي نائب ابن اخت بيت مأمون) صريخاً الى السلطان فبعث معه داود ابن اخي مرتشكين الذي كان أسيراً بالقلعة وتقدم جريس بين يدي العساكر حتى وصلوا الى دنقلة فهرب بيت مأمون وامتنع بجزيرة وسط النيل على خمسة عشر مرحلة وراء دنقلة ووقفت العساكر على ساحل البحر وتعذر وصول المراكب الى الجزيرة من كثرة الحجر وخرج بيت مأمون منها فلحق بالابواب (أي النوبة العليا) ورجع عن أصحابه (أي اصحاب بيت مأمون) ورجعت العساكر الى دنقلة فملّكوا داود ابن اخي مرتشكين المتقدم الذكر ورجعوا الى مصر سنة ٦٨٩ هـ ١٢٩١ م لتسعة اشهر من مسيرهم بعد ان تركوا اميراً منهم مع الملك داود ورجعوا الى مصر ورجع بيت مأمون الى دنقلة وقتل داود وبعث الامير الذي كان معه الى السلطان وحمله رغبة في الصلح على ان يؤدي الضريبة المعلومة فاسعف لذلك واستقر في ملكه » .

وقال ابن أياس « ثم دخلت سنة ٧٠٤ هـ ١٣٠٥م وفيها حضر الى الابواب الشريفة صاحب دنقلة من اعمال الصعيد وكان صحبته هدايا جميلة من رقيق

وجمال وأبقار حبشية وغير ذلـــك فخلع عليه السلطان خلعة وأنزله بدار الضيافة » .

وقال ابن خلدون في اخبار النوبة واسلامهم : « قد تقدم لنا غزو الترك الى النوبة أيام الظاهر بيبرس والمنصور قلاون لمـا كان عليهم من الجزية التي فرضها عمرو بن العاص عليهم وقررها الملوك بعد ذلك وربما كانوا يماطلون بها او يتمنعون من إدائها فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يستقيموا وكان ملكهم بدنقلة ايام سارت العساكر من عند قلاون اليها سنة ٨٦٠ هـ ١٢٨٢ م واسمه بيت مأمون ثم كان ملكهم لهذا العهد اسمه آبي لا أدري أكان معاقباً لبيت مأمون او توسط بينهما متوسط وتوفي آبي سنة ٧١٦ هـ ١٣١٧ م وملك بعده في دنقلة أخوه كربيس . ثم نزع من بيت ملوكهم رجل الى مصر اسمه نشلي وأسلم فحسن اسلامه وأجرى له السلطان الناصر بن قلاون رزقاً وأقام عنده فلما بلغ كانت سنة ٧١٦ هـ امتنع كربيس من اداء الجزية فجهز السلطان اليه العساكر وبعث معهـا عبد الله نشلي المهاجر الى الاسلام من بيت ملكهم فخام كربيس عن لقائهم وفرّ الى بـلاد الابواب ورجعت العساكر الى مصر واستقر نشلي في ملك النوبـة على حاله من الاسلام وبعث السلطان الى ملك الابواب في كربيس فبعث به وأقام بباب السلطان. ثم ان اهل النوبة اجتمعوا على نشلي وقتلوه بمألأة جماعة من العرب سنة ٧١٩ هـ وبعثوا الى كربيس ببـلد الابواب فألفوه بمصر وبلغ الخبر الى السلطان فبعثه الى النوبة فملكها وكان قد اعتنق الاسلام فأسلمت جميع رعيتـــه وانقطعت الجزية باسلامهم اه كلام ابن خلدون .

وقال لبسيوس : « وفي دنقلة العجوز جامع قائم على خرائب كنيسة كبيرة وفي واجهة الجامع حجر من الرخام مكتوب عليه بالعربية ما معناه : كان افتتاح دنقلة العجوز التي هي كرسي النوبة في ٢٠ ربيع اول سنة ٧١٧ هـ — ٩ يونيو سنة ١٣١٨ م وذلك عن يد سيف الدين عبد الله الناصر اه » . قلت

وقد رأيت من رأى الحجر في الفتح الاول وأخبرني به قبل اطلاعي على رحلة لبسيوس .

وقال ابن خلدون : « ثم انتشر أحيـــاء العرب من جهينة في بلاد النوبة واستوطنوها وملكوها وملأوها عيباً وفساداً وذهب ملوك النوبة الى مدافعتهم (العرب) فعجزوا ثم صاروا الى مصـــانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم (لأن أمهاتهم من بنات ملوك النوبة) على عادة الأعاجم في تمليك الاخت وابن الاخت فتمزّق ملكهم واستولى اعراب جهينة على بلادهم وليس في طريقة استيلائهم شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم الى بعض فصاروا شيعاً لهذا العهـد » اي الى أواخر القرن الثامن للهجرة .

وبقوا كذلك شيعاً على كل شيعة منهم رئيس او ملك الى ان قـام الفونج في سنار سنة ٩١٠ هـ . ١٥٠٥ م فملكوها الى الشلال الثـالث . ثم كان الفتح العثماني لمصر بيد السلطان سليم الفاتح سنة ١٥٢٠ م فأرسل سرية من عساكره الى النوبة السفلى فملكوها من اسوان الى الشلال الثالث وعرفوا بالغزّ وعُرف حكامهم بالكشاف . وهكذا انقسمت بـــلاد النوبة السفلى بين ملوك الفونج والكشاف الى ان كان الفتح المصري للسودان سنة ١٢٣٦هـ . ١٨٢٠م فخضعت لمصر كما سيجيء مفصلاً في تاريخ سنار .

الفصل الثاني

في

تاريخ النوبة العليـــا

منذ دخول النصرانية اليها في القرن السادس للمسيح الى انقراضها منها
وخراب سوبة سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥ م

اما النوبة العليا المعروفة عند مؤرخي الاسلام بمملكة علوة وفي السودان بمملكة العنَج فظاهر ان النصرانية امتدت اليهـــا من النوبة السفلى ولكن لم يحفظ لنـا التاريخ شيئاً من اخبـارها في النصرانية غير مـا تقدم ذكره عن المقريزي عن كتاب ابن سليم الاسواني .

وقد أخذ العرب المسلمون بعد فتح مصر يهاجرون الى السودان من مصر وبلاد العرب إما فراراً من الحكام او طلباً للرزق فلمـا فتحت النوبة السفلى زاد عدد المهاجرين منهم الى بلاد النوبة العليا حتى ملأوها وكان اكثرهم من جهينة وبني العباس وتغلب العنصر العربي على النوبـة ومع ذلك بقوا خاضعين لحكم العنج حتى قام الفونج في جزيرة سنار فاتحدوا مع العرب وهاجموا العنج فقتلوهم شر قتلة وخربوا سوبه خراباً تاماً حتى صاروا يضربون المثل في خرابها فيقولون : « فلان خرب خراب سوبه » . ثم ساروا الى قرّي عنـــد جبل

الرويان شمالي الخرطوم فقتلوا ملكها واستولوا عليها وأسسوا مملكة في سنار أقام فيها الفونج ومشيخة في قرّي أقام فيها كبير العرب على مـــا سيجيء بالتفصيل .

وقد انقرض النوبة من تلك البلاد وانقرضت لغتهم ولم يبقَ منهم إلا نفر قليل في نواحي شندي وجريف ود قمر بقرب سوبه فاعتنقوا الاسلام واتخذوا لغة العرب لغـة لهم ولم يزالوا مميزين عن العرب في الملامح والاخلاق تمييزاً لا يراه إلا الوطني . وهم على اسلامهم محتقرون واسم نوباوي من ألفـــاظ الشتم عنـــدهم والعرب تأنف من مصاهرتهم إلا انهم قد يتزوجون الجميلة من نسائهم ويزوّجون كبارهم غير الجميلة من نساء العرب .

آثار النصرانية في بلاد النوبة : وهكذا انقضت النصرانية من بلاد النوبة العليا كما انقضت من بلاد النوبة السفلى ولم يبقَ هناك ما يدل عليها سوى آثار بعض الأديرة والكنائس . ففي جزيرة فيلي آثار كنيسة جميلة . وفي الدفـّار آثار كنيسة اخرى. وفي بئر الغزالي قرب اهرام نوري وخرائب دير وبجانبه حجارة مدافن عليها كتابات باليونانية والقبطية . وأما كنائس دنقلة العجوز وسوبه فقد خربت خراباً تاماً كما مرّ . وقـد تقدم ان النوبة حوّلوا أكثر الهياكل الوثنيـة الى كنائس فطلوا النقوش الهيروغليفة والصور القديمة بالطين وصوروا على الطلاء صور المسيح وبعض القديسين وقـد رأيت سنة ١٨٨٤ م صور بولس الرسول في هيكل السبوع وصورة المسيح في هيكل فرّيج . وفي هذا الهيكل كتابة ١٤ سطراً من عهد النصرانية مكتوبة بأحرف قبطية ولغة غير مفهومة سميت باللغة الايثيوبية المسيحية . وعلى حجر في التلة القائمة عليها قلعة ابريم كتابة بهذه اللغة ايضاً. وترى على جدران قدس الاقداس في هيكل دندور قرب كلابشة كتابة باللغة القبطية مفادها ان الراهب « ابراهيم » غرس الصليب هناك في عهد الملك اربنومي ملك النوبـة وكان « يوسف » نائباً في تلمس (كلابشة) « وثيودروس » مطراناً في فيـلي (سنة ٥٧٧ م) . وفي سقف عمَدة كتابة باللغة القبطية بشأن حجاج نصارى في اول عهد النصرانية.

وكانت مطارنة النوبة تُرسل اليها من قِبل بطريرك الاقباط الى ان زالت النصرانية منها . وقال المقريزي في كلامه عن اليعاقبة في مصر في خلافة هشام ابن عبد الملك (سنة ١٠٥ : ١٢٥ هـ — ٧٢٤ : ٧٤٣ م) : « وبعث اليهم اهل النوبة في طلب أساقفة فبعثوا اليهم من أساقفة اليعاقبة فصارت النوبة من ذلك العهد يعاقبة » .

ويظهر ان لغة كنائس النوبة كانت القبطية واليونانية كما كانت لغة كنائس الاقباط في مصر . اما لغة النوبة انفسهم فقد انقرضت من بلاد النوبة العليا بانقراض اهلها وحلت العربية محلها ولكنها ثبتت في بلاد النوبة السفلى حتى الآن . والظاهر ان العرب الذين بقوا في النوبة السفلى بعد فتحها كانوا قليلين فاضطروا ان يتعلموا لغة النوبة وكلما هاجر اليهم جماعة من العرب تعلموا لغة النوبة ونسوا لغتهم . وهكذا فعل الاتراك .

الباب الثالث

في

تاريخ البجة في صدر الاسلام

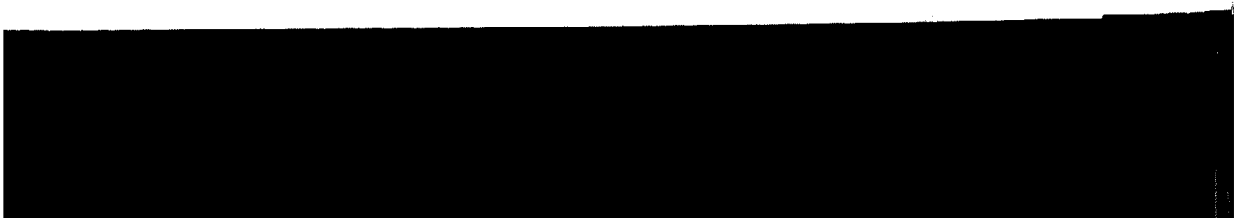

تمهيد جغرافي

تقدم لنـا ان البجة سكان الصحراء الشرقية هم في المشهور بادية بني كوش بن حام وانهم عرفوا عنـد كتاب الرومان باسم البلامس . وقد ظنّ البعض انهم البُقه (BUKA) المدوّنون على الآثار المصرية او البقيته (BUGAITÆ) المدوّنون على آثار اكسوم . وأما البجة (او البجا او البيجة او البجاة) فهو الاسم الذي عُرفوا به عند مؤرخي العرب في صدر الاسلام. ولهؤلاء المؤرخين كلام طويل في شأنهم : قال ابو الفـدا في جغرافيته : « وبلاد البجة بين بحر القلزم وبين بحر النيل وبينهم وبين النوبة جبال منيعة » . وقال في تاريخه عن ابن سعيد : « من أمم السودان البجـة وهم شديدو السواد عراة الأبدان ويعبدون الأوثان وهم اهل أمانة وحسن مرافقـــة للتجار وفي بلادهم الذهب وهم فوق الحبشة الى جهة الجنوب على النيل » . وقال القزويني في كتاب أخبار البلاد : « البجة بلاد متصلة بأعلى عيذاب في غرب منه . اهلهـا صنف من الحبش وبها معدن الزمرد الاخضر السلقي الكثير المائيـة يُسقى المسموم منه يبرأ فاذا نظرت الأفعى اليه سالت حدقتها » . وقال ابن الوردي : « البجة شديدو السواد عراة الابدان يعبدون الاوثان ولهم عدة ممالك وهم اهل أنس وحسن وتلطف مع التجار وفي بلادهم معدن الذهب وليس بأرضهم قرى ولا خصب وانما هي بادية جدبة تصعد التجار منها الى وادي العلاقي وهو وادٍ فيه خلق كثير كالبلد الجامع وفيه آبار عذبة » .

وقال المقريزي : « البجة بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعي بأخبية من جلود وشعر وليس لهم مدن ولا قرى ولا مزارع إلا ما سيأتي ذكره ومعيشتهم مما يُنقل اليهم من أرض الحبشة وأرض مصر والنوبة . وقيل في أصلهم انهم قبيلة من الحبشة إلا انهم أشد سواداً من هؤلاء ويتزيون بزيّ العرب. وهم كالعرب قبائل وأفخاذ لكل فخذ رئيس . وكان لهم قديماً رئيس يرجع جميع رؤسائهم الى حكمه يسكن قرية تعرف بهَجر هي أقصى جزيرة البجة . وفي أوديتهم شجر المقل والاهليلج والاذخر والشيح والسنا والحنظل وشجر البان وغير ذلك . وبأقصى بلدهم النخل وشجر الكرم والرياحين وغير ذلك مما لم يزرعه احد . وبها سائر الوحش من السباع والفيلة والنمور والفهود والقردة وعناق الارض وقط الزباد وذابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لون الذهب قليلة البقاء اذا صيدت . ومن الطيور الببغاء والنقيط والنوبي والقمري او دجاج الحبش وحمام بازين وغير ذلك . وتعظم الحيّات ببلدهم وتكثر أصنافها ورئيت حية في غدير ماء قد أخرجت ذنبها والتفت على امرأة وردت فقتلتها من شدة الضغطة . وبها حية ليس لها رأس وطرفاها سواء منقشة ليست بالكبيرة اذا مشى الانسان على أثرها مات . واذا قتلت وأمسك القاتل ما قتلها به من عود او حربة في يده ولم يلقه من ساعته مات . وقتلت حية منها بخشبة فانشقت الخشبة . واذا تأمل هذه الحية احد وهي ميتة او حية أصابه ضررها ! واول بلد البجة في قرية تعرف بالخربة معدن الزمرُّد في صحراء قوص. وبين هذا الموضع وبين قوص نحو من ثلاث مراحل . والزمرد في هذا الموضع في مغائر بعيدة مظلمة يدخل اليها بالمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال ويحفر عليه بالمعاول فيوجد في وسط الحجارة وحوله غشيم دونه في الصبغ والجوهر . وفيها عدا عن الزمرُّد السالف الذكر الذهب في وادي العلاقي وكلما تصاعدت كان أجود ذهباً وأكثر . وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغنطيس والمرقشيتا والجمست وحجارة شطبا . فاذا بُلت الشطبة منها بزيت واشتعلت وُقدت مثل الفتيلة وغير ذلك

مما شغلهم طلب معادن الذهب عما سواه . والبجة لا تتعرض لعمل شيء من هذه المعادن .

«وكانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم احياناً لحاجتهم الى المعادن وكذلك الروم لما ان ملكوا مصر . ولهم في المعادن آثار مشهورة وكان أصحابهم بها وقد فتحت مصر . ثم لما جاء المسلمون الى مصر سمعوا بخبر هذه المعادن فكثرت سراياهم الى الصحراء وانتفعوا بها انتفاعاً عظيماً على ما سيجيء .

« وأنساب البجة من جهة النساء وهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ويقولون ان ولادة ابن الاخت وابن البنت أصح فانه ان كان من زوجها او من غيره فهو ولدها على كل حال .

« وهم اصحاب ذمة فاذا غدر احدهم رفع المغدور به ثوباً على حربة وقال هذا عرش فلان يعني أبا الغادر فتصير سيئة عليه الى ان يترضاه. وهم يبالغون في الضيافة فاذا طرق احدهم الضيف ذبح له . فاذا تجاوز ثلاثة نفر نحرُ لهم من أقرب الانعام اليه سواء كانت له او لغيره وان لم يكن شيء نحر راحلة الضيف وعوّضه ما هو خير منها . وهم يركبون النجب الصهب وتنتج عندهم. وكذلك الجمال العربية كثيرة عندهم ايضاً . والمواشي من البقر والغنم والضأن غاية في الكثرة عندهم وبقرهم حسان ملمعة بقرون عظام ومنها جمٌ. وكباشهم كذلك منمرة ولها ألبان وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن وأكلهم للجبن قليل وفيهم من يأكله . ويشربون دم الضأن سخناً ويأكلون مخ الجمال نيأ وأبدانهم صحاح وبطونهم خماص وألوانهم مشرقة الصفرة وتقاطيعهم غليظة ووجوههم طويلة عريضة وأنوفهم بارزة قليلاً وشعورهم فلفلية غير متلبدة وذلك دليل اختلاط وسحنتهم غاية الشناعة ولهم سرعة في الجري يباينون بها الناس وكذلك جمالهم شديدة العدو صبورة عليه وعلى العطش يسابقون عليها الخيل ويقاتلون عليها وتدور بهم كما يشتهون ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره ويتطاردون عليها في الحرب فيرمي الواحد منهم الحربة فان وقعت في الرمية طار اليها الجمل فأخذها صاحبها وان وقعت في الارض ضرب الجمل

بحرانـــه الارض فأخذها صاحبها . وسلاحهم الحراب السباعية مقدار طول الحديدة ثلاثة أذرع والعود اربعـة أذرع ومن ذلك اسمها والحديدة في عرض السيف لا يخرجونها من أيديهم إلا في بعض الاوقات لأن في آخر العود شيئاً شبيهاً بالفلكة يمنع خروجها من أيديهم. وصنّاع هذه الحراب نساء في موضع لا يختلط بهنّ رجل إلا المشتري منهنّ فاذا ولدت احداهنّ من الطارقين لهنّ جارية استحيتها وان ولدت غلاماً قتلته ويقلنّ ان الرجـــال بلاء وحرب . ودرقهم مـن جلود البقر مشعرة ودرق مقلوبـة تعرف بالاكسومة من جلود الجواميس . وكذلك الدهلكية من دابة في البحر . وقسيهم عربيـة كبار غلاظ من السدر والشوحط يرمون عليها بنبل مسموم وهـذا السم يعمل من عروق شجر الغلف يطبخ على النار حتى يصير مثل الغراء فاذا أرادوا تجربته شرط احدهم جسده وسيل الدم ثم شممه هذا السم فاذا تراجع الدم علم أنـه جيد ومسح الدم لئلا يرجع الى جسمه فيقتله فاذا أصاب الانسان قتل لوقتـه ولو مثل شرط الجحام وليس له عمـل في غير الجرح والدم وان شرب منه لم يضر . وفي البجة جنس يقطعون ثنـــاياهم ويقولون لا نتشبه بالحمير . وفيهم جنس آخر في آخر بـلاد البجة على نهر اتبرة يقال لهم البازة تسمى نساؤهم باسم واحد وكذلك الرجال فطرقهم في وقت رجل مسلم له جمال فدعا بعضهم بعضاً وقالوا هذا الله قد نزل من السماء فجعلوا ينظرون اليه عن بعد. واشتهر عن البجة ختان النسـاء (ختان فرعون) .

« وكان البجة قبل دخول الاسلام الى أرض مصر صائبة يعبدون الاصنام وكان لكل بطن كاهن يضرب له قبة من أدم معبدهم فيها فاذا رأوا استخباره عما يحتاجون اليه تعرّى ودخل القبة مستدبراً ويخرج اليهم وبه أثر جنون وصرع يقول الشيطان يقرئكم السلام ويقول لكم ارحلوا عن هـــذه الحلة فان الرهط الفلاني يقع بكم وسألتم عن الغزو الى بلد كذا فسيروا فانكم تظفرون وتغنمون كذا وكذا والجمال التي تأخذونها من موضع كذا هي لي والجارية الفلانية التي تجدونها في الخباء الفلاني والغنم التي من صنفها كذا ونحو هـــذا

القول فيزعمون انه يصدقهم في أكثر من ذلك فاذا غنموا أخرجوا من الغنيمة ما ذكر ودفعوه الى الكاهن يتموّله . ويحرمون ألبان نوقها على من لم يقبل فاذا أرادوا الرحيل حمل الكاهن هذه القبة على جمل مفرد فيزعمون ان ذلك الجمل لا يثور إلا بجهد وكذلك سيره ويتصبب عرقاً والخيمة فارغة لا شيء فيها اه » وقال ابن الوردي في تاريخه « وبين البجة والنوبة قوم يقـــال لهم البليون أهـــل عزم وشجاعة يهابهم كل من حولهم من الامم ويهادونهم وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية » .

الفصل الاول

في

تاريخ البجـــة

قال المقريزي : « قال عبـد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : وتجمع لعبد الله بن سعد بن ابي سرح في انصرافه من النوبة على شاطىء النيل البجة فسألهم عن شأنهم فأخبر ان ليس لهم ملك يرجعون اليه فهـــان عليه أمرهم وتركهم فلم يكن لهم عقد ولا صلح وكان اول من هادنهم عبيدالله بن الحبحاب السلوليّ في أواخر القرن الاول للهجرة ويذكر انه وجد في كتاب ابن الحبحاب لهم ثلاثمائة بكر في كل عام حين ينزلون الريف مجتازين تجاراً غير مقيمين على ان لا يقتلوا مسلماً ولا ذمياً فإن قتلوه فلا عهد لهم وان لا يأووا عبيد المسلمين وان يردوا آبقيهم إذا وقعوا اليهم ويقال انهم كانوا يؤاخذون بهذا وبكل شاة أخذها البيجاوي فعليه اربعة دنانير وللبقرة عشرة وكان وكيلهم مقيماً بالريف رهينة بيد المسلمين .

« ثم كثرت أذيتهم على المسلمين وكان ولاة اسوان من العراق فرفـع الى امير المؤمنين المأمون خبرهم فأخرج اليهم عبـــد الله بن الجهم سنة ٢١٦ هـ ٨٣١ م فكانت له معهم وقـائع ثم وادعهم وكتب بينهم وبين كنون رئيسهم

الكبير الذي يكون بقريتهم هجر (المارّ ذكرها) كتاباً نسخته : « هـذا الكتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى امير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الامير ابن اسحق ابن امير المؤمنين الرشيد أبقاه الله في شهر ربيـع الاول سنة ست عشرة ومايتين لكنون بن عبـد العظيم عظيم البجة بأسوان انك سألتني وطلبت إليّ ان أؤمّنك وأهل بلدك من البجة وأعقـد لك ولهم أماناً عليّ وعلى جميـع المسلمين فأجبتك الى ان عقدت لك وعلى جميـع المسلمين أماناً مـا استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هـذا وذلك ان يكون سهل بلدك وجبلهـا من منتهى حد اسوان من ارض مصر الى حد ما بين دهلك وباضع ملكاً للمأمون عبـد الله بن هرون امير المؤمنين أعزه الله تعـالى وانت وجميـع اهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين الا انك تكون في بلدك ملكاً على ما انت عليه في البجة . وعلى ان تؤدي اليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة وذلك ماية من الإبل او ثلاثماية دينـار وازنة داخلة في بيت المال والخيار في ذلك لأمير المؤمنين ولولاته وليس لك ان تخرم شيئاً عليك من الخراج . وعلى ان كل أحد منكم إن ذكر محمـداً رسول الله ﷺ وكتاب الله او دينه بما لا ينبغي ان يذكره به او قتل احداً من المسلمين حراً او عبداً فقـد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وذمة امير المؤمنين أعزّه الله وذمة جماعة من المسلمين وحلّ دمه كما يحلّ دم اهل الحرب وذراريهم . وعلى ان أحداً منكم إن أعان المحاربين على اهل الاسلام بمال او دله على عورة من عورات المسلمين او أثر لعزتهم فقد نقض ذمة عهده وحلّ دمه . وعلى ان احداً منكم إن قتل احداً من المسلمين عمداً او سهواً او خطأً حراً او عبـداً او احداً من ذمة المسلمين او أصاب لأحـد من المسلمين او اهل ذمتهم مالاً ببلد البجة او ببلاد الاسلام او ببلاد النوبة او من شيء من البلدان براً او بحراً فعليه في قتل المسلم عشر ديّات وفي قتل العبد المسلم عشر قيمّ وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم وفي كل مال أصبتموه للمسلمين واهل الذمة عشرة اضعاف . وإن دخل احد من المسلمين بلاد البجة تاجراً او مقيماً او مجتـازاً

او حاجاً فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ولا تؤووا احداً من آبقي المسلمين فإن أتاكم آتٍ فعليكم ان تردّوه الى المسلمين . وعلى ان تردّوا أموال المسلمين اذا صارت في بلادكم بلا مؤونة تلزمهم في ذلك . وعلى انكم اذا نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة او مجتازين لا تظهرون سلاحاً ولا تدخلون المداين والقرى بحال ولا تمنعوا احداً من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها براً ولا بحراً ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على احد من المسلمين ولا اهل الذمة ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالاً . وعلى ان لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتنـاها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولاً وعرضاً فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة . وعلى ان كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلاً يفي للمسلمين بما شرط للمسلمين من دفع الخراج وردّ مـا أصابه البجة للمسلمين من دم ومـال . وعلى ان احداً من البجة لا يعترض حد القصر الى قرية يقال لها قبان من النوبة حداً لاعمدة . عقد عبد الله بن الجهم مولى امير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجة الامان على مـا سمينا وشرطنا في كتابنا هذا وعلى ان يوافي امير المؤمنين فإن زاغ كنون او عاث فلا عهـد له ولا ذمة . وعلى كنون ان يدخل عمال امير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من اسلم من البجة . وعلى كنون الوفاء بمـا شرط لعبد الله بن الجهم وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق . ولكنون بن عبد العزيز ولجميع البجة عهـد الله وميثاقه وذمة امير المؤمنين وذمة الامير ابي اسحق بن امير المؤمنين الرشيد وذمة عبدالله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم . وترجم جميع ما في هذا الكتاب حرفاً حرفاً زكريا بن صالح المخزومي من سكان جده وعبـد الله بن اسماعيل القرشي ثم نسق جماعة من شهود اسوان .

« فأقام البجة على ذلك برهة ثم عادوا الى غزو الريف من صعيـد مصر وقتلوا من وجدوه بالمعدن من المسلمين وكان ذلك في ايام جعفر المتوكل على الله ابن المعتصم (سنـة ٢٣٢ : ٢٤٧ هـ — ٨٤٧ : ٨٦١ م) فكتب له صاحب

البريد بمصر بخبرهم فأنكر المتوكل ذلك وشاور الناس في غزوهم فأخبروه انهم اهل بادية اصحاب إبل وماشية وان الوصول الى بلادهم صعب لأنها مفاوز وان بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر في ارض قفر وجبال وعرة وان كل من يدخلها من الجيوش يحتاج ان يتزود لمدة يتوهم ان يقيمها الى ان يخرج الى بلاد الاسلام فإن جاوز تلك المدة هلك وأخذتهم البجة باليد فأمسك المتوكل عنهم فطمعوا وزاد شرهم حتى خاف اهل الصعيد على انفسهم منهم فولى المتوكل محمد بن عبدالله القمي على اسوان وقفط والاقصر واسنا وارمنت وأمره بحرب البجة وكتب الى عنبسة بن اسحق الضبي عامل مصر بتجهيز العساكر معه وإعطائه من الجند ما يحتاج اليه ففعل ذلك وسار محمد الى ارض البجة في عشرين الفاً بين فارس وراجل وبينهم من المتطوعة وممن كان يعمل بالمعادن عالم كثير ووجه الى القازم (البحر الاحمر) سبعة مراكب موقورة بالدقيق والزيت والتمر والشعير والسويق وأمر أصحابها ان يوافوه بها الى ساحل البحر مما يلي بلاد البجة وسار حتى جاوز المعادن التي يعمل فيها الذهب فانتهى الى حصونهم وقلاعهم فخرج اليه ملكهم واسمه علي بابا في اضعاف جيشه وكانت البجة على إبل فُرهٍ تشبه المهارى فتحاربوا اياماً ولم يصدقهم علي البابا القتال لتطول الايام وتفنى أزواد المسلمين وعلوفاتهم فيأخذهم بغير حرب فجاءت المراكب التي فيها الاقوات في البحر ففرّق القمي ما كان فيها على اصحابه فناجزهم البجة الحرب إذ ذاك وصدقوا في القتال وكانت إبلهم نفورة فأمر القمي جنده باتخاذ الاجراس بخيلهم ثم حملوا عليهم فنفرت إبلهم لأصوات الاجراس فحملتهم على الجبال والأودية وتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً حتى أدركهم الليل وقد قتل من جيش البجة في تلك الوقعة عدد لا يحصى وكان ذلك سنة ٢٤١ هـ — ٨٥٦ م . ثم ان ملكهم علي بابا طلب الأمان من القمي فأمّنه على أداء الخراج لما سلف وهي اربع سنين كان قد منعها ولما يأتي وعلى ان يطأ بساط المتوكل في بغداد ولا يمنع المسلمين من العمل في المعدن وسار معه الى المتوكل بعد ان استخلف على مملكة ابنه فيعس سنة ٢٤١ هـ فرحب المتوكل به

وخلع عليه وعلى اصحابه وكسا جمله رحلاً مليحاً وجلال ديباج وولى المتوكل البجة طريق ما بين مصر ومكة وولى عليهم سعد الاتياخي الخادم فولى سعد محمداً القمي فرجع اليها ومعه علي بابا وهو على دينه وكان معه صنم من حجارة كهيئة الصبي يسجد له . وأقام القمي بأصوان مدة وترك في خزانتها ما كان معه من السلاح وآلة الغزو فلم تزل الولاة تأخذ منه حتى لم يبقوا منه شيئاً .

« ولما كثر المسلمون في المعدن واختلطوا بالبجة قلّ شرهم وظهر التبر لكثرة طلابه وتسامع الناس به فوفدوا من البلدان .

« وفي سنة ٢٥٥ هـ ٨٦٩ م قدم عليهم ابو عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحميد العمري بعد محاربته النوبة ومعه ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة في البجة حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة اليهم من اسوان ستين الف راحلة غير الجلّاب التي تحمل من القلزم الى عيذاب (رأس رواية) . ومالت البجة الى ربيعة وتزوجوا منهم . وقيل ان كهان البجة قبل اسلام من أسلم منهم ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة ولكنون معاً فهم على ذلك . فلما قتل العمري واستولت ربيعة على الجزائر والاهم البجة على ذلك وأخرجوا من خالفهم من العرب وتصاهروا الى رؤساء البجة وبذلك كفّ ضررهم عن المسلمين .

« وفي سنة ٢٥٩ هـ ٨٧٣ م يوم العيد أقبل البجاة فنهبوا وعادوا غانمين وفعلوا ذلك مرّات وكان على مصر اذ ذاك عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فخرج غضباً لله وللمسلمين وكمن لهم في طريقهم فلما عادوا خرج عليهم وقتل مقدمهم ومن معه ودخل بلادهم فنهبها وقتل فيهم فأكثر ونهب وسبى ما لا يحصى وتابع عليهم الغارات حتى أدّوا اليه الجزية ولم يفعلوها قبل ذلك اه » ملخصاً .

وقال ابو حسن المسعودي : « وقد كانت النوبة أشد من البجة الى ان قوي الاسلام وظهر وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقي

وعيذاب وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فاشتدت شوكتهم وتزوجوا من البجة فقويت البجـــة بمن صاهرها من ربيعة وقويت ربيعـة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مُضر بن نزار ممن سكن تلك الديار . وصاحب المعدن في وقتنا هـذا وهو سنة ٣٣٢ هـ ٩٤٤ م بشر بن مروان بن اسحاق وهو من ربيعـــة يركب في ثلاثة آلاف من ربيعـة وأحلافها من مُضر واليمن وثلاثين الف حراب على النجب من البجة بالحجف البجاوية وهم الحدارب وهم مسلمون من بين سائر البجة والداخلة من البجة كفـّار يعبدون صنماً لهم اه » .

قال المقريزي : « ثم كثر المسلمون في المعـــدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم وأسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب اسلاماً ضعيفاً وهم شوكة القوم ووجوههم وهم ممـا يلي مصر من اول حدهم الى العلاقي وعيذاب المعبر منه الى جـــدة وما وراء ذلك ومنهم جنس آخر يعرفون بالرنافج هم أكثر عدداً من الحدارب غير انهم تبع لهم وخفراؤهم يحمونهم ويحبونهم المواشي ولكل رئيس من الحدارب قوم من الرنافج في حملته منهم كالعبيد يتوارثونهم بعـد ان كانت الرنافج قديماً أظهر عليهم » اه . وقيل أسلموا قبل ذلك في امارة عبد الله بن أبي سرح ولما كثرت اذيتهم على المسلمين أرسل اليهم المأمون عبد الله بن الجهم .

وما زال الاسلام يمتـــد حتى عم صحراء البجة كلها وأزال منها عبادة الأوثان .

ويظهر ان اول من خالط البجة من العرب عرب بلي فانك اذا سألت البيجاوي الآن أتعرف العربية يجيبك « بلوّية كاكا » أي لا اعرف العربية . وقال ابن خلدون في كلامه عن مواطن جهينة : « هي ما بين الينبع ويثرب الى الآن في متسع من برية الحجاز وفي شماليهم الى عقبة ايله مواطن بلي وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القلزم . واجتاز منهم أمم الى العدوة الغربيـــة وانتشروا ما بين صعيد مصر وبـلاد الحبشة فأرهقوهم الى هذا العهد اه » أي أواخر القرن الثامن للهجرة .

وقد انقسم البجة الآن الى عـــدة قبائل جسيمة وهم العبابدة والبشارين والامّارار والهدندوة والحلانقـة والحباب وبني عامر وكلهم يدينون بالاسلام ويدعون النسبة الى العرب وما هم بعرب بـل ربمـا كان في بعض خاصتهم دم عربي وأما عامتهم فلا مشاحة في انهم بجة وكلهم يتكلمون اللغة البيجاوية ولا يعرفون لغة غيرها إلا مشايخهم والذين يخالطون العرب منهم على النيـل فانهم يتكلمون العربية ايضاً .

هذا ولم يبقَ الآن في الصحراء الشرقية من يتسمى باسم البجة إلا طائفـة صغيرة في قبيلة بني عامر وهم محتقرون . ومن أمثال اهـل السودان « البجة والخاس أرخص الناس » .

أما الخاس المشار اليهم في هذا المثل فهم ايضاً طائفة صغيرة منتمية الى بني عامر على حدود الحبشة .

قال ابو الفداء في جغرافيته المسماة تقويم البلدان: « وفي شمالي بلاد سحرته (سهاتي) من النيل الى البحر الخاس وهم مذمومون بين أجناس الحبشة وقـد اشتهر عنهم انهم يخصون من يقـع في ايديهم ويفتخرون بذلـك » اه . قلت وما زالت هذه العادة جارية في الحبشة الى اليوم .

الفصل الثاني

في

مدن البجـــة

عيذاب : اشتهر للبجة في الاسلام مدينتان على ساحل البحر الاحمر وهما عيذاب وسواكن . أما عيذاب فيؤخذ من اجمال ما ذكره المؤرخون العرب انها في المكان المعروف الآن برأس رواية . قال ابن خلكان : « عيذاب بليدة على شاطىء بحر جـــدة يعدّي منها الركب المصري المتوجه الى الحجاز على طريق قوص في ليلة واحدة في اغلب الاوقات فيصل الى جدة ».وقال ياقوت في معجم البلدان : « عيذاب بليدة على ضفـة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن الى الصعيد » . وقال ابن خلدون : « وفي وسط الحجاز مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عيذاب في العدوة الغربية من هذا البحر » . وقال ابن الوردي في تاريخه : « عيذاب مدينة حسنة وهي مجمع التجار براً وبحراً واهلها يتعاملون بالدراهم عدداً ولا يعرفون الوزن وبها والٍ من قبل البجة ووالٍ من قبل سلطان مصر يقسمان جباياتها نصفين وعلى عامل مصر القيام بطلب الارزاق وعلى عامل البجة حمايتها من الحبشة واللبن والعسل والسمن بها كثير وبينها وبين الحجاز عرض البحر » .

وقال ابو الفداء في جغرافيته : « وقد اختلف في عيذاب فبعضهم يحـــد ديار مصر على وجه تدخل فيه وهو الأشبه لأن الولاية فيها من مصر وهي من أعمال مصر حقيقة وبعضهم يجعلها من بـــلاد البجة وبعضهم يجعلها من بلاد الحبشة وهي فرضة لتجار اليمن وللحجاج الذين يتوجهون من مصر في البحر فيركبون عيذاب الى جدة . قال ابن سعيد وعرض البحر بين عيذاب وجدة درجتان وهي أشبه بالضيعة منها بالمدن » .

وقال المقريزي : « عيذاب مدينة على ساحل بحر جدة وهي غير مسوّرة وأكثر بيوتها أخصاص وكانت من أعظم مراسي الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة . وأهل عيذاب الساكنون بها طائفة من البجاة ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها وربما جاء في بعض الاحيان وقابل الوالي من جانب الغز اظهاراً للطاعة . وطائفة البجاة اضل من الانعام سبيلاً واقـل عقولاً لا دين لهم سوى كلمة التوحيد ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة ما لا ينحصر وهم عراة يسترون عوراتهم بخرق . وعيش اهل عيذاب عيش البهائم وهم أقرب الى الوحش في اخلاقهم منهم الى الانس » .

« وكان الحجاج من مصر والمغرب لا يتوجهون الى مكة المشرفة إلا من صحراء عيذاب يركبون النيـل من ساحل مدينة مصر الفسطاط الى قوص ثم يركبون الابل من قوص ويعبرون هذه الصحراء الى عيذاب ثم يركبون البحر في الجلاب (قوارب) الى جـدة ساحل مكة . وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون في البحر الى عيذاب ثم يسلكون هـــذه الصحراء الى قوص ومنها يردون مدينة مصر ومسافة هذه الصحراء من قوص الى عيذاب ١٧ يوماً ويفقد فيها الماء ثلاثة ايام متوالية وتارة يفقد اربعة ايام فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة آهلة بما يصدر او يرد من قوافل التجار والحجاج حتى انه كانت احمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلـــك لتوجد ملقاة بها والقفول صاعدة وهابطة لا يتعرض لها احد الى ان يأخذها صاحبها .

« وعيذاب في صحراء لا نبات فيها وكل ما يؤكل بها مجلوب اليها حتى الماء وكان لهم من الحجاج والتجار فوائد لا تحصى وكان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقررة وكانوا يكارون الحجاج الجلاب التي تحملهم في البحر الى جدة ومنها الى عيذاب فتجمع لهم من ذلك مال عظيم ولم يكن في اهل عيذاب إلا من له جلبة فأكثر على قدر يساره وجلاب هذا البحر لا يستعمل بها مسمار البتة انما هي مخيطة بأمراس من قشر جوز الهند المسمى بالنرجيل ويخللونها بدُسُر من عود النخل فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن او بدهن الخروع وبدهن القرش وهو احسنها . والقرش حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى . وانما يدهنون الجلاب لتليين عددها وترطيبها لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر . وأخشاب هذه الجلاب مجلوبة من الهند واليمن وشراعها حصر منسوجة من خوص شجر المقبل .

« ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت فانهم يبالغون في شحن الجلبة بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض حرصاً على الاجرة ولا يبالون بما يصيب الناس في البحر بل يقولون دائماً علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح وكان الحجاج يجدون في ركوبهم الجلاب على البحر أهوالاً عظيمة لأن الرياح تلقيهم في الغالب بمراسٍ في صحارى بعيدة مما يلي الجنوب فينزل اليهم التجار من جبالهم فيكارونهم الجمال ويسلكون بهم على غير ماء فربما هلك أكثرهم عطشاً وأخذ التجار مما كان معهم ومنهم من يضل ويهلك عطشاً والذي يسلم منهم يدخل الى عيذاب كأنه نُشر من كفن قد استحالت هيئاتهم وتغيرت صفاتهم ومنهم من يساعده الريح فتحطه بمرسى عيذاب وهو الاقل .

« ولم تزل عيذاب مسلكاً للحجاج من اهل مصر والجنوب في ذهابهم وإيابهم زيادة على مئتين سنة من اعوام بضع سنة ٤٥٠ هـ ١٠٥٩ م الى أعوام بضع سنة ٦٦٠ هـ ١٢٦٢ م وذلك في ايام الخليفة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر وانقطع الحج في البر الى ان كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقاري الكعبة وعمل لها مفتاحاً ثم اخرج قفلة الحجاج من البر في سنة

٦٦٦ هـ ١٢٦٨ م فقلّ سلوك الحجاج لهذه الصحراء . واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب الى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ٧٦٦هـ ١٣٦٥م وتلاشى أمر قوص من حينئذ . ولما انقطع ورود مراكب الهند واليمن اليها صارت المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن الى ان كانت أعوام بضع وعشرين وثمانماية فصارت جدّة أعظم مراسي الدنيا » اه .

سواكن : أما سواكن فقد قال فيها ابو الحسن المسعودي : « وجزيرة سواكن أقل من ميل في ميل وبينها وبين البحر الحبشي بحر قصير يُخاض وأهلها طائفة من البجا تسمى الخاسة وهم مسلمون ولهم بها ملك . وقال أبو الفداء في جغرافيته : « قال ابن سعيد وصاحب سواكن من البجا المسلمين وله ضرائب على التجار وسواكن صغيرة جداً. وبين سواكن وبين عيذاب نحو سبع مراحل وحكى لي بعض المسافرين اليها قال وسواكن بقدر ضيعة صغيرة في جزيرة صغيرة قريبة من الساحل ويخاض اليها من البر وهي وما حولها للبجا . وأما ما وراء سواكن والى المندب فهو لجنس من السودان يقال لهم دَنكل ومن وراءات المندب لزيلع .

الباب الرابع

في

تاريخ مملكة سنار

منذ خراب سوبه سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥ م الى الفتح المصري لسنار
سنة ١٢٣٦ هـ ١٨٢٠ م

تمهيـــد

يؤخذ من التواريخ التقليدية ان جزيرة سنار الواقعـة بين النيل الابيض والنيـل الازرق هي بلاد المكروبيين الذين ذكرهم هيرودوتس انهم في أقصى جنوب ايثيوبيا . وقد تقدم لنا حملاً على الظن ان الجنود المصريين الذين فرّوا الى السودان في ايام الملك بسامتيك سنة ٦٤٤ ق. م. أقاموا في جزيرة سنار. وارتأى البعض ان الملك الذي طمع كمبيز ببلاده فعجز عن الوصول اليه سنة ٥٢٥ ق. م. كما مرّ هو ملك هذه الجزيرة . وفي بعض التقاليد القديمة انه قام في هذه الجزيرة بعد كمبيز ١٢ ملكة و ١٠ ملوك . وقـــد رأينا انه قام في شرقيها مملكة عرفت بمملكة علوة او مملكة العَنج وذلك من قبل النصرانية وبقيت على النصرانية نحو ألف سنة حتى قام الفرنج فاتحدوا مع العرب فخربوها وأسسوا مملكة سنار سنة ١٥٠٥ م في مكانها .

اما الفونج فقد اختلف المؤرخون في اصلهم فمن قائل انهم فرع من الشلك ومن قائل انهم من سكان دارفور الاصليين . والذي عليه التقاليد السودانيـة وتدعيه سلالتهم انهم من بني امية قالوا : ان العباسيين لما تغلبوا على الأمويين في الشام ونزعوا الملك من ايديهم سنة ١٣٢هـ ٧٥٠م اخذ من بقي من الامويين ومن والاهم بالفرار فتفرقوا في أنحـــاء العالم فذهبت جماعة منهم الى اسبانيا فأسسوا مملكة الاندلس على ما هو مشهور وذهب آخرون الى السودان فأسسوا مملكة سنار قيل لجأوا اولاً الى الحبشة فعلم بنو العباس بهم فأرسلوا الى النجاشي يريدون منه تسليمهم وإلا اقاموا عليـــه حرباً عواناً واخذوهم عنوة فحار

النجاشي في امره لأنه لم يشأ ان يسلّم قوماً دخلوا في حمـاه الى اعدائهم ولا ان يتحمل عناء حرب طويلة لأجلهم فأرسل هدية فاخرة الى العباسيين وأمر الامويين فخرجوا من بلاده وسكنوا الجبال التي في أعالي جزيرة سنار وكان سكانها من السود (وبينهم الفونج) فملكوهم بالسهل نظراً لمـا تعودوه من السلطة والنفوذ في سورية والعراق وكثر تسريهم منهم فغيّر ذلـك من لونهم ولكنه لم يضع اصلهم فهم لم يزالوا عرباً ممتازين .

هذه هي رواية القائلين ان الفونج من بني امية وفي جملتهم الشيخ عبدالدافع صاحب تاريخ الفونج ولكن ما من قبيلة اشتهرت في السودان إلا ادّعت لنفسها نسباً يتصل بآل البيت ولعلّ الفونج لم يخرجوا عن هـذا الحكم والأقرب الى الصواب انهم قوم خلاسيون أي خليط من كبراء العرب وملوك الفونج السود.

قال الشيخ عبد الدافع : « وانتقل الفونج من جبال الجنوب الى جبـل مويه المجاور لجبل سجدي على مقربة من سنار وكان كبيرهم عمارة ود دنقس وفي جوارهم قبيلة من عرب جهينة تعرف بالقواسمة وعليها شيخ شديد البأس يقال له عبد الله جماع فاتحد عماره وعبد الله المذكوران على ضم كلمة المسلمين ومحاربة النوبـة ونزع الملك من ايدي العنج فحشدا الجيوش وهاجما العنج في سوبة فقتلوهم شر قتلة وأخربا سوبة ثم سارا الى قرّي فقتلا ملكها واستوليا على البلاد كلها وذلك سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥ م كما مرّ . قيل وقد ساعدهما على النصر نشوب فتن داخلية أدّت الى سفك الدماء .

ولما تمّ النصر لعمارة وعبد الله على النوبة اتفق رأيهما بأن يكون عمارة هو الملك الاعظم في مكان ملك سوبة لأنه الكبير والمقدّم ويكون عبد الله بعده في مكان ملك قرّي ويلقب شيخاً فجلس عبد الله في قرّي وذهب عمـارة فاختط مدينة سنار وجعلها كرسي مملكته . قيـل وكان هناك جارية تسمى سنار فسميت المدينة باسمها. وكان عمارة وعبدالله كالاخوين إلا ان رتبة عمارة أعلى من رتبة عبد الله فكانا اذا حضرا معاً يتقدم عمـارة على عبد الله واذا

غاب عمارة قام عبدالله مقامه ولم تزل هذه العادة متبعة في أسلافهما الى انقضاء المملكة اه .

وقد امتدت مملكة سنار من الشلال الثالث الى أقصى جبال فازوغلي شمالاً وجنوباً ومن سواكن على البحر الاحمر الى النيل الابيض شرقاً وغرباً . وكان الحدّ بين مملكة سنار ومشيخة قرّي مدينة اريجي بقرب المسلمية التي قيل انها اختطت قبل سنار بثلاثين سنة اختطها رجل يسمى حجازي . فمن اريجي فصاعداً جنوباً كان تابعاً لملوك الفونج رأساً لا دخل لمشايخ قرّي فيه ومنها شمالاً الى الشلال الثالث كان تابعاً لإدارة مشيخة قرّي تحت سيادة ملوك الفونج . وقد كانت المملكة منقسمة الى عدة ممالك ومشيخات من سود ونوبة وعرب حضر وبادية وكان كل ملك او شيخ يدفع الجزية لملك سنار إلا ان له نوعاً من الاستقلال واما البلاد الواقعة بين الشلال الثالث والشلال الاول فقد كانت بيد الكشاف والاتراك كما أشرنا آنفاً . وسنأتي على تاريخ هذه الممالك كلها مبتدئين بتاريخ الفونج ملخصاً عن تاريخ الشيخ عبد الدافع وتاريخ الزبير ودضوّه من علماء الخرطوم السابقين وعن بعض كبارها الحاليين :

الفصل الاول

في

تاريخ ملوك الفونج في سنار

من سنة ٩١٠ : ١٢٣٦ هـ — ١٥٠٥ : ١٨٢١ م

١ — الملك عماره دُنقس ملك من سنة ٩١٠:٩٤٠هـ — ١٥٠٥:١٥٣٤م

هو رأس سلسلة ملوك الفونج وقد تقدم لنـا ذكر قيامه وتأسيسه المملكة في سنار . قيـل وفي ايامه قدم السلطان سليم الى سواكن ومصوع فامتلكهما ودخل الحبشة بقصد الزحف على سنار فخاطب ملكهـا يدعوه الى الطاعة فأجابه بما مفاده : « اني لا أعلم مـا الذي يحملك على حربي وامتلاك بلادي فإن كان لأجل تأييـد دين الاسلام فاني انا وأهل مملكتي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله وإن كان لغرض مادّي فاعلم ان اكثر اهل مملكتي عرب بادية وقد هاجروا الى هذه البلاد في طلب الرزق ولا شيء عندهم تجمع منه جزية سنوية » . وأرسل له مع الكتاب كتاب أنساب قبـائل العرب الذين في مملكته جمعه له الامام السمرقندي احد علماء سنار فلما وصل الكتابان الى السلطان سليم أعجبه ما فيهما وعدل عن حرب سنار . قيل وأخذ كتاب الأنساب معه الى الآستانة

وهو لا يزال في خزانة كتبها الى اليوم . قلتُ وقد طالما سمعت عن هـــذا الكتاب وعن وجوده في السودان قبل الفتح الاخير فلما فُتح السودان بذلتُ الجهد في التفتيش عنه فلم أقف له على أثر .

٢ – الملك عبد القادر ابنه سنة ٩٤٠ : ٩٥٠ هـ – ١٥٣٤ : ١٥٤٤ م

٣ – الملك نائـل أخوه سنة ٩٥٠ : ٩٦٢ هـ – ١٥٤٤ : ١٥٥٥ م

٤ – الملك عمارة ابو سكاكين اخوه سنة ٩٦٢ : ٩٧٠هـ – ١٥٥٥ : ١٥٦٣م

وفي أيامه توفي عبد الله جماع شيخ قرّي المتقدم الذكر فعهـد بالمشيخة الى ابنه الشيخ عجيب كافوت .

٥ – الملك دكين بن نائل الملقب بالعادل سنة ٩٧٠ : ٩٨٥هـ – ١٥٦٣ : ١٥٧٨م

قيل لُقّب بالعـــادل لأنه كان محباً للعدل وقد رتّب دواوين حكومته أحسن ترتيب ونظم البلاد فأقام على كل جهة رئيساً وضرب عليه جعلاً معلوماً وجعل دخول الرؤساء عليه حسب رتبهم الأعلى فالأعلى .

٦ – الملك طبل سنة ٩٨٥ : ٩٩٧ هـ – ١٥٧٨ : ١٥٨٩ م

٧ – الملك أُنسه سنة ٩٩٧ : ١٠٠٧ هـ – ١٥٨٩ : ١٥٩٩ م

٨ – الملك عبد القادر الثاني سنة ١٠٠٧ : ١٠١٣ هـ – ١٥٩٩ : ١٦٠٥م

٩ – الملك عدلان ابنه أبَه سنة ١٠١٣ : ١٠٢٠ هـ – ١٦٠٥ : ١٦١٢ م

وفي أيامه خرج الشيخ عجيب شيخ قرّي المتقدم الذكر عن طاعته فأرسل اليـه عساكر بكثرة والتقى العسكران بالقرب من كلكول بين العيلفون والخرطوم فقتل الشيخ عجيب وفرّ أولاده الى دنقلة فأرسل لهم الملك عدلان أماناً مع الشيخ ادريس بن محمـــد الارباب فرجعوا معه الى الملك فبالغ في اكرامهم وولى أحدهم العجيل مشيخة قرّي .

أما الشيخ ادريس المشار اليه فهو من رجال الدين الذين اشتهروا في السودان بالصلاح والتقوى وقد لقب بسلطان الاولياء وكان له ولذرّيته من بعده مكانة رفيعة عند ملوك سنار فكانوا يصلحون بينهم وبين كبار رعيتهم اذا اختصموا ويتشفعون عندهم في الامور الخطيرة بل كانوا اذا طارد ملك أحد الرعية فلجأ الى حماهم رجع الملك عنه . وقيل في نسب الشيخ ادريس ان أباه قرشي تميمي وأمه من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب هاجر جدّه من الشام فأقام مدة في بلاد المحس ثم بلغه ان في الحلفاية شريفاً من نسل الحسين يسمى الشريف حمداً فرحل اليه وكان له ابن فزوّجه بابنة الشريف فوُلد له الشيخ ادريس المذكور وذلك سنة ٩١٣ هـ فعمّر الى سنة ١٠٦٠ هـ ودفن في العيلفون جنوبي الخرطوم وبني فوق قبره قبة تزار وما زالت ذريته في العيلفون الى اليوم . وقد أخذ الصوفية على الطريقة الجيلانية عن الشيخ تاج الدين البهاري الذي قدم الى سنار من بغداد وعنها اشتهرت هذه الطريقة فعمت جميع بلاد سنار وهي اول الطرق الصوفية في السودان .

ويروى عن الشيخ ادريس كرامات كثيرة منها انه ظهر في جنوب النيل الازرق يد بشرية مرفوعة فوق المـــاء وهي تسير مع التيار وأصابعها الخمس مفتوحة ولم يُر معها شخص فحار النـاس في أمرها وتشوّقوا الى معرفة سرها فلما وصلت تجـاه العيلفون خرج الشيخ ادريس من مسجده فرفع لها أصبعين فغاصت للحال في الماء ولم تعد ترى فسأله الناس في ذلك فقال هذه اليد تدلّ على ان الاتفاق قوّة وانه اذا كان خمسة من الناس بقلب واحد لم يقدر عليهم أحد فرفعتُ لها اصبعين مشيراً الى انه اذا كان اثنان فقط بقلب واحـد فلا يقدر عليهما احد فانصرفت خجلا .

هذا ومن عادة بائعـات المريسة في العيلفون ان تزفع كل منهنّ راية فوق منزلها وتجلس عندها تنادي بأعلى صوتها : « يا شيخ ادريس يا راجـل الفدّة والمدّة تلحقنا وتفزعنا وتبيع لي مريستي » فيجتمع الناس عندها فتخرج من

المريسة ملء قدر فتسقيهم اياه مجاناً تصدقاً عن روح الشيخ ادريس ثم تشرع في بيع الباقي بالثمن .

واشتهر بعد الشيخ ادريس بالصلاح والتقوى في سنار « الشيخ حسن ود حسونة » جاء أبوه من الأندلس وسكن كركوج فولد الشيخ حسن المذكور فيها فسلك طريق القوم وحجّ الى بيت الله الحرام وساح الى مصر والشام وغيرهما وكانت مدة سياحته نحو ١٢ عاماً ثم رجع الى البلاد واشتهر صلاحه فسكن البادية وأكثر فيها من المواشي والخيل والعبيد . وكان مع كثرة غناه يتقشف في أكله ولبسه ويطعم الناس لذيذ الاطعمة وكان بينه وبين الشيخ ادريس محبة عظيمة الا انه لم يشتهر الا بعد وفاة الشيخ ادريس ولم يخلّف ذرية وتوفي سنة ١٠٥٩ هـ ١٦٤٩ م فعاش احدى وتسعين سنة ودفن في قبته التي بناها قبل وفاته في وسط البطانة بين النيل والاتبرة واصبحت مزاراً يجتمع فيها في كل خريف خلق كثير .

وفي ايام الملك عدلان قدم الى سنار الشيخ ابراهيم بن جابر البولادي من مصر وهو اول من درّس مختصر الشيخ خليل المالكي في بلاد الفونج فنفع الله به خلقاً كثيراً . وقدم ايضاً رجل مغربي تلمساني على الشيخ محمد عيسى سوار الذهب فأخذ عنه طريق القوم ودرس عليه علوماً كثيرة .

وفي نحو هذا العهد قدم الشيخ محمود العركي من مصر وعلّم الناس بعض أركان الشريعة وبنى له رباطاً على البحر الابيض بين أليس والحسانية وبه مدفنه الآن . وكان قبله في بلاد سنار اولاد ضيف الله المعروفة مقابرهم في ابي حليمة شرق النيل الازرق . قيل وكان اول دخول الاسلام الى بلاد سنار في خلافة هارون الرشيد سنة ٧٨٦ م .

١٠– الملك بادي المعروف بسيد القوم سنة ١٠٢٠ : ١٠٢٣هـ – ١٦١٢ : ١٦١٥م

١١– الملك رباط ابنه سنة ١٠٢٣ : ١٠٥٢ هـ – ١٦١٥ : ١٦٤٣ م

١٢– الملك بادي ابو ذقن سنة ١٠٥٢ : ١٠٨٨ هـ – ١٦٤٣ : ١٦٧٨ م

ومن أعماله انه غزا الشلك وفتك بهم . ثم غزا جبال تقلي فدوّخها. قيل والسبب في غزوه تلك الجبـــال ان احد أصدقائه ذهب اليها بتجارة فسلبه ملكها جميع ما كان معه وطرده فقيل للملك ان هذا الرجل صديق لملك سنار فقال وماذا يهمني ملك سنار فإن قصدني وجاوز باجة (غابة) أم لمّاع فليفعل ما يشاء وباجة أم لماع مفازة صعبة لا ماء فيها بين النيل الابيض وجبال تقلي. فأتى التاجر الى ملك سنار وأخبره بما جرى له مع ملك تقلي فجهّز عساكره وسار قاصداً جبال تقلي وقال لصاحبه اذا وصلنا الى غابة ام لمـاع فأخبرني فلما وصلوا اليها أخبره فنزل الملك عن جواده وأمر عساكره فنزلوا عن ركائبهم واجتازوا الغابة ماشين على الأقدام أراد بذلك احتقـار العقبة التي ظن ملك تقلي انها تعجزه ولما اجتازها ركب وركبت عساكره وساروا في جبال النوبة يقتلون ويأسرون ويسبون حتى وصلوا الى جبـــال تقلي فحاصروها فتمنع ملكها بالحصون قيل وكان يقاتل عساكر ملك سنار نهـاراً ويرسل اليهم « الضيافة » ليلاً . فلما رأى ملك سنار مكارم أخلاقه صالحه على جُعل معلوم يدفعه له في كل عام ورجع الى سنار ومعه سبايا النوبة وتقـــلي فجعل لكل جنس منهم حلة معلومة حول سنار وأسكنهم بها وصاروا من جملة جنوده وقد تنـــاسلوا بتلك الحلل فسميت كل حلة باسم الجنس الذي سكنها مثل تقلي والكدرو والكنك والكاركو وغيرها وبقيت ذراريهم بهـا الى انقضـاء دولة الفونج .

وقد اشتهر هذا الملك بالشجاعة والكرم والعفة والتعبد وكان معظماً لأهل العلم والدين مكرماً لهم. وكان بينه وبين علماء مصر اتصال حسن فكان يرسل اليهم الهدايا مع خبيره احمد علوان وقد اشتهرت منـــاقبه عندهم حتى انهم مدحوه بقصائد عديدة منها قصيدة للشيخ عمر المغربي قال فيها :

أيا راكباً يسري على متن ضامرٍ الى صاحب العليـاء والجود والبرّ
ويطوي اليه شقة البعد والنوى ويقتحم الأوعار في المهمه القفرِ

وينهض من مصر وشاطىء نيلها ... وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير إن وافيت سنار قف بها ... وقوف محبٍّ وانتهز فرصة الدهر
وألقِ عصا التسيار في صرح أنسها ... تجد كل ما تهوى النفوس من البشر
وأهدِ سلاماً عطّر الكون نشره ... ألذّ من الماء المسلسل والقطر
وأحلى وأهنا من وصال بلا جفا ... وأعلى وأغلى من عقود من الدرّ
الى حضرة السلطان والملك الذي ... حمى بيضة الاسلام بالبيض والسمر
هو الملك المنصور «بادي» الذي له ... مدائح قد جلت عن العدّ والحصر
حمى حرمة الدين الحنيفيّ بالقنا ... وعزّز فيه راية الفتح والنصر
وجرّد للاسلام والملك صارماً ... أباد به اهل الغواية والكفر
له في صميم الملك مجد مؤثلٌ ... تلقّاه عن أسلافه السادة الغرّ
ملوك تساموا للعلى وخلائف ... أولو العزم في أزمانهم وأولو الأمر
هم العقد من أبهى اللآلىء نظمه ... مناقبهم كالمسك طيبة النشر
وفيهم مولانا المليك فريدة ... لذا العقد ربُّ العز والمجد والفخر
هو البرّ والبحر المحيط حقيقة ... فناهيك من برٍّ وناهيك من بحر
عماد يلوذ المسلمون بظله ... وسدٌّ منيع للأنام من الضرّ
سليل ملوك الفونج والسادة الاولى ... علا مجدهم فوق السماكين والنسر
محا أثر الفجار بالسيف فاغتدت ... بهم حوزة الاسلام سامية القدر
أيادٍ له بالنصر كاسرة العدى ... ولكنها بالجود جابرة الكسر
به أصبحت سنار في الأنس والصفا ... وتاهت على البلدان حتى على مصر
تبارك من أنشاه للخلق رحمةً ... وزان به الازمان كالعقد في النحر
وصيّر أمري في يديه فإن يشأ ... أزال برغم الدهر ما بي من الضرّ
فاني فقير والفضائل حرفتي ... وفي مصر أرباب الفضائل في فقر
وقد جاءني منكم كتاب معظّم ... وفي سلكه نظم الجواهر والدرّ
فقبّلته ألفاً وحقاً جعلته ... على الرأس تعظيماً وأودعته صدري
تسلمت عبداً واحداً من صلاتكم ... ونلت به فخراً وناهيك من فخر

فخذها من العبد الفقير قصيدة منظمة كالدرّ في خالص التبر
هو المغربي المالكي وانه يسمّى ابن خطاب ومثلك من يدري
فمنوا عليها بالقبول وأنعموا عليه بما ينجيه من غصص الدهر
فلا زلتَ في أوج السعادة رافلاً وراجيك «بادٍ» عن عطاء وعن شكر

وهو الملك الذي بنى الجامع بسنار وجعل في نوافذه شباكاً من نحاس وبنى قصراً لحكومته فجعله خمس طبقات بعضها فوق بعض وبنى مخازن للأسلحة والذخائر وديواناً لجلوسه وديوانين آخرين أحدهما خارج القصر والآخر داخله وأحاط جميع ذلك بسور له تسعة أبواب جعل ثمانية منها لأمراء دولته لكل أمير باباً يدخل منه الى ديوانه الخاص للنظر في الشؤون المتعلقة به وجعل الباب التاسع له ولولد عجيب شيخ مشيخة قرّي . وهذه الابواب التسعة تفتح في حائط واحد وأمام كلٍّ منها رواق له دكة عالية تعرف «بدكة من ناداك» قيل سميت بذلك لأنها ملجأ للمتظلمين فيأتيها الناس من انفسهم بدون ان يناديهم احد . واذا أراد احد كبراء الدولة الدخول الى ديوان الملك لزمه ان يدخل وحده . ولما تضعضع حال الفونج وتغلب الهمج على ما سيجيء تهدّم كثير من تلك البيوت وتداعى القصر الكبير ولكن بقيت آثاره الى الفتوح المصري .

١٣ – الملك أنسه الثاني ابن اخيه سنة ١٠٨٨:١١٠٠هـ – ١٦٧٨:١٦٨٩ م

وفي أيامه سنة ١٠٩٥ هـ وقيل ١٠٨٩ هـ حصل غلاء شديد واشتد الجوع حتى أكلت الناس الكلاب فسميت هذه السنة بسنة أم لحم . وفيها تفشّى مرض الجدري ومات منه ومن الجوع خلق كثير .

١٤ – الملك بادي الاحمر ابنه سنة ١١٠٠ : ١١٢٧ هـ – ١٦٨٩:١٧١٥ م

وقد خرج أهله الفونج عن طاعته ونصرهم الشيخ ارداب ولد عجيب شيخ قرّي فأقاموا عليهم ملكاً اسمه « أوكل » وجمعوا لمحاربته نحو ألف فارس ولم يكن مع الملك بادي إلا خمسة واربعون فارساً فقاتلهم ونصره الله عليهم فقتل

الشيخ ارداب وطرد الباقين الى محل يقال له العطشان ورجع سالماً منصوراً .

وفي أيامه ظهر الولي الشيخ حمد ولد الترابي من عرب رفاعة الهوي فاشتهر في السودان بالصلاح والتقوى ودُفن في جزيرة سنار بين الكاملين ومسجد ود عيسى وبني فوق قبره قبة تزار الى اليوم .

١٥ — الملك أنسه الثالث سنة ١١٢٧ : ١١٣٠ هـ — ١٧١٥ : ١٧١٨ م

وقد انهمك باللهو واللعب وارتكاب الفحشاء حتى بلغت أخباره الفونج بالصعيد وهم جنود « لولو » فصمموا على عزله لأنهم هم الذين يعزلون ويولّون من يريدون من الملوك فجاؤوا الى حلال الكبوش قرب سنار وعينوا ملكاً وأرسلوا للملك أنسه قائلين ان قتلت وزيرك نقرُّك على الملك ولا تتعرض لك فاغتر بكلامهم وقتل وزيره بعد تردُّد ثم أرسل لهم الخطيب وبعض عمد سنار ليوفوا له بشرطهم فلم يسمعوا له بل لم يزالوا مصممين على عزله فلما يئس منهم استأمنهم على نفسه وعائلته فأمنوه وخرج من محل الملك وذلك في سنة ١١٣٠ هـ ١٧١٨ م وكان هو آخر ملوك من تولى من نسل عمارة دنقس وولى الفونج بعده :

١٦ — الملك نول سنة ١١٣٠ : ١١٣٦ هـ — ١٧١٨ : ١٧٢٤ م

وكانت له نسب من جهة الرحم يتصل بسلسلة الملوك المتقدمين وقد اتفقوا على توليته لأنه كان رجلاً عاقلاً حسناً في الاسلام فحكم في الرعية بالعدل وحسن التدبير فارتاحوا الى حكمه وسموه بالنوم لشدة عدله .

١٧ — الملك بادي ابو شلوخ ابنه سنة ١١٣٦ : ١١٧٥ هـ — ١٧٢٤ : ١٧٦٢م

وهو أشهر ملوك سنار وقد امتاز بالشهرة لحربه مع الحبشة وانتصاره على ملكها ياسو . وقد ذكر بعضهم سبباً لهذه الحرب قال : أن لويس الرابع عشر ملك فرنسا أرسل سنة ١٧٠٣ م هدايا فاخرة الى ياسو ملك الحبشة مع الموسيو لانوار دي رول (M. le noir du Roule) فقام رول من مصر في

١٩ يوليو سنة ١٧٠٤ م وسار قاصداً الحبشة بطريق النيـــل فوصل سنار في آخر مايو سنة ١٧٠٥ ومعـه سبعة أتباع وخادم ومترجم وستون جملاً محملة هدايا فاخرة لملك الحبشة فقابله ملك سنار بالترحاب وكان المسيو رول قـــد أحضر له هدية فسرّ الملك بها وأهدى له هدية نفيسة عوضها ولكن لم يمض إلا القليـل حتى ورد على ملك سنار رسائل من مصر أوغرت صدره على الموسيو رول وقيل ان الرسائل التي جاءتـه حذّرته من الموسيو رول وأنذرته بأنـه ذاهب الى الحبشة لتحويل مجرى النيـــل الازرق عن سنار وتعليم الاحباش صناعة الحرب وتقويتهم بالمدافع عليه فلما كان آخر شهر اوغسطس سنة ١٧٠٥م استأذن الموسيو رول الملك في استئناف السفر الى الحبشة فأذن له ولكن ما سار عن سنار بضعة أميال حتى أدركه ٣٠٠ رجل من قِبل الملك فقتلوه هو وأتباعه وأخذوا جميع ما كان معه من الهدايا والأمتعة وانقلبوا راجعين الى سنار . فلما بلغ ياسو ملك الحبشة ما كان من الملك بادي جرّد جيشاً جراراً عدته ٣٠ ألفاً وقيل ١٠٠ ألف وسار في طليعته قاصداً سنار . فجمع الملك بادي جيوشه من المشاة والفرسان وجعل عليهـا الامين ود مسمار ود عجيب شيخ مشيخة قرّي قائـــداً عاماً وجعـل على الفرسان خاصة الشيخ محمداً أبا الكليلك كبير الهمج (والهمج قوم خلاسيون من النوبة والعرب وقيل هم فرع من العوضية الجعليين) وقـد تسلح المشاة بالسيوف والحراب ولبس الفرسان دروع الزرد وألبسوا خيلهم « اللبرس » واجتازوا النيل فاجتمعوا على خميس امير فور ، وانضموا جيشاً واحداً وساروا لملاقاة جيش الحبشة فالتقوا به في محل يقال له الزكيّات شرق الدندر واقتتلوا قتالاً شديداً قتل فيه من الجيشين خلق كثير وكان النصر لجيش سنار فغنم غنائم عظيمة من أسلحة ومدافع وخيام وخيول وغير ذلك ونالت سنار بهذا النصر شهرة طبقت الآفاق حتى بلغت مصر والشام والحجاز والاستانة وتونس والهند فتقاطر الناس اليها أفواجاً من كل الجهات وأقاموا فيها . قيل وكان تاريخ هـذه الواقعة صفر الخير سنة ١١٤٧ هـ يوليو ١٧٣٥ م قلت وهو لا ينطبق على تاريخ الرواية المتقدم ذكرها

في بيان سبب الحرب .

وقويت شوكة الملك بادي بعد حرب الحبشة وطمعت نفسه بامتداد ملكه غرباً فأرسل جيشاً لفتح كردوفان وولى عليه ود تومه ومعه الشيخ عبد الله ود عجيب شيخ قرّي واخوه تمام والشيخ محمد ابو اللكيلك كبير الهمج وكان على كردوفان طائفة المسبّعات أقرباء سلاطين الفور الآتي ذكرهم فالتقوهم في مكان يقـــال له قحيف وهزموهم وقتلوا قائدهم ود تومه والشيخ عبد الله ود عجيب فجمع الشيخ محمد ابو اللكيلك العساكر ثانية وأعاد الكرة على المسبعات فاقتتلوا في مكان يقال له شمقتّه من أعمال الطيارة بكردوفان فقتل الشيخ تمام ود عجيب والعجيل ابنه .

وبلغ ملك سنار خبر القتـــال الاول والثاني وما أظهره الشيخ محمد ابو اللكيلك من البسالة وحسن التدبير فأرسل اليه يعينه قائداً عاماً في الجيش في مكان ود تومه فسرّ بهذا الالتفات وأعاد الكرة بعزم جديـــد على المسبعات فانتصر عليهم وأخرجهم من كردوفان وكان ذلك في سنة ١١٦٠ هـ ١٧٤٧ م فأقام فيها الى سنة ١١٧٤ هـ ١٧٦١ م . ثم أخلاهـا للمسبعات وعاد الى سنار لعزل الملك بادي وسبب ذلك ان الملك بادي كان له وزير صاحب عزم وتدبير وهو الذي قام بتدبير المملكة وأكسبها تلك الشهرة فمات الوزير واستبد الملك بادي برأيه فغير كثيراً من النظامات والقوانين واستعان بالنوبة الذين أتي بهم من جبال كردوفان فجعلهم رؤساء بدلاً عن رؤساء البـــلاد أصحاب الرتب القديمة . وفي سنة ١١٧٠ هـ قتل الخطيب عبد اللطيف البغدادي من مشاهير علماء السودان . وكان له أولاد كبار فتطاولوا على الرعية وبغوا وأفسدوا ولم ينههم فنفرت منه قلوب رعيته. وكان مع الشيخ محمد ابي اللكيلك في كردوفان جماعة من أكابر الفونج فأساء الملك الى أتباعهم في سنار فاغتاظوا منه واتفقوا مع الشيخ محمد أبي اللكيلك على عزله وتولية ابنه ناصر في مكانه فخرجوا من كردوفان وعبروا النيـــل الابيض ونزلوا بأليس فأرسلوا الى ناصر وأخبروه بنفور قلوب النـــاس من أبيه وعزمهم على توليته ملكاً عوضاً عنه فخرج من

سنار متنكراً واجتمع بالشيخ محمـــد وأكابر الفونج في أليس فأخذوا عليه العهود والمواثيق وساروا به قاصدين سنار ثم ارسلوا الى الملك بادي يقولون له ان خرجت فلك الأمان فخرج في قلة وذلة واجتاز البحر وذهب الى سواكن ومات فيهـا وكانت مدة حكمه ٣٩ سنة . وهو آخر من تمتع بعز الملك من ملوك الفونج فانهم بعد ذلك صاروا يتولونه رسماً لا حقيقة وأصبحت السلطة الحقيقية وتولية ملوك الفونج وعزلهم بيد وزرائهم الهمج الذين أوّلهم « الشيخ محمد ابو اللكيلك » المتقدم الذكر .

١٨ – الملك ناصر سنة ١١٧٥ : ١١٨٢ هـ – ١٧٦٢ : ١٧٦٩ م

حكم ٧ سنين ثم انقلب عليه الشيخ محمد فنفـاه الى حلة البقرة قرب سنار فأخذ يسعى بالعود الى كرسي الملك والفتك بالشيخ محمد فبعث الشيخ محمد ابن أخيه بادي بن رجب بجانب من عساكره فدخلوا عليه في منزله وقتلوه وكان المصحف الشريف عن يمينه والموّطأ (وهو كتـاب للامام مالك) عن شماله لأنه كان من اهل العلم وله خط جميل . وولى الشيخ محمد أخاه .

١٩ – الملك اسماعيل سنة ١١٨٢ : ١١٩١ هـ – ١٧٦٩ : ١٧٧٨ م

وكان رجلاً ديّناً عدلاً أزال المظالم وأحسن الى الفقراء والفقهاء . وفي اول سنة من ملكه أي سنة ١١٨٢ هـ حصل غلاء شديد . وفي سنة ١١٨٥ هـ زاد النيل زيادة عظيمة . وزاد ايضاً زيادة فاحشة في السنة التي تلتهـا . وفي سنة ١١٩٠ هـ ١٧٧٧ م توفي الشيخ عدلان ود صباحي شيخ خشم البحر وكان بينه وبين الشيخ محمد مودة عظيمة وكان رجلاً نزيهاً عفيفاً صاحب كرم وديانة .

وفيها توفي الوزير « ١ – الشيخ محمـد ابو اللكيلك » وكان له سبعة أولاد وهم رجب وناصر وادريس وعدلان وابراهيم وعـــلي وحسين ولكن لم يكن بينهم مرشد يخلفه فخلفه ابن أخيه « ٢ – الشيخ بادي بن رجب » . فاجتمع الفونج عند الملك اسماعيل يريدون خلعه والتخلص من سطوة الهمج فعلم الشيخ بادي بذلك فعزل الملك اسماعيل ونفاه الى سواكن وولّى بدله :

٢٠ – الملك عدلان الثـاني سنة ١١٩١ : ١٢٠٣ هـ – ١٧٧٨ : ١٧٨٩ م

واستقامت للشيخ بادي الوزارة وعدل في الرعيـــة وقهر جميع خصومه وفاق على عمه الشيخ محمد في الشجاعة والقهر وقوة البطش . وفي ايامه خرج الشكرية عن طاعته فخرج بعساكره من سنار ونزل بحلة رفاعة الشرق وأرسل جيوشه على الشكرية في البطانة فواقعوهم عدة وقائع وقتلوا شيخهم الشيخ أبا علي وأجبروهم على الطاعة ولكنهم بقوا على نوع من الاستقلال الى ان دخلت الحكومة المصرية بلاد السودان فخضعوا لها . وأرسل بادي الشيخ عجيب ود عبد الله وعيساوي والشيخ قنديلاوي الى التـــاكه لمحاربة الحلانقة فحاربوهم فقتـــل الشيخ عجيب وعيساوي ورجع قنديلاوي فاعترضه في الطريق فارس من فرسان الشكرية يسمى عبد الله القطيني وقتله قيل انه ألقاه عن جواده الى الارض ثم جثا على صدره واستل الخنجر ليذبحه فقال له عبد الله لا تحسب ان تحتك بقرة فأحسن الذبح ولا تملىء تلك الخوذة دماً فذبحه كما طلب وكان ذلك سنة ١١٩٣ هـ ١٧٨٠ م .

وفي أثناء إقامة الشيخ بادي في رفاعة عزل الشيخ محمد الأمين من مشيخة قرّي وأرسله الى القربين . وعزل الشيخ محمـــد ود علي شيخ ديار خشم البحر وولى « صباحي ود عدلان » مكانه . وضرب ناصر ابن اخيه الشيخ محمد ابي اللـكيلك ضرباً مبرحاً لذنب أتاه فاستاء اخوته من ذلك جداً وحملوه الى سنار وأخذوا في تهييج الاحزاب المضادة لعمهم وضم كلمتهم لمحـاربته فوافقهم على ذلك الملك عدلان وبعض كبراء الفونج والشيخ محمد الامين شيخ قرّي والشيخ محمد ود علي شيخ ديار خشم البحر المعزولين فجمعوا جيوشهم وساروا لقتاله في رفاعة وكان الشيخ بادي عنـــد سماعه بعزم اولاد اخيه على محاربته لم يهتم للخبر ولكنه لما سمع ان الشيخ محمد الامين شيخ قرّي وافقهم على ذلك قال: « الآن تحققت وقوع محاربة صحيحة » قال ذلك لأن الشيخ محمد الامين كان من الفرسان المعدودين فقام لساعته واجتاز النيل الى الجزيرة وسار نحو سنار فالتقاه جموع أعدائه في الطريق فقاتلهم قتالاً شديداً وصار كلمـا مرّ بفارس

يسأله من انت فيقول له فلان فيتركه ويأبى محاربته حتى قابله الشيخ محمد الامين فسأله من انت فقال « محمد الامين » فضربه بالسيف ثلاث ضربات فلم تؤثر فيه لأن درعه كان حصيناً ولأن ضرب الشيخ بادي كان طائشاً ممزوجاً بالغضب . ثم ان الشيخ الامين ضربه ضربة أثخنته فوقع على الارض مجندلاً فطلب اولاد اخيه ليوصيهم فقال له الشيخ احمد ود علي شيخ خشم البحر المعزول أأنت في قيد الحياة بعد وضربه بالسيف على فمه فقضى عليه وكان ذلك سنة ١١٩٤ هـ ١٧٨٠ م فلما حضر اولاد اخيه وعلموا بضرب الشيخ احمد له وهو على الارض غضبوا ومن ذلك الحين تأسست العداوة بينهم وبين الشيخ احمد وأولاده .

وخلف الشيخ بادي في الوزارة « ٣ – الشيخ رجب » اكبر اولاد اخيه الشيخ محمد ابي اللكيلك فلما استقامت الاحوال بسنار جعل أخاه ابراهيم وكيلاً عنه مع الملك عدلان وتوجه بعساكره الى كردوفان فأقام فيها محاصراً للجبال وفيما هو هناك أشهرَ محمد الامين شيخ قرّي المعزول العداء للهمج فأرسل من كردوفان أخاه ناصر الى الجزيرة ومعه نحو ٧٠٠ فارس لمحاربة الشيخ الامين الذي كان مقيماً بالهلالية شرق النيل الازرق بين رفاعة والكاملين ولم يكن مع الشيخ الامين حين مقابلتهم له إلا ١٦ فارساً من اولاده وعبيده فهزمه ناصر وولى أخاه « بادي بن مسمار » مشيخة قرّي بدله وذلك سنة ١١٩٨ هـ ١٧٨٤ م . وكان أهالي اريجي هم الذين سعوا في تشييخ بادي فأضمر لهم الشيخ الامين السوء فاتفق مع الشكرية وهجم على مدينة اريجي فخربها وشتت شمل أهلها وتركها قاعاً صفصفاً ولم تزل كذلك الى الآن . وكانت مدينة حسنة البنيان كثيرة العمارة ولأهلها تأنق عظيم في تحسين الاطعمة وكان بها مدارس للعلم والقرآن . قيل وقبل خرابها كان فيها رجل يتلو الآية « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

ثم ان الملك عدلان تفكر في ما فعله الهمج في ابيه الملك اسماعيل وجدّه

الملك بادي فلما جاهر الشيخ الامين بعداوة الهمج كتب يدعوه اليه ودعى اليه ايضاً بعض مشايخ البلاد الذين كانوا من حزبه فاتفقت كلمتهم على الفتك بالهمج فقبضوا على ابراهيم وكيل الشيخ رجب الوزير وقتلوه في السوق وأخرج الملك عدلان بنات الشيخ محمد أبي اللكيلك واسترقهن وفرقهن على رؤساء عساكره وذلك سنة ١١٩٩ هـ ١٧٨٥ م . وكان في سنار في ذلك الوقت شاعر مشهور يعرف بالنعسان فأراد الملك قتله بسبب ميله لأولاد أبي اللكيلك ففرّ هارباً الى الشيخ رجب ولما دخل عليه بكى وانتحب وارتجل مراثي محزنة أشار فيها الى قتل ابراهيم واسترقاق بنات محمد فقام الشيخ رجب لساعته الى سنار وكان معه الملك سعد بن الملك ادريس ود الفحل من ملوك الجعلين بشندي الآتي ذكرهم والحاج محمود المجذوب من الأولياء الصالحين اصحاب الكرامات وجد المجاذيب الذين في الدامر قيل وكان في أثناء المسير يقول «يا سنار جاءك النار » وأحياناً يقول « النار أطفأها السيل » . ثم لما قربوا من سنار كان يقول « انا وانت » يعرض بقتله وقتل الشيخ رجب فقابلهم الملك عدلان بجيوشه في مكان يقال له الترس شمالي سنار واقتتلوا قتالاً شديداً قتل فيه الشيخ رجب والحاج محمود وذلك سنة ١٢٠٢ هـ ١٧٨٨ م . وكان للحاج محمود ابن يسمى الفقيه علي فنقله الى حلة الدبة شمالي الحلفاية ودفنه وقبره ظاهر يزار الى اليوم . قيل انه بعد دفنه كان يُسمع الآذان عند قبره كل ليلة لأنه كان مؤذناً في حياته !

وانهزمت عساكر الهمج ولحقوا بعُبُود في وسط الجزيرة وهمُّوا بالتفرق في الجهات فأرسل اليه الفقيه حجازي ابن ابي زيد من ذرية الشيخ ادريس ود الارباب المتقدم ذكره وأمرهم بالثبات وبشرهم بالنصر فاطمأنوا وثبتوا وجعلوا الشيخ ناصر أخا رجب المقتول شيخاً عليهم . فجهز عليه الملك عدلان جيشاً وعقد لواءه للامين رحمه ود كتفاوي ومعه محمد ود خميس ابو ريده ونفر من كبار الفونج وسيرهم لقتاله فالتقاهم بمحل يسمى « انطرحنا » فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل علي اخو الشيخ ناصر وكان فارساً وكثر القتل في عسكر الملك

وانهزموا فغرق بعضهم في البحر وتبعتهم عساكر الشيخ ناصر قتلا حتى أدخلوهم سنار وتأسف الملك لعدم خروجه للحرب بنفسه فمات قهراً . وزحف الشيخ ناصر على سنار وحاصر عساكر الملك حصاراً شديـــداً حتى ضاقت نفوسهم فخرجوا اليه واصطفوا لقتاله ولكنهم انهزموا بلا قتـال ودخل ناصر سنار بعساكره فأفسدوا فيها وذلك سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٩ م ومن ذلـــك الوقت انكسرت شوكة الفونج ولم تقم لهم قائمة بعد . وولى الشيخ ناصر :

٢٠ – الملك أوكل سنة ١٢٠٣ هـ – ١٧٨٩ م فملـك بضعة أشهر ثم هرب ليلاً فولّى ناصر مكانه :

٢١ – الملك طبل سنة ١٢٠٣ هـ – ١٧٨٩ م وكان الشيخ محمد الأمين شيخ قرّي المعزول ومحمد ود خميس ابو ريده المار ذكرهما قد وليا على سنار « الملك رُباط » فذهب ناصر ومعه الملك طبل لقتالهما فالتقوا في الحلفاية وقيل في محل قرب شندي وهنـاك اشتعلت الحرب فقتل الملك طبل وانهزم الشيخ ناصر شر هزيمة فسمّى ملكاً على سنار :

٢٢ – الملك بادي الخامس سنة ١٢٠٣ هـ – ١٧٨٩ م وسار به لاستئناف الحرب ضد الشيخ محمد الامين فقتل الملك بادي والملك رباط معاً فولى ناصر على سنار :

٢٣ – الملك حسب ربه سنة ١٢٠٤ هـ – ١٧٩٠ فمات ايضاً ورجع الشيخ ناصر الى سنار . وفي سنة ١٢٠٥ هـ ١٧٩١ حدث ان الشيخ محمد الامين ود مسمار ضرب الشيخ عبد الله بن عجيب (ابن عمـه) لذنب أتاه فالتجأ الشيخ عبد الله الى محمد خميس ابي ريده وذهبا بمن معهما من الرجال الى الشيخ محمد الامين بحلة بان النقا بين قرّي وشندي فوجدوه في منزله وحده فاحتالوا الى ان صعدوا على سطح البيت وأزالوا سقفه وصاروا يرجمونه بالحجارة من بعيد حتى قتلوه . وتولى المشيخة بعـده « عبد الله ود عجيب » وولى الشيخ ناصر على سنار :

٢٤ – الملك نوّار سنة ١٢٠٤ : ١٢٠٥ هـ – ١٨٩٠ : ١٨٩١ م وكان صاحب شهامة وسطوة فلما ظهرت صفاته للشيخ ناصر قتله وولى مكانه :

٢٥ – الملك بُادي السادس بن طبل سنة ١٢٠٥ : ١٢٣٦هـ - ١٧٩١ : ١٨٢١م

وكان لا يزال فتىً فاستمر ملكه الى الفتح المصري وتقلب عليه عدة وزراء من الهمج اولهم « ٤ – الشيخ ناصر » الذي فيه كلامنا وهو الوزير الرابع .

وفي ايامه توفي الفقيه حجازي في سجنه عطشاً . وتوفي ايضاً الفقيه عبد الرحمن ود ابو زيد العالم العامل الولي الصالح . والعالم الفقيه محمد نور صبر . وقتل جماعة من الحضارمة على يد اخيه حسين .

وفي سنة ١٢١١هـ ١٧٩٧م اجتاز ناصر البحر بعساكره ومعه اخوه عدلان وحارب أبا ريده وقتله ونهب أمواله . واتحد عليه هاشم بن الملك عيساوي وأولاد الشيخ الامين ومعهم فزاره وبنو جرّار ودخلوا الجزيرة فخرج في طلبهم فلحقهم بنواحي سيرو وهناك اصطلحوا ورجعوا الى سنار ما عدا بني جرّار فانهم رجعوا من حيث أتوا بعد ان أكرمهم الشيخ ناصر وخلع على كبرائهم .

وكان في الشرق في هذا العصر اربعة ملوك اشتهروا بالكرم وهم : الشيخ ناصر في سنار والسلطان عبد الرحمن في دارفور ومراد بك في مصر واحمد باشا الجزّار في الشام .

ومما يحكى من نوادر كرم الشيخ ناصر ان رجلاً كان قاصداً الحجاز فدخل عليه يلتمس منه صدقة وكان على مقربة منه إناء مملوء ذهباً فملأ كفيه مريداً ان يبسط الرجل طرف ثوبه ليملأه له فمدّ الرجل يديه فأعطاه ما في كفيه من الذهب ولم يزده .

وكان الشيخ ناصر يحب الألعاب والمطربات فلما راقت له الاحوال فوّض تدبير المملكة الى وزيره الارباب دفع الله بن احمد المشهور بود الزّقلوته من الجعليين واشتغل باللهو والطرب وأعجب بعبيده فاشتدت أيديهم على الظلم ولم يمنعهم لأنهم كانوا عضده . وأمر اخوته وكبراء دولته ان لا يدخل عليه احد

منهم الا بعد الاستئذان من وزيره دفع الله فنفرت نفوسهم منه وخرجوا عن طاعته واجتمعوا في عبود في باطن الجزيرة لمحاربته ووافقهم على ذلك كل من له غرض في إزالة دولة ناصر فلما بلغه خبرهم خرج الى حلة السبيل وأرسل اليهم كبار الفقهاء يترضونهم ثم أرسل اليهم اخوانهم وبنات الشيخ محمد ابي الكليلك فأبوا الا الحرب او يتنازل لهم عن الوزارة فلما يئس من رجوعهم الى الطاعة عاد الى سنار. فخرج اخوته من عبود ونزلوا في حلة البقرة قرب سنار وباتوا على حربه فأخذ ما يحتاج اليه وفرّ الى الجنوب ليلاً مع وزيره دفع الله فنزل في دبركي على الدندر فدخل اخوته سنار وتولى احدهم « ٥ — ادريس » كرسي الوزارة في مكانه .

وبقي ناصر في دبركي زماناً ثم ارتحل شمالاً فاحتمى بالشيخ عبد الله بن عجيب شيخ مشيخة قرّي مدة ثم رحل عنه وأتى الى عبود ولما علم به ادريس خرج من سنار ببعض عساكره ونزل في ابي حراز وارسل لمحاربته أخاه عدلان وعبيده وبعضاً من العساكر ولم يرسل احداً من الهمج ولا من الفونج خشية من الخيانة ولما أدركه عدلان وتراءى العسكران خرج الوزير دفع الله ود ارباب من جيش ناصر ورمى الخودة عن رأسه ودخل في عساكر عدلان طالباً الأمان لنفسه فانهزم ناصر وعساكره فتبعهم عدلان وقبض على ناصر أسيراً وأتى به الى ادريس في ابي حراز فسلمه الى حياص ابن الملك بادي فقتله بثأر ابيه ودفن قريباً من الشيخ دفع الله العركي وكان ذلك في آخر سنة ١٢١٢ هـ وقيل أوائل سنة ١٢١٣ هـ .

اما الشيخ دفع الله العركي المشار اليه فقد كان من رجال الدين الصالحين وهو تلميذ الشيخ ادريس ود الارباب المار ذكره وكان مقيماً في ابي حراز ولم تزل ذريته مقيمة فيها الى اليوم . وكان مقامهم مكرم عند ملوك الفونج كمقام ذرية الشيخ ادريس .

وتفرد « ٥ — الشيخ ادريس » بالوزارة وكان رجلاً مهاباً عادلاً أكره شيء لديه السرقة فتعقب اللصوص في كل مكان وعاقبهم بكل صرامة حتى انه لم

يبقَ سارق ولا لص في كل بلاد سنار. وشدّد الوطأة على العرب الرحّالة فكفى أهل القرى شرهم وكان له من الأعوان عدا اخيه عدلان الارباب القرشي والارباب زين العابدين ود السيد والفقيه عبد الجليل ود عامر والفقيه الأمين ود العشا ولم يفوّض اليهم تدبير مملكته كما فوّض اخوه الشيخ ناصر الى وزيره الارباب دفع الله بل كان يتولى أمور مملكته بنفسه وبذلك استقامت له الاحوال . ثم بدا من الملك بادي ما ساءه فاتفق مع الشيخ كمتور شيخ خشم البحر وعزله وولى مكانه :

٢٧ – الملك رانفي فحكم بضع سنين ثم عاد المُلك الى الملك بادي . وفي أيام رانفي أتى الشيخ عبد الله بن عجيب بما اغضب الشيخ ادريس فجرّد عليه جيوشه وكان العابدلاب قد نقلوا مركز المشيخة من قرّي الى الحلفاية فانتشب القتال في الحلفاية في اول محرم سنة ١٢١٥ هـ ٢٤ مايو ١٨٠١ م فقتل الشيخ عبد الله وانهزمت جيوشه فأمنهم الشيخ ادريس وولى عليهم « الشيخ ناصر الامين » الذي بقي في المشيخة الى الفتح المصري .

وكان الشيخ عبد الله المذكور عادلاً متديناً مولعاً بسماع القرآن محباً للرعية وقد أمر بتقليل مهر النساء فكثر بذلك زواجهن وازداد النسل وأمر أهل السوق بحضور الصلاة في المساجد وقطع دابر اللصوص وأمّن السابلة وكانت مدته ثلاث سنوات .

وأقام الشيخ ادريس في الحلفاية وأرسل أخاه عدلان بجانب من العساكر الى شندي كرسي مملكة الجعليين وكان ملكها الملك سعد قد توفي فلما وصل عدلان الى حلة بان النقا كتب الى الملك محمد ود نمر يعده قصد مخادعته بأن يقره ملكاً على الجعليين فاغتر بوعده وحضره اليه مع نفر من اهله وابنه ادريس وكان اذ ذاك فتى وأما أخواه الملك نمر والملك سعد فقد أبيا الحضور لأنهما لم يصدقاه فلما وصل الملك محمد ومن معه أمر عدلان بسجنهم وغلّهم فمات الملك محمد من ثقل الاغلال وأما ابنه ادريس فقد افتدته أمه بثلثماية أوقية من

الذهب . ثم ان عدلان حاصر الملك نمر وضيّق عليه فلما جنّ الليل فرّ بمن معه فولى المساعد ملكاً على شندي ورجع بالاسارى الى اخيه الشيخ ادريس في الحلفاية فعادا معاً الى سنار وهناك ضربت رقاب اولاد الملك نمر. قيل كان الواحد منهم يأخذ رأسه بين يديه حتى اذا قطع جذبه الى عبّه لئلا يسقط الى الارض فيندلع لسانه .

وفي سنة ١٢١٦ هـ ١٨٠٢ م انتشب قتال عرف بقتال العواليب بين الملك نمر والملك مساعد الذي ولاّه عدلان فانتصر الملك نمر وأخرج المساعد من شندي ولما كان المساعد لا يزال قوياً سعى رؤساه الجعليين بالصلح بينهما فتصالحا على ان يكون نمر ملكاً في شندي والمساعد ملكاً في المتمة تجاهها وبقيا كذلك الى الفتح المصري .

وفي تلك السنة أي سنة ١٢١٦ هـ توجه عدلان أخ الوزير ادريس الى جهة الغرب وقاتل الملك عيساوي فانتصر عليه وأتى به اسيراً الى سنار فمات فيها.

وفي سنة ١٢١٧ هـ ١٨٠٣ م حصلت حرب بين البطاحين والشكرية فقتل الشيخ عوض الكريم ابو سن شيخ الشكرية . وفي النصف الأخير من جمادى الثانية سنة ١٢١٨ هـ اوائل اكتوبر ١٨٠٤ م توفي الشيخ ادريس وتولى الوزارة اخوه « ٦ – عدلان » فاشتغل بالملاهي والملذات وأهمل امور المملكة وكان محمد بن اخيه رجب صاحب دهاء وتدبير فاتفق مع الفونج والشيخ كمتور شيخ خشم البحر والملك رانفي على الفتك بعدلان . وكان في حلة الكُبر جنوبي سنار رجل شديد البأس يسمى محمد ود ناصر المشهور بأبي ريش وهو من خاصة رجال عدلان فاتفق مع المتآمرين على الفتك به وسبب ذلك ان عدلان سم أخاه علياً فمات فاجتمع المتآمرون بسنار وكان الشيخ عدلان ليلة اتفاقهم عريساً على بنت خارج سنار فقصده ابو ريش مع جماعة من رجاله ليلاً . قيل وكان عنده رجل عاقل علم بالمكيدة فأنشد للشيخ عدلان هذين البيتين :

يا راقد الليل مسروراً بأوّله انالمكاره قد يطرقن اسحارا
لا تفرحنّ بليلٍ طاب أوّله فربّ آخر ليلٍ أجّج النارا

فما شعر عدلان إلا والأعداء قد أطبقوا عليه من كل جانب فأسرع الى جواده فامتطاه وفرّ هارباً نحو سنار فرماه أحدهم بحربة أدمته ولكنه لم يزل مجداً على جواده حتى دخل سنار فوقع على الارض ميتاً وكان ذلك في ١٦ رمضان ١٢١٨ هـ ٢٩ ديسمبر ١٨٠٤ م . وفي هذه السنة توفي العالم الربّاني الفقيه علي بقادي المشهور .

وتولى الوزارة بعد عدلان «٧ — محمد ابن اخيه رجب» المتقدم الذكر لكن بقيت الكلمة لمحمد ابي ريش . ولم يمضِ شهر رمضان حتى وقع الخلاف بين الشيخ كمتور نصير الملك وبين محمد ابي ريش نصير الوزير فأدّى الخلاف الى القتال وكان مقدم رجال ابي ريش فارساً مشهوراً يسمى فاما فبرز الى الكماتير فابتدره الشيخ كمتور بضربة سيف أطاحت رأسه وانهزم ابو ريش مصاباً بجرح بليغ في يده فنزل في حلة الكبر ووقع محمد ود رجب الوزير أسيراً في يد الشيخ كمتور فأودعه السجن وأراد الشيخ كمتور ان يخرج من سنار ويتحصن من ابي ريش فلم يوافقه رجاله على ذلك بل أقاموا في سنار وأطلقوا أيديهم في سلب أموال الناس. فلما شفيت جراح ابي ريش جمع عساكره ونزل بطيبة حلة ولد قندلاوي وأقام بها يتأهب لقتال الشيخ كمتور الى ان انقضت سنة ١٢١٨هـ فتوسط العلماء والأعيان في الصلح بينهما على ان الشيخ كمتور يرد جميع ما سلبه ويطلق سبيل الوزير فأظهر ابو الريش الرضى بذلك وأضمر الغدر فلما رد الشيخ كمتور ما سلبه وأطلق سبيل الوزير ود رجب زحف ابو ريش برجاله عليه فالتقاه في أم صوَيبينه قرب سنار وانتشب بينهما قتال شديد قتل فيه ١٢ أخاً للشيخ كمتور وجماعة من كبار الفونج وانهزم الملك رانفي فدخل قصره واجتاز الشيخ كمتور النيل الى بلاده . وكان تاريخ هذه الواقعة محرم

سنة ١٢١٩ هـ ابريل ١٨٠٥ م وقد دهبت في السودان مثلاً للتحذير من الخداع فمن أمثالهم : « يبين لك اللي بان للكماتير في أم صويبينه » .

عود الى ٢٦ — الملك بادي ثم ان محمداً أبا ريش دخل سنار فقتل رانفي وأعاد الملك بادي بن طبل المعزول الى منصبه وفي سنة ١٢٢٠ هـ ١٨٠٦ م لحق بالشيخ كمتور الذي كان قد جاء الى ام درمان فتوسط اهلها والناس الصالحون في الصلح حقناً للدماء فقبلا وساطتهم وعاد الشيخ كمتور الى مركزه في رنقه . ونزل محمد ود رجب في ود مدني وابو ريش في كساب بين رنقه وسنار .

وفي سنة ١٢٢١ هـ ١٨٠٧ م وقع الخلاف بين محمد ابي ريش ومحمد رجب فتقاتلا في مكان يدعى المهراية فانهزم محمد رجب الى العيلفون والتجأ الى اولاد الشيخ ادريس وأخذ يراسل الشيخ كمتور والشنابلة مشائخ ود مدني واولاد سليمان السعداب ملوك شندي فاجتمعوا على محاربة ابي ريش وجعلوا عليهم ملكاً يسمى « عجبان » من بقية ملوك الفونج وجاءوا الى عبود متهيئين للقتال كل ذلك وابو ريش لاهٍ عنهم الى ان أتاه هادم اللذات في نصف تلك السنة فتوفي مع أخ له في ليلة واحدة وترك ابناً صغيراً دون البلوغ فوقع عساكره في حيرة ودهشة . وطمع عبيد الوزير عدلان المقتول في تولية ابنه محمد فحاربهم عبيد ابي ريش وأخذوا محمد بن عدلان اسيراً وهزموهم فانضموا الى محمد رجب وخلفائه في عبود وساروا كلهم لقتال عبيد ابي ريش في طيبة فاقتتلوا قتالاً شديداً كان النصر فيه لعبيد ابي ريش والهزيمة لمحمد رجب والشيخ كمتور فالتجأ الاول الى اولاد الشيخ ادريس في العيلفون والثاني الى العراكيين في ابي حراز فرجع عبيد ابي ريش عنهم لاحترام مقام اولاد الشيخ ادريس والعراكيين كما مرّ وأقاموا في كساب فجعلوا تيغره ود أبي ريش رئيساً عليهم في مكان ابيه وكان معهم محمد ود ابرهيم بن محمد ابو اللكيلك فلم يرق له تعيين تيغره رئيساً فانفصل عنهم واتحد مع قزاره وتقدم بهم الى الخرطوم فنهبوا ما أرادوا وقتلوا ابرهيم بن الفقيه محمد علي خليفة الفقيه أرباب ونزلوا في عبود . أما

الفقيه أرباب المشار اليـه فهو غير أرباب والد الشيخ ادريس ويعرف بأرباب العقائد لأنه ألف كتاباً في عقائد التوحيدوله ضريح يزار في البشاقرة في جنوبي ألتي في باطن الجزيرة .

وبقي عبيد ابي ريش وعليهم تيغره بكساب يعيثون في البلاد والحـــل والعقد فيأيديهم مدة ثمانية اشهر أسروا في خلالها اولاد رجب وكان محمد ولد ابراهيم لا ينفك عن حشد الرجـــال في عبود حتى قويت كلمته فزحف على كساب فقتـل عبيد أبي ريش وأسر تيغره فأبقي عليه لأنه كان أديباً عاقلاً ولما انتظم له الامر قام في طيبة حلة قندلاوي مدة ثم انتقـــل منها الى حلة ام ضريبه .

وفي أثناء ذلك خرج « محمد رجب » من العيلفون على عربان الفادنيـة في البطانة فنهب أموالهم فأتاه العراكيون وأخبروه بأن هـــذه الاموال أموالهم فردها لهم فلم يكتفوا بذلك بل أغلظوا له في الكلام حتى أحرجوه الى القتال فقاتلوه وهزموه فاستنجد بالشيخ كمتور فلم ينجده بل قبض عليه وأرسله الى محمد ود ابراهيم فأرسله الى محمد ود عدلان في حلة برقو فقتله اخذاً بثأر أبيه وهكذا كانت نهاية « محمد رجب » سابع وزراء الهمج .

ثم أخذ محمد ود عدلان يسعى سراً في محاربة محمد ود ابراهيم وتولي الوزارة مكانه فلما نمي الخبر الى محمد ود ابراهيم بعث في طلب محمد ود عدلان الى حلة ولد بهاء الدين فحضر فأدخله في خلوة بهاء الدين وأخذ في توبيخه وشتمه بأفظع الألفاظ ومحمد عدلان يعتـذر ويتلطف له في الرد وهو لا يقبل عذراً ثم أمر بذبحه فسمع بذلك بعض انصار ود عدلان الواقفين خارج الخلوة فنادوا محمداً ابراهيم يطلبون اليه اطلاق سبيل محمد عدلان وإلا أشعلوا النار في الخلوة فأخلى سبيله فخرج وهو مهلوع الفؤاد فالتفت اليه احد عبيده المسمى ابا سليمة ودله على جواد محمد ود ابراهيم الذي كان مسرجاً بجانبه وقال له: « ما هذه الدهشة التي اعترتك فذهبت بك اركب هذا الجواد وحكّم السيف في رقاب هؤلاء

الكلاب الذين أرادوا قتلك » فتحمس ود عدلان من كلام عبده وركب الجواد واستل السيف فاجتمع عليه « عبيد ناصر » فاشتد ظهره وأخرج ابراهيم من الخلوة عنوة فقبض عليه وأخذه الى سنار فحبسه مدة في حوش عمته مهيرة ثم قتله . وكان ذلك في آخر جمادى الاخرى سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٩ م . ومن ذلك الوقت انتظم الامر « لمحمد عدلان » فكان الوزير الثامن والاخير من وزراء الهمج وقد قبض على جميع أعدائه في البلاد فقتلهم وفي جملتهم اولاد رجب ولم يترك منهم سوى حسن ولما استتب له الامر وخلا باله من المتاعب انتقل الى ود مدني فأقام فيها مدة .

وفي ايامه سنة ١٢٢٤ هـ ١٨١٠ م انتشرت الحمى الصفراء المعروفة عندهم بالكك فمات فيها خلق كثير . وممن مات بها العالم الفاضل محمد نورين الفقيه ضيف الله بالحلفاية وهو صاحب كتاب طبقات الأولياء بالسودان وقد رثاه الشيخ ابراهيم عبد الدافع المفتي صاحب تاريخ سنار بأبيات منها :

دع العين تبكي دهرها بتوجُّد على غيض بحر كان بالعلم مزبدا
هو الحبر نجل الحبر ضيف الهنا لقد حاز فخراً في الأنام وسؤددا

وفي أواخر سنة ١٢٢٥ هـ ١٨١١ م فعل « الشيخ ناصر ود الامين » شيخ الحلفاية ما أغضب محمد ود عدلان فسافر ومعه الملك بادي لمحاربته ففرّ من وجهه الى شندي فأقام محمد عدلان بالحلفاية مدة ثم عاد الى سنار بدون حرب وعاد ود الامين الى الحلفاية .

وفي سنة ١٢٢٦ هـ ١٨١٢ م نشب قتال بين السعداب والجميعاب قتل فيه الارباب باب النقا وكان رجلاً شجاعاً عفيفاً نقياً وقتل معه جماعة من بني عمه وانتصر الجميعاب وقويت شوكتهم فارتفعت رؤوسهم على ملوك الجموعية وأولاد عجيب مشايخ الحلفاية وأنشد بعض شعرائهم يقول :

« يا جمل وقعت عليكم قضية. وفي ادريس ود سعد وبان النقا أب عرضية. وفي حدبة السيال رقدت عيال مشريّة » وكلهم من السعداب .

وفي سنة ١٢٢٧ هـ ١٨١٣ م توجه ود عدلان لجمع الجزية من عربان رفاعة بنواحي جبل مويه فجمع الجزية وهرب منهم اللبيح فأرسل خلفه العبـــاس فأدركوه وقتلوا بعضاً من جماعته ونهبوا منهم أموالاً كثيرة. وفي سنة ١٢٢٨هـ انتقل الى الطرفاية فجاءه الشيخ خليفه ومعه رجل يلقب بالافندي . وفي هذه السنة ظهر نجم ذو ذنب وحصل غلاء شديد فسميت سنة حيص .

وفي سنة ١٢٢٩ هـ ١٨١٤ م خرج الملك بادي من سنار واتفق مع الكماتير على محاربة ود عدلان وكان ود عدلان اذ ذاك مقيماً في عبود يتأهب للزحف على الشيخ ناصر ولد الامين فلما بلغه خروج الملك بادي عليه رجع عن عزمه وأقام بجزيرة ام راكوبه وأقـام الملك والكماتير بحلة الكبر فحاصرهم فيها ثم اصطلحوا وعاد الملك بادي الى سنار . وفي هذه السنة توفي الورع الحاج دفع الله ود ضيف الله بالحلفاية .

وفي سنة ١٢٣٠ هـ ١٨١٥ م توفي الفاضل الشيخ حسن بن الشيخ عبد الرحمن ود بان النقا وكان عنده خزانة كتب ضاعت كلها في فتنة الملك نمر بعد الفتوح المصري .

وفي سنة ١٢٣١ هـ ١٨١٦ م زحف ود عدلان بعساكره على الحلفاية لقتال « الشيخ ناصر ود عجيب » ففرّ الشيخ ناصر الى شندي وأقام بها الى ان رجع ودعدلان الى سنار فعاد الى الحلفاية وبقي فيها الى الفتوح المصري كما سيجيء.

وفي سنة ١٢٣٢ هـ ١٨١٧ م حضر الى سنار الشريف السيد محمد عثمان المرغني مؤسس الطريقـة المرغنية في السودان وقابل حكامها ودعا النـاس الى اخذ الطريق فلم يأخذها عنه إلا القليل. وأرسل حكام سنار الى الفقيه ابراهيم ابن بقادي ليناظر السيد المذكور ويختبره فمرض حال وصوله الى سنار وتوفي

فيها قبـــل ان يجتمع به ثم خرج السيد المرغني من سنار وكان عمره اذ ذاك ٢٥ سنة .

وفي آخر سنة ١٢٣٣ هـ ١٨١٨ م زاد النيل زيادة عظيمة حتى هدم حلة البشاقرة شرق سنار وعرف ذلك النيل بنيل ود ابي سن لأن احمـد ود الشيخ عوض الكريم ابي سن قتل في تلـك السنة قتله البطاحين وانحازوا الى الملك نمر فجمع الشكرية رجالهم بقيادة محمـد ابي سن وقصدوا محاربة البطاحين والملك نمر معاً فتوسط العلماء ومشايخ السجاجيد بينهم ومنعوهم من المحاربـة فرجعوا الى بلادهم .

وسنة ١٢٣٤ هـ ١٨١٩ م قتل الارباب محمد دفع الله ود سليمان غيلة قيـل كان قتله بدسيسة من محمد ود عدلان ليتزوج بزوجته لأنها كانت بارعة في الجمال.

وفي سنة ١٢٣٥هـ ١٨٢٠ م ارسل الشيخ محمد كمتور عساكره لقتال التكارنة الذين في القلابات على حـدود الحبشة وبقي في قلة من العساكر فاغتنم محمد ود عدلان الفرصة فسار اليه وقتله اخذاً بثأر ابيه وكان الشيخ كمتور حليماً بعيد الغضب لا يتكلم بالسفه ولا يشتم احداً واذا اشتد غضبه يلعن الشيطان وقتل معه العالم المحقق الشهير الفقيه احمد بن الطيب عبد السلام ونهبت كتبه النفيسة ورجع ود عدلان الى سنار فرحاً مسروراً بأخذ ثأره لأنـه قتل كل من سعى بقتل ابيه . ثم ان الكماتير جعلوا عليهم « ضراراً » اخا محمد كمتور شيخاً وزحفوا لمحاربة محمد ود عدلان اخذاً للثأر فوجدوه متغيباً عند عرب البادية بالرارابة جنوبي سنار فلحقوا به ولم يكن له علم بهم فدهموه ليلاً على حين غفلة في منزله فتصدى لهم نفر من العساكر الملازمة لركابه وقاتلوهم قتالاً شديداً الى ان قتل رئيسهم تيغره ففروا هاربين وأما ود عدلان فانـه لما شاهد ما حل بقومه ثغر حائط منزله وفرّ هارباً هو ونساؤه ومعه الهادي ود عجيب . ثم ان الشيخ ضراراً لمـا رأى شدة بأس عساكر ود عدلان فر هارباً بجريدة من الفرسان ولم يبق من الفئتين إلا القليل فلما اصبح الصباح وتراءى الجمعان قـام

بقية عساكر ود عدلان على بقيـــة عساكر الكماتير فهزموهم وقتلوا رؤوسهم وأرسلوا البشرى بالنصر الى محمد ود عدلان فلم يحفل بها لأنه خجل من انهزامه فقال له الارباب دفع الله وهو احـد المتخلفين الذين أتوا بالنصر : « لم يكن قتال يا مولاي غير الذي كان بحضورك ولم ينهزم الأعداء إلا بهيبتك » فزال عنه الغم وعاد بالعساكر الى سنار . وبقي فيهـا مع الملك بادي ملك الفونج الى ان قدم اسماعيل باشا فاتحاً لسنار على ما سيجيء في الفتوح المصري .

هذا ما كان من تاريخ ملوك الفونج نقلاً عن عبد الدافع والزبير ودضوّه ولكن يظهر ان ودضوه اختصر تاريخ عبدالدافع وأضاف اليه بعض الحواشي. ثم ان الموسيو كايو السائح الفرنساوي الشهير الذي رافق حملة اسماعيل باشا لفتح سنار جاء في تاريخه على سلسلة ملوك الفونج قال انـه اخذها عن اهلها وعلق عليهـا بعض الحواشي فخالف فيها عبد الدافع في بعض المواضع وأشهر ما خالفه فيه :

اولاً : ان الفونج هم طائفة من الزنج جاءوا بلاد سنار من غرب النيـل الابيض ولا نسب لهم ببني أمية كما ذكر عبد الدافع .

ثانياً : ان الفونج أتوا اولاً الى أريجي وكانت مدينة عامرة وعليها ملك من أهلها فتصدى لهم ملكها وناجزها الحرب فحدثت واقعـة عظيمة كان النصر فيها لهم فقتلوا الملك **وخربوا** اريجي وملكوا البلاد واستقلوا بهـا لا كما قال عبد الدافع من ان اريجي خربت في ايام « ٢٠ — الملك عدلان الثاني » .

ثالثاً : ان **بداية** ملوك الفونج هي سنة ٨٩٠ هـ لا سنة ٩١٠ كما ذكر عبد الدافع .

رابعاً : ان ملوك الفونج هم ٢٨ ملكاً لا ٢٧ كما جعلهم عبد الدافع والزبير ود ضوّه وقد خالفهما كايُو ايضاً في ترتيب سلسلة الملوك ومدد ملكهم .

وهذه هي سلسلة ملوك الفونج ومدد ملكهم حسب رواية كلٍّ من عبـد الدافع وكايو مع ذكر الحواشي التي علقها عليها الموسيو كايو :

سلسلة ملوك الفونج

حسب رواية الشيخ عبدالدافع		حسب رواية الموسيو كايو		
أسماء الملوك بداية ملكهم سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥ م	مدة ملكهم	أسماء الملوك بداية ملكهم سنة ٨٩٠ هـ ١٤٨٦ م	مدة ملكهم	حواشي كايو
١ عماره دنقس	٣٠	١ عماره دنقس	٤٢	
٢ عبد القادر ابنه	١٠	٢ نايل	١٢	
٣ نايل اخوه	١٢	٣ عبد القادر	١٠	
٤ عماره ابو سكاكين اخوه	٨	٤ عماره الثاني اخوه	٨	الملقب بأبي سكاكين
٥ دكين بن نايل	١٥	٥ دكين صاحب العادة	١٧	
٦ طبل الاول	١٢	٦ ضرار ابنه	٨	
٧ انسه الاول	١٠	٧ طبل بن عبد القادر	٤	قتله اولاد ملك شندي
٨ عبد القادر الثاني	٦	٨ انسه ابنه	١٢	امه بنت عجيب
٩ عدلان بن ابه	٧	٩ عبد القادر الثاني	٣	طرد من الملك
١٠ بادي سيد القوم	٣	١٠ عدلان اخوه	٤	قتله الشيخ عجيب
١١ رباط ابنه	٢٩	١١ بادي ابو رباط	٧	
١٢ بادي ابو ذقن	٣٦	١٢ رباط ابنه	٢٧	
١٣ انسه الثاني ابن اخيه	١٢	١٣ بادي الثاني ابو ذقن	٣٧	مد ملكه الى فازوغلي
١٤ بادي الاحمر ابنه	٢٧	١٤ انسه الثاني بن ناصر	١٢	لم يعد راحة للفونج بعده
١٥ انسه الثالث	٣	١٥ بادي الثالث الاحمر ابنه	٢٧	
١٦ نول	٦	١٦ انسه الثالث ابنه	٣	مات في سنار بالجدري
١٧ بادي ابو شلوخ	٣٩	١٧ نول	٤	
١٨ ناصر	٧	١٨ بادي الرابع ابنه	٤٠	مات في سواكن
١٩ اسماعيل اخوه	٩	١٩ ناصر ابنه	٨	قتله بادي في البقرة
٢٠ عدلان الثاني	١٢	٢٠ اسماعيل اخوه	٧	مات في سواكن
٢١ اوكل		٢١ عدلان الثاني	١٢	
٢٢ طبل الثاني		٢٢ رباط ابنه	٣٠	قتله ناصر في سنار
٢٣ بادي الخامس		٢٣ اوكل بن انسه	١	قتله ناصر في الدامر
٢٤ حسب ربه	١	٢٤ طبل	٢	قتله اولاد عجيب
٢٥ نوار	١	٢٥ بادي الخامس بن دكين	١	
٢٦ بادي بن طبل (مدته الاولى)		٢٦ نوار	١	قتله عدلان في سنار
٢٧ رانفي		٢٧ بادي السادس بن طبل	٦	مدته الاولى
٢٦ بادي بن طبل (مدته الثانية)	٣١	٢٨ رانفي	٥	قتله محمد رجب في سنار
		٢٧ بادي السادس بن طبل	١٦	مدته الثانية نهايتها
مجموع ملكهم	٣٢٦		؟	١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م

قيل وكان ملوك سنار يجهزون في أيام عزهم جيشاً لا يقل عن ٢٥ ألف مقاتل مسلحين بالحراب والسيوف والدرق وفيهم من اربعة آلاف الى خمسة آلاف فارس من العبيد والفونج وكانوا يقيمون في بلاد البرون الى الجنوب ولهم ثلث الغنائم التي يغنمونها من فازوغلي وجنوبيها . ولكن لما جاءهم اسماعيل باشا فاتحاً لم يجد في سنار من الفرسان إلا نفراً قليلاً لان الفونج كانوا قد فقدوا عزهم من زمان .

وقد اشتهرت سنار بالثروة والغنى وكان التجار يأتونها بالبضائع من مصر والحجاز والهند عن طريق النيل والبحر الاحمر وكان يرد اليها من دنقلة التمر، ومن كردوفان التبر والحديد والمبيد، ومن فازوغلي والصعيد الذهب والعسل والجلود والنعال والسياط والريش والسمسم ، ومن سوق رأس الفيل من بلاد الحبشة على اربعة ايام من سنار الذهب والخيل والعبيد والبن والزباد والعسل وأساور العاج وغيرها من حلي النساء .

وكان أهم صادراتها التجارية الذهب والعبيد وسن الفيل والخرتيت والزباد والعسل والسياط والابنوس والجلود والقصاع والنعال والابل. وكانوا يتعاملون بقطع من الدمور على نحو ما هو جارٍ اليوم في دار ودّاي .

وكان اهم صناعها الصاغة لصياغة الشفتشي المعروف في مصر بالسناري والحاكة لحياكة الدمور وغيره من المنسوجات القطنية . وأهم ما اشتهر به ملوك سنار الكرم وكان الشعراء والمداح يقصدونهم من كل فج لمدحهم واستدرار جودهم قيل انهم لم يردوا سائلاً لا سيما اذا جاءهم من بلاد بعيدة وكانوا يعطون الذهب بالمكيال والرقيق بالجنزير أي بالجماعات لأن الارقاء في اثناء السير تُربط كل جماعة منهم بجنزير .

وكان ملوكها يجمعون الزكاة والفطرة والعشور على نحو ما يفرضه الشرع الاسلامي وكثير من أهالي الجزيرة الآن يملكون الارض بحجج من ايام الفونج.

قيل وكانت اختامهم اكبر اختـام ملوك السودان قاطبة وهي مستديرة الشكل ومنقوشة سطوراً بـين كل سطر وسطر خط تقرأ هكذا : « ومن تكن برسول الله نصرته ، ان تلقه الاسد في آجامها تجمِ ، ملك ملوك السودان » والعبـارة الاخيرة تشير الى كثرة الممالك والمشيخات التي خضعت لسلطانهم اولها :

الفصل الثاني

في

مشيخة العابدلاّب

العابدلاب هم ذرّية الشيخ عبد الله جماع الذي تقدم انه اقتسم المملكة مع الفونج وقد اتخـذ مركزه قرّي فعرفت كرسيه بمشيخة قري ثم انتقلت الى الحلفاية فعرفت بمشيخة الحلفاية . اما المشيخة نفسها فقـــد امتدت من حجر العسل الى سوبه ولكن كان لها السيادة على جميع البلاد من اربجي الى الشلال الثالث كما مرّ . وقد تقدم لنـا في تاريخ الفونج ذكر اشهر مشايخ العابدلاب نقلاً عن عبد الدافع وذكر كايّو سلسلة للعابدلاب أتى فيهـا على البعض الذين لم يذكرهم عبـــد الدافع وفاته ذكر البعض الآخر فكان من مجموع سلسلتيهما ما يأتي :

١ — عبدالله جماع : مؤسس المشيخة الذي دام حكمه الى ايام الملك عمارة رابع ملوك الفونج وخلفه ابنه :

٢ — الشيخ عجيب : الملقب بالمانجلوك أي مـــا نجلٌ إلاك ومنه لقب « مانجل » الذي يخاطب به شيوخ العابدلاب الى اليوم . وقد عرف العابدلاب بأولاد عجيب ايضاً نسبة اليه. وكان رجلاً صالحاً ديّناً وقد حجّ الى بيت الله

الحرام . قيل وهو الذي بنى بالمدينة المنازل المعروفة برواق السناريين بنـاها بإذن السلطنة العثمانية فجعلها وقفاً للحجاج من اهل سنار وهي لا تزال مأوى حجاج السودان الى هذا العهد .

٣ – العجيل .

٤ – حمد السميح .

٥ – عثمان ابنه .

٦ – عبد الله الثاني ابن العجيل .

٧ – مسمار بن عبد الله .

٨ – دياب – ارادب ود عجيب : الذي قتله «١٤ – الملك بادي الاحمر» .

٩ – الامين ود مسمار: الذي عاش في ايام «١٧– الملك بادي ابي شلوخ» .

١٠ – عجيب بن عبدالله .

١١ – عبد الله الثالث ود عجيب : الذي قتل في حرب المسبعات في ايام « ١٧ – الملك بادي ابي شلوخ » .

١٢ – عمر أخو عجيب .

١٣ – محمد الامين بن مسمار : الذي عزله الشيخ ناصر في ايام «٢٠ – الملك عدلان الثاني وولّى مكانه أخاه :

١٤ – بادي بن مسمار .

١٥ – عبد الله الرابع ود عجيب : الذي قتـــله الشيخ ادريس في ايام « ٢٦ – الملك بادي » سنة ١٢١٥ هـ .

١٦ – ناصر ود الامين: الذي ذهب الوزير محمد عدلان لقتاله سنة ١٢٢٥هـ .

١٧ – أمين الثاني ابن ناصر .

١٨ – ناصر ود عجيب : الذي عزله اسماعيل باشا في مايو سنة ١٨٢١م.

وقد كان للعابدلاب المقام الاول عند ملوك الفونج كما تقدم وكانوا اذا أراد احدهم الدخول على ملك الفونج يستأذنه اولاً في ذلك فاذا أذن له تمنطق بثوبه ورمى سلاحه عند الباب ودخل عليه وقال انا فلان فيعيد الملك اسمه ثم يقول الشيخ مخـــاطباً الملك « طويل العمر » وهو لقب ملوك الفونج فيقف الملك ويأخذ يده ويقول : « مرحباً بالبان بإيده تنين سيده » أي مرحبـاً بالذي بان بفعـل يده او بسيفه فهو ثانٍ لسيده ثم يأمره الملك بالجلوس فيجلس في الارض . وهكذا كان يتأدب لهم المشائخ والملوك الذين هم دونهم لكن اللقب الذي كانوا يخاطبونهم به هو « مانجل » وكان اذا زار احـــدهم فقيه او عالم يدخل عليه باسطاً يديه للدعاء فيقول الفاتحة ثم يتقدم ويقبل يد الشيخ ويرجع القهقرى فيأمره الشيخ بالجلوس فيجلس على فراش فوق الارض احتراماً للدين. وكان النساء اذا التقينَ بأحد مشايخ العابدلاب في الطريق كشفنَ عن رؤوسهن وخلعنَ نعالهنَّ الى ان ينصرف .

وكانوا اذا توفي شيخهم اختاروا شيخاً آخر وأخذوه الى ملك سنار فيؤيده لهم كما كان مشايخ العـابدلاب يؤيدون المشايخ والملوك الذين هم دونهم وتحت سيادتهم وذلك انه كان اذا مات لهؤلاء ملك اجتمع اهل قبيلته واختـــاروا لهم ملكاً يولونـه عليهم وأتوا بـه الى الشيخ فيحلق الشيخ له رأسه ويلبسه « طاقية » ذات قرنين محشوة قطناً ويجلسه على كرسي « بالككر» ثم يخاطبه بلقب مك أي ملك ويقول له « مبارك عليك » فيقبـل الملك يده ويدعو له بخير فيأمر الشيخ بضرب النحاس اشهاراً لتأييده ملكاً على اهله وعند ذلـك يتقدم اهله فيسلمون عليه بالاحترام الذي سلم بـه على الشيخ ويخاطبونه بلقب «ارباب» ثم يقولون «جعلك الله مباركاً علينا ولتعمر البلاد بك وتكثر الخيرات على يدك » فيقول لهم « الله يعمركم ويخليكم انا بـكم مش بلاكم » ثم يعود الى

قومه بالطاقيــة والككر اللذين أنعم بهما الشيخ عليه حتى اذا ما خرج للحكم لبس الطاقية وجلس على الككر وبذلك يقال للقوم الذين يرأسهم ملك بأنهم « اهل ككر وطاقية » .

هذا ولم يكن ناموس الوراثة للأكبر متبعاً على اضطواد في مملكة سنار بل كان الفونج يولون على القبائل من كان اكثر موافقة لسلطانهم وأقــدر على جمع الزكاة وتقديم الهبات .

الفصل الثالث

في

الممالك والمشيخات التي خضعت رأساً لملوك الفونج

مشيخة خشم البحر: قامت على شرق النيل الازرق بين رنقه والرصيرص ومركزها رنقه وقد عرفت ببلاد خشم البحر او فم البحر لأن بحر النيـــل لا يصلح للسفر منها جنوباً بسبب شلال الرصيرص. قيل ولمشايخها نسبة من جهة الرحم مع الفونج وهم في الأصل قواسمة. وقد مرّ بنا ذكر اربعـــة منهم في تاريخ الفونج وهم :

١ — احمد ود علي وهو جـــد مشايخ خشم البحر ولذلك يعرفون ايضاً بأولاد احمد كما عرف الهمج بأولاد محمد.

٢ — صباحي ود عدلان وكلاهما عاشا في ايام ٢٠ — الملك عدلان الثاني.

٣ — الشيخ محمد كمتور وقد سميت هذه المشيخة ايضاً بالكماتير نسبة اليه.

٤ — الشيخ ضرار اخوه وهو الذي قتله محمد عدلان آخر وزراء الهمج.

مملكة فازوغلي: قامت في جنوبي مشيخة خشم البحر وامتدت من الرصيرص الى فداسي وعاصمتها فازوغلي. قال كايو : « كان طولها ٣٠ غلوة ومن بلادها

المشهورة بلدة فداسي على نهر يابوس من فروع النيل الازرق يأتيها من الحبشة الخيل والحديد والسكاكين والفؤوس والفهود والعسل والبهارات ويأتيها من دار البرتات التبر . ودين أهلها الاسلام ولغتهم العربيـة إلا انه كان يسكن بينهم الكثير من سكان دار البرتات وعبدة الاوثان وقـد تولى هذه المملكة عائلة من سلالة الفونج وكان لباسهم كلباس ملوك الفونج وما كان يركب الخيل إلا هم . وهذه هي سلسلة ملوكها كما أخذتها عن ملكها الاخير الملك حسن عند تسليمه لاسماعيل باشا يناير سنة ١٨٢٢ » :

سلسلة ملوك فازوغلي

أسماء الملوك	مدة ملكهم	أسماء الملوك	مدة ملكهم	حواشي كايو
١ كلاّح	٥٠	١٠ ادرلا	١٥	
٢ يمني	٤٠	١١ مطر ابنه	١٦	
٣ ادريس ابنه	٣٠	١٢ فنقرو ابنه	١٦	
٤ جابر	١٥	١٣ قلبوس ابنه	١	قتله أخوه
٥ جابر الثاني ابنه	٢	١٤ قمبو أخوه	٢	
٦ زنقر ؟	١	١٥ قمبار	٥	
٧ رويا	٢	١٦ اموشت أخوه	١	قتله عدلان
٨ امبدي ابنه	٤	١٧ حسن بن مطر	١٢	عزله اسماعيل
٩ اتورو بن جابر الثاني	٣	مجموع ملكهم	٢١٥	

مشيخة الحمدة : قامت على الدندر شرق مشيخة الكماتير ومركزها دبركي على الدندر وكان مشايخها يخاطبون بلفظ « مانجل » كمشايخ العابدلاب .

مملكة بني عامر : قامت في الصحراء الشرقية بين البحر الاحمر وخور بركة شرقاً وغرباً وبين عقيق على البحر الاحمر وبلاد الحبشة شمالاً وجنوباً . وهي مؤلفة من اربع قبائل مختلفـة وهي : البجة والخاس وبنو عامر والنابتاب .

قيل ان بني عامر جاؤوا من الحجاز فملكوا البجة والخاس ثم جـاء النابتاب اولاد نابت من الجعليين وملكوهم جميعاً فاتخذوا شياخة القبيلة ثم أعطاهم ملك سنار ككر وطاقية فسموا ملوكاً ولغتهم العربية ولكنهم يعرفون رطانة البجة والخاس ورجال قبيلتهم يلقبونهم بلقب « دقلل » وهو بمثابة أرباب عند ملوك العرب . وقـد كانوا يمهرون نساءهم من قبائل البجة والخاس فتسمت أكثر بدناتهم بأسماء مشايخ النابتاب وأما الذين لا شيخ لهم من النابتاب فقد حفظ فيهم اسم البجة. وكان يمتاز ملوك النابتاب عن رعاياهم بلبس أقراط من الذهب في الاذن اليمنى وزن كلٍّ منها نصف اوقية لا ينزعونها إلا يوم الوفاة .

مملكة الحلانقة : الحلانقـة قبيلة من البجة كما مرّ وأما هم فيدعون انهم من ذرية احمد الحلاق من قبيلة بني سعد مزين النبي ﷺ ولغتهم البيجاوية ومركزهم جبل كسلا على القاش وكان بينهم وبين الهدندوة وبني عامر منذ القديم حروب وغزوات. وقد كان كبير الحلانقة يلقب شيخاً ككبير الهدندوة الى ايام الشيخ « عوض مسمار » الذي تزوج ببنت من العابدلاب (او الفونج) فألبسه ملك سنار طاقيـــة الملك لتعزيز مقامه فبقي ملكاً الى الفتح المصري للتاكا سنة ١٨٤٠ م .

الفصل الرابع

في

الممالك والمشيخات التي خضعت للفونج بواسطة العابدلاب

مشيخة الشنابلة : قامت على النيل الازرق شمالي سنار ومركزها المسلمية وأشهر مشايخها الشيخ شنبول الذي قتل في ايام « ٢٠ – الملك عدلان الثاني » كما مرّ .

مملكة الجموعية : امتدت في غرب النيل الكبير والنيل الابيض من عقبة قري الى الترعة الخضراء ومركزها القيزان المنسوبة الى اولاد الملك المحينة . وكان أهم فروعها الجميعاب والسروراب والفتيحاب وأقواهم الجميعاب .

مملكة الجعليين : قامت في شمالي مشيخة العابدلاب على انقاض مملكة مروى القديمة بين حجر العسل والدامر ومركزها شندي وكانت مملكة قوية تولاها فرع من الجعليين يعرف بالسعداب فكان منهم على رواية كايو ١٦ ملكاً حكموا ٢٣٥ سنة :

ملوك الجعليين في شندي حسب رواية كايو

أسماء الملوك	مدة ملكهم	أسماء الملوك	مدة ملكهم	حواشي كايو
١ سعداب دبوس	٢٠	٩ بشاره	٧	
٢ سليمان العداد	٧	١٠ سليمان بن سالم	١٥	
٣ ادريس بن سليمان	٣٥	١١ سعد اخوه	٢	
٤ عبد السلام	١	١٢ ادريس الثالث	٢٠	٤ قتله فونج سنار
٥ الفحل بن عبدالسلام	١٥	١٣ سعد الثاني ابنه	٤٠	٥ قتله الجعليون
٦ ادريس الثاني اخوه	٦	١٤ مساعد ابنه	١٣	٦و١٢ قتله الكواهلة
٧ دياب اخوه	١٢	١٥ محمد الملك	١٣	
٨ قنبلاوي	٣	١٦ نمر ابنه	١٧	١٦ عزله اسماعيل
		مجموع ملكهم	٢٣٥	

قيل وكان الملك ادريس الثالث أقوى فرسان زمانه وما بارز فارساً إلا غلبه . وقد ولد له ولدان محمد وسعد فبعد وفاته اقتسما الدار بينهما فملك محمد البر الشرقي في شندي وملك سعد البر الغربي في المتمة وولد لمحمد ولد سماه نمراً ولسعد ولد سماه مساعداً فملك بعدهما نمر في شندي ومساعد في المتمة ودام ملكهما الى الفتح المصري .

وكانت شندي قبيل الفتح المصري من أهم مراكز التجارة في السودان وفيها سوق للرقيق يأتيه التجار من الحبشة وسنار وكردوفان ودارفور والدنكا وفرتيت . وقد وصفها كايو بأنها بلدة عامرة فيها نحو ٩٠٠ بيت و ٧٠٠٠ نسمة وبيوتها مربعة الشكل وكلها طبقة واحدة إلا بيت الملك فانه كان طبقتين ومطلياً بالجير . وكان عند الملك نمر نحو ٣٠٠ فارس واربعين عبداً مسلحين بالبنادق وهم رجاله الأخصاء ولكن كان اذا هاجمه عدو قام الجعليون كلهم لنصرته .

وقد اشتهر الجعليون في السودان بالفروسية واقتحام الاخطار ولهم وقائع معدودة مع الفونج والشايقية وقبائل البادية المجاورين لهم كالشكرية والكواهلة والبطاحين .

حكي ان الشكرية لما حشدوا جيوشهم لمحاربة الجعليين في زمن الملك نمر كما مرّ اجتمع شيوخ الجعليين من سن ستين فصاعداً وقالوا للشبان نحن نقاتلهم عنكم لأنه لم يبقَ لنا في الحياة مطمع فإن غلبناهم أرحناكم من شرهم وإن غلبونا فخذوا انتم بثأرنا . قيل فلما جاء الشكرية ورأوا الجعليين كلهم شيوخاً مسنين أدركوا الحيلة وتوسط العلماء في الصلح فصالحوهم وزوّجوا الملك نمر بأخت ابي سن حباً بمصاهرتهم .

وكان من عادة الجعليين في ذلك الحين انه اذا وقع قتل في بلدة اجتمع سبع قبائل منهم بمشايخهم وفقهائهم ومعهم القاتل وأهله وأهل المقتول ووقف اهل القاتل في صف وأهل المقتول في صف تجاههم على بعد مئة متر منهم ووقف القاتل وحده بين الصفين ثم ينظر المشايخ والفقهاء في أسباب القتل ويحكمون على القاتل بالعفو او القصاص فإن كان العفو حكموا عليه بالرحيل من البلدة حتى لا يراه اهل المقتول وحكموا على اهله بدفع الدّية وهي الف ثوب من الدمور او ٣٠٠ الى ٤٠٠ ريال « ابو نقطة » يدفعونها لأهل المقتول أقساطاً ربما دامت سنين .

مملكة الميرفاب : في شمالي الجعليين بين المقرن ووادي السنقير ومركزهم بربر ولهم ككر وطاقية وقد اشتهر الميرفاب بالكرم والنباهة كما اشتهروا بالشجاعة. وكان آخر ملوكهم الملك نصرالدين الذي حجّ الى بيت الله الحرام. قيل ان الهمج أساؤوا اليه فذهب الى مصر وحرّض محمد علي باشا على فتح سنار انتقاماً لنفسه منهم .

مملكة الرباطاب : امتدت من وادي السنقير الى الشاخية فيما وراء ابي حمد وكان لهم ككر وطاقية وكانوا في حرب دائمة مع الميرفاب الى ان كان الفتوح المصري .

مشيخة المناصير : امتـدت من الشاخية الى الشلال الرابع ومركزها السلامات .

مملكة الشايقية : قامت على أطلال مملكة نبته القديمة وامتدت من الشلال الرابع الى ابي دوم قشابي ومركزها مروى وهي مملكة عربية محضة . وقام في شماليها مملكة الدفار ودنقلة والخندق وارقو وهي ممالك نوبية او عربيـة متنوبة . وقد اشتهر الشايقيـة في السودان بالشجاعة وحب الغزو كما اشتهروا بالضيافة والكرم وكانوا في حرب دائمة مع ملوك النوبة .

وفي أواسط القرن الثـامن عشر للمسيح تجمعوا بخيلهم ورجلهم وهاجموا ممالك النوبة فتغلبوا عليهم جميعاً وخربوا دنقلة العجوز وقتلوا الكثير من أهلها وتشتت من سلم منهم في الجهات فسكنوا بربر وشندي وفرّ بعضهم الى كردوفان فاستوطنوها وصالحهم ملوك الدناقلة على جزية سنوية تساوي نصف دخل بلادهم. وكانوا هم يدفعون الجزية لملوك سنار حتى قويت شوكتهم وأخضعوا دنقـلة فامتنعوا عن أدائها .

المماليك : وفي أوائل القرن التاسع عشر قدم المماليك من مصر فارّين من وجه محمـد علي باشا فنشبت بين الفريقين حرب دامت الى الفتح المصري . وتفصيل ذلك ان محمد علي باشا بعد ان نكل بالمماليك في قلعة القاهرة على ما هو مشهور في تاريخ مصر فرّ من بقي منهم في البـلاد الى الصعيد وتحصنوا بجبال اسنا فتبعهم ابراهيم باشا اليها فانهزموا امامه الى السودان فمنهم من ذهب بطريق الصحراء الى شندي وسنار وهم القليل وذهب اكثرهم بطريق النيـل وابراهيم باشا يطاردهم حتى وصلوا الى كشتمنه فصمدوا له وحـاربوه فهزمهم الى ابريم فتحصنوا في قلعتها فشدّد عليهم الحصار فخرجوا منهـا واستطردوا انهزامهم جنوباً حتى أتوا جزيرة ارقو وكان عددهم نحو ٣٠٠ نفر ومعهم ٣٠٠ عبد بسلاحهم فرأوا محمود العادلاناب من رؤساء الشايقيـة مقيماً في ارقو لجمع الجزية فقالوا له انهم سائرون الى ملك سنار فأضافهم وأكرم مثواهم مدة شهر ثم اتفقوا مع رجل من عائلة الزبير المالكة في ارقو وغدروا بمحمود وقتـلوه

وقتلوا الكثير من حاشيته وانتشروا في البلاد يجمعون ما كان مجعولاً للشايقية من الاموال وكان ذلك سنة ١٨١٢ م .

وفي يناير سنة ١٨١٣ تجهزوا وساروا لغزو الشايقية في مروى فلما علم الشايقية بذلك أرسلوا فرقة من رجالهم بطريق الصحراء فأتوا المماليك من وراء فقتلوا من بقي من اتباعهم في الخندق وارقو واضطروهم الى الرجوع عن الغزو فنزلوا في مراغة وبقوا فيها الى ان جاء اسماعيل باشا فاتحاً فمنهم من سلم له في الحال ومنهم من فرّ من وجهه الى شندي فسلم هناك وسيأتي ذكرهم بعد .

مملكة الدفار : قامت في حلة الدّفار المار ذكرها ودامت الى ما قبل الفتح المصري بقليل اذ خربها الشايقية وطردوا اهلها منها الى جزيرة قانتي حيث لا يزال ذريتهم الى اليوم . وفي الدّفار آثار قلعة قديمة وكنيسة من بقايا نصارى النوبة .

مملكة دنقلة العجوز : قامت على انقاض مملكة نصارى النوبة منذ أوائل القرن الرابع عشر للمسيح فاستمرت الى ان خرّبها الشايقية قبيل الفتح المصري ومن آثار الاسلام جامع قائم فوق كنيسة قديمة لنصارى النوبة وفي واجهته حجر مكتوب عليه اسم فاتح دنقلة وتاريخ افتتاحها وقد مر ذكره . قيل ان مؤسسها هو جدّ مرغني ود سوّار الذهب الذي اشتهر في تاريخ الثورة المهدية.

مملكة الخندق : قامت في حلة الخندق ومن آثارها جامع قائم على انقاض جامع آخر بني على انقاض كنيسة من عهد نصارى النوبة .

مملكة الخنّاق : مركزها حلة الخناق وبقربها الآن آثار قصر فخيم لأحد ملوكها المدعو ود نمير قيل وكان ملوكها من ذرية الفونج .

مملكة ارقو : قامت في جزيرة ارقو على انقاض مملكة قديمة من زمن الجاهلية فحكم فيها عائلة عرفت بعائلة الزبير لا تزال ذريتها باقية الى الآن وأكبرهم في هذا العهد الملك طنبل والملك محمد ود الملك اللذان اشتهرا في الثورة المهدية .

ومملكة ارقو هي أقصى الممالك التي خضعت للفونج من جهـــة الشمال أما البلاد بينها وبين الشلال الاول فقد تولاها الكشاف الاتراك على مـــا سيجيء .

وأشهر ما في البلاد الآن من آثار مملكة سنار «القبب» فقد عدّ لي بعضهم ستين قبة قامت على مدافن الأولياء الصالحين وأكثرها تزار الى اليوم وقـــد ذكرنا الكثير منها فيما مر . اما قصر الملك بادي في سنار فلم يبق له من أثر .

وقد عرفت مملكة سنار في السودان بالسلطنة الزرقاء تمييزاً لها عن السلطنة الحمراء وهي حكومة مصر .

ملحق

في

تاريخ الكشاف الأتراك

في سكوت المحس :

تقدم ان السلطان سليماً الفاتح بعد ان فتح مصر أرسل سرية من العساكر الى بلاد النوبة سنة ١٥٢٠ م فملكوها الى الشلال الثالث . وقد مرّ بنا عن ابن خلدون ان احياء العرب من جهينة بعد الفتوح الاسلامي للنوبة السفلى سنة ١٣١٨ م انتشروا فيها فكانوا شيعاً . ويظهر انه سكن بين الشلال الاول والثاني عرب الجوابرة من ذرية جابر الانصاري والغربية وهم فرع من الزناتية والكنور جاؤوا من نجد والعراق فسكنوا بين الشلال الاول والسبوع ولذلك عرفت هذه البلاد ببلاد الكنوز الى اليوم. وسكن في بلاد سكوت بين الشلال الثاني وجبل دوشة بعض الاشراف . وفي المحس بين جبل دوشة والشلال الثالث قوم ينتسبون الى عرب قريش وقد أسسوا مملكة في جبل ساسي دامت الى الفتوح المصري كما مرّ . وكان ملك المحس في ايام الفتح المصري الملك صبير جد الملك صبير كبير المحس في هذه الايام .

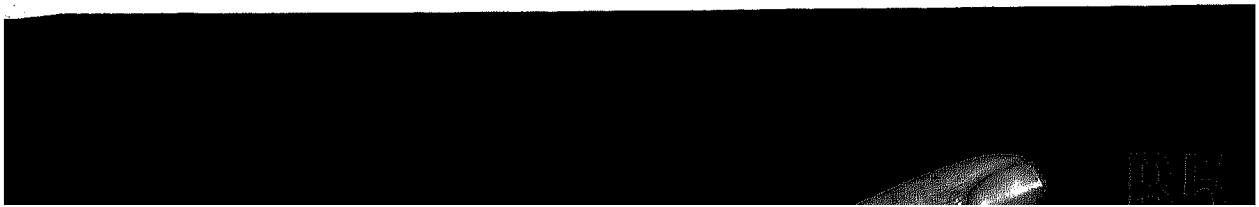

وقالوا في سبب دخول العساكر التركية الى النوبة ان الجوابرة استقووا على الغربية فأرسل هؤلاء رسلاً الى السلطان سليم فبعث معهم سنة ١٥٢٠ سرية من عساكر بوسنيه تحت قيادة حسن قوسى فطردوا الجوابرة الى دنقلة حتى لم يبق منهم إلا القليل في حلفا والدر فرموا القلاع القديمة في اسوان وابريم وساي وأقاموا فيها .

ولما كانت البلاد لجدب ارضها لا تخرج من الاقوات ما يكفي العساكر فقد منحهم السلطان سليم هم وذريتهم من بعدهم عدة امتيازات منها انه أعفاهم من دفع الضرائب على اطيانهم ومنح كل حامية صرّة تجري عليها في كل سنة من خزينة السلطان بمصر فكانت صرة ابريم وحدها اربعة اكياس أي نحو ١٠٠ جنيه .

وكان قوسى حسن قومندانا للعساكر وحاكماً مستقلاً على النوبة إلا انه كان يرسل الجزية الى حاكم مصر وقد ضرب على كل ساقية ٢٤ مداً نوبياً من الحبوب و ١٢ ثوباً من نسج النوبة المسمى قونجي. ومات حسن قوسى فتولت ذريته حكم النوبة من بعده وجعلوا عاصمتهم الدر فعرفوا بالكشاف الغزّ .

ثم ان الفونج بعد ان اخضعوا النوبة العليا سنة ١٥٠٥ طمعوا بالنوبة السفلى ففتحوها الى الشلال الثالث وأرادوا التقدم شمالاً قيل وكان الحاكم من الغزّ في ذلك الزمان ابن جنبلان فلما سمع بقدوم جيش الفونج الى بلاده جهز جيشاً عرمرماً ووقف لهم على الحدود قرب حنك فالتقى الجيشان وحدثت مقتلة عظيمة انتصر فيها جيش الغزّ انتصاراً عظيماً فردُّوا جيش الفونج على أعقابهم خاسرين بعد ان ملأوا الارض من قتلاهم . قيل واجتمع الدم في بركة هناك فسمي المكان بحوض الدم وبنوا فوقه قبة فجعلوها حداً بينهم وبين الفونج . وهذه القصة مشهورة عند عموم أهالي دنقلة والمحس .

هذا وما زالت ذرية حسن قوسى حكاماً للنوبة مستقلين عن مصر في ما عدا الجزية التي كانوا يدفعونها الى حاكم مصر وقلما دفعوها الى المماليك ولكنهم دفعوها الى محمد علي باشا الذي كان يحاسب بها الباب العالي .

وكان على النوبة عنـد قدوم اسماعيل باشا لفتح سنار حسين ابن سليمان كاشف فاراد ان يجمع رجاله ويصده عن التقدم فلم يوافقه اخوه حسن في هذا الرأي ففرّ حسين بعبيـده (وكانوا نحو ٣٠٠ عبـد) الى كردوفان ولجأ الى المقدوم مسلم وحارب معه عند قدوم الدفتردار فاتحاً ولما قتل المقدوم مسلّم فرّ حسين ومعه حرم المقدوم وخزينته الى سلطان دارفور فتزوج بابنة السلطان ولا تزال ذريته هناك الى اليوم .

وولى اسماعيل باشا حسناً على البلاد من اسوان الى حلفا وأنعم عليه بـ ٢٩٣ فداناً و ٦ اكياس دراهم . وكان الكاشف قبل الفتح المصري يتزوج من بنات النوبة قدر ما شاء فمنع اسماعيل باشا ذلك ووضع على كل ساقية ٥٠ غرشاً ما عدا الـ ٢٤ مداً نوبياً التي أبقاها للكاشف وكان كبير كل قبيـلة من الكشاف مسؤولاً عما يطلب للحكومة من أبناء جنسه والنوبة. وبقوا على ذلك الى ان قامت الثورة المهدية في السودان وصارت البلاد تحت الحكم العسكري فتوقف النوبة عن تقديم الـ ٢٤ مداً نوبياً للكشاف فبطل نفوذهم .

وبعد وفاة حسن كاشف تعين ابنه سليمان ناظر القسم وخلفـه اخوه محمد ولم تزل الاراضي التي وهبهم اياها اسماعيل باشا بيـد كبير ذريتهم محمد ابن سليمان كاشف الى هذا العهد .

هذا في حسن قوسى وذريته اما عساكره فلم تزل ذريتهم مقيمة في اسوان وابريم وساي وقـد اختلطوا بعرب الجوابرة والغربية فتزوجوا منهم وتعلموا لغة النوبة ونسوا لغتهم ولكنهم ما زالوا متميزين عن النوبة الاصليين في الهيئات والاخلاق الى اليوم .

وأهم ما في بلاد سكوت والمحس من آثار هـذا العهد قلاع متهدمة من الطوب النيء والحجر الخام قائمة على تلال مرتفعة في جزر النيل او على شاطئيه وبعض هذه القلاع عبارة عن حوش كبير محاط بسور منيع ارتفاعه نحو خمس عشرة ذراعاً وعرض أساسه نحو ثلاث اذرع وللسور اربعة أبراج في كل ركن برج علوه نحو خمسين ذراعاً يصعد الى أعلاه بسلم . وقد شاهدت بعض هـذه

القلاع في الحملات النيلية فسألت شيوخ اهل البلاد عنهم فقالوا كان الأهلون قبل الفتح المصري في انشقاق دائم ودأبهم شن الغارة بعضهم على بعض فكانت كل قبيلة تبني قلعة تعرف باسم دفتي حتى اذا ما أغارت عليها قبيلة اخرى جمعت نساءها وأولادها وبهائمها وأموالها وحبوبهـــا الى حوش القلعة وصعد الرجال الى الابراج ورموا العدو بالمقلاع والنشاب او خرجوا له وقاتلوه بالنبابيت والحراب والسكاكين وخرج معهم النساء يحملن لهم الزاد ويحمسنهم على القتال فلما كان الفتح المصري عمّ الامن البلاد فلم يعد لهذه القلاع من داع فأهملت وأدركها الخراب .

وقبل التقدم الى الفتح المصري نأتي على تاريخ دارفور القديم .

الباب الخامس

في

تاريخ مملكة الفـــور

منذ اول نشأتها الى الفتوح المصرى أي منذ سنة ٨٤٨ : ١٢٩١ هـ — ١٤٤٥ : ١٨٧٥ م

تمهيد في اصل سلطنة الفور

لقــد أجمعت التقاليد السودانية على ان سلطنة الفور هي من اصل عربي والذي عليه البعض وتدعيه سلالتهم الى اليوم انهم من بني العبــاس . ولهم في ذلك رواية لطيفة تختلف في التفصيل بحسب الرواة وتتفق في المغزى. وأشهر ما رووه ان الامراء العباسيين بعد انقراض دولتهم ببغداد سنة ٨٢٣هـ ١٤٢١م تفرّقوا في بلاد المشرق فذهب منهم شقيقــان الى تونس الغرب ومعهما نفر من الاعراب وكان اسم اكبرهما علياً وأصغرهما احمــد سفيان وكان علي متزوجاً بامرأة ذات جمال واحمد سفيان عازباً ولكنه كان آية في الجمال فأحبته امرأة اخيه حباً لم يسعها معه الكتمان فكاشفته بحبها فأنكر عليها ذلـــك وعذلها ولكنه وعدها ان يكتم سرها أما هي فاشتعلت غيظاً من إبائه وعزمت على الانتقام منه فأتت زوجهــا ذات يوم وقالت اني جئتك بأمرٍ جلل لا يحسن كشفه فأقسم لي انك لا تبوح به لأحـــد فأقسم لها فقالت ان شقيقك احمد يراودني عن نفسي وانا أنتهره وأزجره وهو لا ينزجر فعظم هــذا الخبر جداً على عليّ واغتم لأجله غماً شديداً ولكنه لم يصدق ما قالته امرأته على علّاتــه لأنه كان يحب أخاه محبة فائقة ويثق بعفافه وشهامته فبقي مرتاباً في الأمر . وكان احمد لما رأى ان امرأة اخيه استاءت منه جعــل يتلطف لها ويترضّاها فرأى اخوه منه ذلك فقوي الريب فيه وصدّق ما قالته له زوجته فاسودّت الدنيـــا في عينيه وكره أخاه وزوجته والارض التي كان نازلاً فيها فأمر ان

تقوّض خيامهم ورحلوا من تلك الارض وتأخر في الطريق مع أخيه وهو يفكر بالذي يفعله فأبت نفسه ان يكاشفه بسرّ زوجته ولم يطاوعه قلبه على قتله فقرّ رأيه ان يعقره برجله فيسمه بوسم يؤنبه ما دام حيّاً فاستلّ سيفه وفاجأه بضربة في رجله اليمنى فعقربه وتركه يسيل منه الدم ولحق بقومه . وأدرك احمد سفيان سبب غدر اخيه به ولكنه كان من الأنفة على جانب عظيم فلم يفه ببنت شفة بل صبر على الضيم وجلس ينتظر الموت والدم ينزف من عقر رجله ولهذا سمي احمد سفيان المعقور . ثم علم به عبيده وخاصته فاجتمعوا حوله وعالجوه حتى برىء جرحه فسار بهم بطريق الصحراء مهاجراً بلاد تونس حتى أتى جبل مرّة من اعمال دارفور .

وكان في ذلك الجبل أمة من شبه السود يقال لهم « الفور » عليهم ملك منهم يسمى شاو دورشيت فكان هذا الملك عريقاً في الهمجية ولكنه كان كريم الطبع حسن النقد فلما علم بقدوم احمد أحضره لديه فأعجبه عقله وأدبه فعهد اليه في تدبير منزله وسياسة مملكته فأحسن احمد السياسة وعلّم رجال حاشية الملك آداب السلوك ثم التفت الى المملكة فنظم أحوالها وأصلح امورها فأحبه الملك حباً شديداً ولم يكن له إلا بنت واحدة فزوّجه بها فولدت له ولداً سماه سليمان فشبّ ثاقب الفكر سديد الرأي حسن السياسة محبّاً للخير والاحسان فأحبه اهل الجبل وألفوه . وتوفي ابوه احمد سفيان في حياة جده السلطان شاو دورشيت ثم توفي جده فنادى به اهل الحلّ والعقد باجتماع الكلمة سلطاناً عليهم وبايعوه على السمع والطاعة وكان ذلك سنة ٨٤٨ هـ ١٤٤٥ م فأقام في عاصمة جده في جبل مرّة وكان اول سلالة السلاطين العربية الذين تولوا دارفور نحو ٤٤٣ سنة الى ان دخلت في حوزة الحكومة المصرية الخديوية عن يد الزبير رحمت باشا كما سيجيء .

هذه هي رواية اهل السودان في أصل سلطنة الفور وهي لا تخرج عن حد الروايات الموضوعة التي يكثر امثالها في السودان فانه ما من قبيلة او مملكة عربية اشتهرت في السودان إلا رجعت في نسبتها الى النبي او الصحابة او من

اتصل بهم . وفي المشهور ان دارفور كانت في ذلك الزمن سلطنات متفرقة من السود وشبه السود وفي جملتها سلطنة الفور في جبل مرّة وكان العرب المسلمون قد هاجروا اليها من مصر او تونس او الحجاز او منها جميعاً وملأوا مدنها وبواديها ولم يكن لهم سلطان واحد يرجعون اليه بل كانوا قبائل شتى تحت حكم سلاطين البلاد الاصليين فلا يبعد ان يكون سلطان الفور في ذلك الحين قد أعجب بنجابة شاب من شبان العرب العريقين في النسب فزوّجه بابنته فولدت منه سليمان فأسس السلطنة التي فيها كلامنا. على ان عامة اهل دارفور يرجعون في أنسابهم الى ابي زيد الهلالي الذي اشتهر في تونس .

الفصل الاول

في

تاريخ سلاطين الفور

١ – السلطان سليمان الاول سنة ٨٤٨ : ٨٨٠ هـ – ١٤٤٥ : ١٤٧٦ م

هو رأس سلاطين الفور المار ذكره . قيل انه لما تولى السلطنة لم يكن في جبل مرة مساجد للعبادة فبنى المساجد وأقام صلاة الجمعة والجماعة ثم شرع في ضم كلمة المسلمين واستعان بعرب البادية المنتشرين في البلاد فأخضع ملوك شبه السود المحيطة بجبل مرة الى سلطانه وعلمهم دين الاسلام . وأخضع بعض ملوك السود البعيدين عن جبل مرة فبقوا على الوثنية . فأصبحت دارفور كلها سلطنة واحدة لمن يتولاها من ذرية السلطان سليمان الى يوم انقضائها .

وكان جملة الذين خضعوا للسلطان سليمان وبقوا الى عهد خراب السلطنة ٢٧ ملكاً سبعة مجوس من السود والباقون مسلمون من شبه السود .

أما سلاطين المجوس فهم سلاطين كاره ودنقو وفنقرو وبنه وبايه وفرُوقى وشالا وكلهم في بلاد فرتيت الى الجنوب الغربي من دارفور .

وأما ملوك المسلمين فهم : البرقد والتنجر وكبقه والميمه والمسبعات في

الشرق من جبل مرة . والمراريت والعورة وسمبار والمساليت والقِمر وتامه والجبلاويين واب درق وجوجه وأسمور في الغرب والشمال الغربي . وزغاوه كبا والميدوب في الشمال والشمال الشرقي . والبيقو والداجو ورنقا في الجنوب والجنوب الغربي .

ذلك ما عدا القبائل العربية الذين جمع كلمتهم واستنصر بهم وأهمهم: الهبانية والرزيقات والمسيرية والتعايشة وبنو هلبة والمعاليـــة في الجنوب . والحمُر في الشرق ، والزّيادية في الشمال ، والماهرية والمحاميد وبنو حسين في الغرب .

وكانت مدة السلطان سليمان ٣٢ سنة هـ وجاء بعده من سلالته :

٢ – السلطان عمر ، ٨٨٠ : ٨٩٧ هـ – ١٤٧٦ : ١٤٩٢ م

٣ – السلطان عبدالرحمن ٨٩٧ : ٩١٦ هـ – ١٤٩٢ : ١٥١١ م

٤ – السلطان محمود ٩١٦ : ٩٣٢ هـ – ١٥١١ : ١٥٢٦ م

٥ – السلطان محمد صول ٩٣٢ : ٩٥٧ هـ – ١٥٢٦ : ١٥٥١ م

٦ – السلطان دليل ٩٥٧ : ٩٦٧ هـ – ١٥٥١ : ١٥٦٠ م

٧ – السلطان شرف ٩٦٧ : ٩٩١ هـ – ١٥٦٠ : ١٥٨٤ م

٨ – السلطان احمـد ٩٩١ : ١٠٠١ هـ – ١٥٨٤ : ١٥٩٣ م

٩ – السلطان ادريس ١٠٠١ : ١٠١٣ هـ – ١٥٩٣ : ١٦٠٥ م

١٠ – السلطان صالح ١٠١٣ : ١٠٣٥ هـ – ١٦٠٥ : ١٦٢٢ م

١١ – السلطان منصور ١٠٣٥ : ١٠٤٨ هـ – ١٦٢٢ : ١٦٣٩ م

١٢ – السلطان شوش ١٠٤٨ : ١٠٦٨ هـ – ١٦٣٩ : ١٦٥٨ م

١٣ – السلطان ناصر ١٠٦٨ : ١٠٨٠ هـ – ١٦٥٨ : ١٦٧٠ م

١٤ – السلطان توم ١٠٨٠ : ١٠٩٤ هـ – ١٦٧٠ : ١٦٨٣ م

١٥ – السلطان كورو ١٠٩٤ : ١١٠٦ هـ – ١٦٨٣ : ١٦٩٥ م

١٦ – السلطان سليمان الثاني ١١٠٦ : ١١٢٦هـ – ١٦٩٥ : ١٧١٥ م

ومن الرواة من لا يعترف بالسلاطين السابقين لهذا السلطان ويؤكدون انه هو اول سلاطين الفور بعد ان سرى الدم العربي فيهم ويلقبونه بسليمان صولون أبي العربي وينسبون اليه كل ما نسب الى السلطان سليمان الاول ويجعلون « ١٥ – السلطان كورو » في مكان شاو دورشيت ويؤيدون قولهم بأختام سلاطين الفور المتأخرين كختم السلطان ابراهيم الاخير والسلطان حسين من قبله فان نسبتهم في اختامهم تنتهي الى السلطان سليمان الثاني هذا كما سترى. ولكن الامام الذي أخذنا عنه سلسلة سلاطين الفور ومعظم تاريخهم يؤكد ان اختام السلاطين الاول ترجع نسبتهم في اختامهم الى ما وراء السلطان سليمان الثاني وان لقب صولون هو لسليمان الاول وقد نسبوه الى سليمان الثاني جهلاً .

١٧ – السلطان موسى ابنه ١١٢٦ : ١١٣٨ هـ – ١٧١٥ : ١٧٢٦ م

وكان على مثال أبيه في العدل والاحسان .

١٨ – السلطان احمد بكر ابنه ١١٣٨ : ١١٥٨ هـ – ١٧٢٦ : ١٧٤٦ م

وقد اشتهر بكثرة الاولاد قيل كان له نحو مئة ولد .

١٩ – السلطان محمد دَوْرَه ابنه ١١٥٨ : ١١٧٠ هـ – ١٧٤٦ : ١٧٥٧ م

ولم يكن أكبر أخواته بل كان ثانيهم فقتل أخاه الاكبر ليخلو له الملك فلما ملك شرع في قتل باقي اخوته ليخلو الملك لأولاده من بعده قيل فلما رأى نساء ابيه انه شرع في قتل اخوته جعلن لأولادهن الذكور « كنافيس » وألبسنهم لبس البنات ليحجبنهم عن عينه ومع ذلك فقد قتل منهم نحو الخمسين.

٢٠ – السلطان عمر الثاني ابنه ١١٧٠ ؛ ١١٧٧ هـ – ١٧٥٧ : ١٧٦٤ م

وكان من اعدل سلاطين الفور وأشدهم محافظة على الكتاب والسنة . ومما يروى عن عدله انه بعد توليه الملك بثلاثة ايام خرج الى مجلس خاصته وسألهم أن يولوا احد أعمامه في مكانه قال لأن طاقية الملك يعني بها مسؤولية الملك ثقيلة فرفضوا ذلك بتاتاً وأبوا إلا ان يكون هو السلطان فقال لهم اذاً انتظروني

اسبوعاً فأخبركم بما أريد فخلا اسبوعاً في منزله ثم خرج ومعه قرون من الخشب تمثل قرون الغنم والبقر وقال لهم أريد ان يعم الأمن ويبطل التعدي حتى تسلم ماشية أضعف النساء وتنمو قرونها فتصير مثل هـذه القرون . ثم التفت الى الحكام وقـال أريد ان تعدلوا في الرعية لكي لا يجيء احـد منهم اليّ بشكوى . فلم يمض إلا القليل حتى جاءته الشكاوي على ٣٠ عاملاً من المقاديم والشراتي والجنود فأحضرهم اليه ولما تحقق ظلمهم أمر فذُبحوا عند بابيّ داره ١٥ منهم عند باب الحريم و ١٥ عنـد باب الرجـال فوقعت الرهبة في قلوب الجميع وانقطع الظلم . قيل وقـد بارك الله في البلاد بسببه حتى أتأمت الابل والبقر والحمير وغزرت الينابيع في جبل مرة وجرت الأنهـار فلقب بسرّف أي الماء الجاري .

٢١ – السلطان ابو القاسم عمه ١١٧٧ : ١١٨١ هـ – ١٧٦٤ : ١٧٦٨ م

قيل وفي ايامه خرج رجل عربيّ صالح من كردوفان يسمى عبد الكريم الى دار ودّاي وكانت اذ ذاك بيد التُنجر فاغتصبها منهم وكانوا قبلاً يدفعون الجزية الى سلاطين الفور فلما تولى عبد الكريم أبى دفع الجزية فجرّد السلطان ابوالقاسم جيوشه عليه وواقعه واقعة شديدة ولكن اختلفت كلمة جيشه فنزل بنفسه الى ساحة القتـال فجرح وانقلب راجعاً الى دارفور فمات في دار تامه فحمله رجاله ودفنوه في مدفن أجداده في جبل مرة وخلفه :

٢٢ – السلطان تيراب اخوه ١١٨١ : ١٢٠١ هـ – ١٧٦٨ : ١٧٨٧ م

وكان له ثلاثون ولداً ونيف من الذكور البالغين ما عدا الصبيان والبنات وقد أطلق لهم العنـان فتفرقوا في البلاد يعيثون ويفسدون وما تركوا شيئاً نفيساً عند احد إلا اغتصبوه منه وكان احدهم مساعد لا يتحرك إلا راكباً على ظهور الرجـال فكان اذا أراد الانتقال من بلدة الى اخرى انتقى عدداً من رجالها الأشداء فحملوه بالتناوب الى المحـل الذي يقصده حتى ضاقت نفوس أهل دارفور منهم ورفعوا الشكوى الى أبيهم فما أصغى اليهم وقال اني لأعجب

كيف ان رعيتي لا تصبر على اولادي فاذا أتوا أقل شيء لا يرضيهم شكوهم اليّ ! فامتنع الناس عن الشكوى وسلموا أمرهم الى الله .

وكان اسحق أكبر أولاده أنجبهم وأحبهم اليه فأطلق عليه اسم الخليفة لأنه أراد ان يرشحه للملك بعده وجعل له حاشية من الوزراء والأتباع مثل حاشيته فجعل أبناء وزرائه وزراء لابنه وأبناء أتباعه أتباعاً لابنه وكان له زوجة يحبها ويراعيها ولها ابن منه يسمى احمد فطلبت اليه ان يرشح ابنها للسلطنة بدلاً من اسحق فقال لها تيراب نمتحن الاثنين امامك فالذي نجده أفرس من أخيه نرشحه للسلطنة فرضيت ام احمد بذلك فبعث السلطان في طلب الاثنين الى غرفته الخصوصية وكان للغرفة بابان باب للرجال وعليه أسدان مقيدان بالحديد في كل جانب اسد وباب للحريم ليس عليه شيء فلما اقترب الولدان من باب الرجال نظر احمد الى الاسدين فتحوّل عنهما ودخل من باب الحريم وأما اسحق فانه دخل من باب الرجال بين الاسدين وكان دخوله حبواً على عادة الدخول الى السلطان فمزق الاسدان ثيابه وشرطا جسمه بأظافرهما وهما يلاعبانه كعادة الاسود الأليفة فلم يعبأ اسحق بهما ودخل على ابيه فسلم عليه وكذلك سلم عليه احمد فسألهما بعض الأسئلة ثم أمرهما بالانصراف فخرج كل منهما من الباب الذي دخل منه وكانت ام احمد جالسة مع السلطان تشاهد ذلك فالتفت اليها السلطان وقال من منهما يستحق الخلافة ويؤمن على الملك قالت « لا والله ابنك اسحق فانه رجل وأما ابني فقد أخجلني » .

وكان كرسي سلطنة الفور الى هذا العهد في جبل مرة فنقله السلطان تيراب الى بلدة شوبة قرب كبكبيّة حيث بنى منزلاً فاخراً ومسجداً فخيماً من الطوب الاحمر وأقام فيها آمناً مطمئناً حتى خرج عليه المسبعات في كردوفان فجهز لقتالهم .

أما المسبعات ففي المشهور انهم هم وسلاطين الفور من جدٍّ واحد قيل ان السلطان سليمان صولون المتقدم الذكر لما تولى دارفور كان له أخ يدعى مسبع فتولى كردوفان وتعاهد الاثنان على ان يقنع كل منهما بملكه فلا يطمع بملك

الآخر فعاشا بسلام وأمان الى ان توفيا ودام هـــذا الحال في أبنائهما الى أيام السلطان تيراب . وكان من ذرية مسبع على كردوفان في ذلك الوقت السلطان هاشم وكان شجاعاً محباً للحروب والغزوات فغزا السروج والعرب البادية الذين على حدود دارفور فقهرهم فسوّلت له نفسه اخضاع دارفور فجمع جيشاً من السود مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل وجيشاً آخر من العرب الدناقلة والكبابيش والرزيقات وبدأ بشن الغارة على حدود دارفور فقتل وغنم وسبى فلما عـــلم تيراب بذلك كتب اليه ما معناه :

« الى ابن العم المكرّم السلطان هاشم سلطان كردوفان أعزّه الله :

أما بعـدُ فاني لا أعلم السبب الذي يحملك على غزو بلادي مع ما هنالك من صلاة القربى وعلاقات المودة التي تربطنا ولم يكن مني ما يكدّر صفاءها وأنت تعلم ان هؤلاء الذين تغزوهم هم مسلمون مثلك يعبدون الله ورسوله وما من عاقل يفعل ما انت فاعل فعنـــد وصول كتابي هذا ارجو ان تكف عن العداء رفقاً بالرعية وتذكر ان الظالم ينـال جزاء فعله والسلام » . فلم يلتفت السلطان هاشم الى هذا الكتاب بل عاد الى ارسال السرايا لغزو الحدود فتيقن السلطان تيراب اذ ذاك انه لا يرجع الا بالسيف فجهز لقتاله بكل قوته وآلة حربه ولم يشأ ان يخلي العاصمة من السكان فأعتق مئة عبد بنسائهم وأمر رجاله فأعتق كلٌّ منهم عبداً او اكثر بنسائهم وجعل اكبر عتقائه حاكماً على المدينة وعتيق إمامه الحاج عبـــد الغني إماماً للمسجد ونهض بجميع جيوشه قاصداً كردوفان فنزل بمحل يقال له ريل في بلاد البرقد وبنى له زريبة من شوك وبنى في داخلها منازل من الطين وشرع في الاستعداد للحرب .

وجرى للسلطان تيراب وهو يتأهب للحرب في ريل حكاية مع احد البرقد تستحق الذكر قالوا خرجت جارية من جواري السلطان الى بئر قريبـــة من الزريبة لتستقي فرآها رجل من البرقد فهام بها وطلب حضانتها في منزلها على جاري عادة اهل تلك البلاد فقالت له ومن أين لك ذلك وأنا في زريبة السلطان قال دليني على محلك في الزريبة وأنا أعلم كيف أدخل اليه فدلّته ولمـــا جنّ

الليل جاء الى الزريبة واقتلع الشوك من بعض جهاتها البعيدة عن الخفراء وذهب الى حيث دلته الجارية وجلس ينتظر قدومها فاتفق ان السلطان خرج في ذلك الوقت من مخدعه يتمشى في الزريبة فرأى الرجل امام باب الجواري فقال له مَن انت ايها الرجل وما جاء بك الى هـــذا المكان فأخبره بقصته على التمام فطلب تيراب الجارية فحضرت وهي ترتعد خوفاً فأمّنها وسألهـا عن الحقيقة فأجابته بما قاله الرجل فلما تحقق خبرهما سمح لهما بالمحاضنة . وفي الغد عقـد مجلساً من كبـــار دولته وقصّ عليهم خبر الرجل وطلب الحكم عليه فحكم البعض بقتله والبعض بسجنه والبعض بجلده فقـال السلطان : رأيي على الضدّ من رأيكم فان مثل هـذا الرجل لا يُقتل كأنه نعامة او دجاجة ولا يُهان بسجن او بجلد بل يربى للحروب والقتـــال فانه لو لم يكن شجاعاً مقداماً لا يعرف الخوف ما أقدم على الدخول الى منزلي بهذه الجرأة وفي الحال أمر له بجواد وآلة حرب وعبدين وزوّجه بالجارية وجعله في مصاف فرسانه .

وقد طالت إقامة السلطان تيراب في رَيل مصابرة للسلطان هاشم لعـــله يرتدع عن شن الغارة فما زاده ذلك الا تمادياً في غيّه فتحمس ثلاثة من فرسان السلطان تيراب فركبوا خيولهم وأتوا الى النحاس فضربوه وجمعوا الناس للحرب بلا استئذان السلطان وكان الوقت العصر فلبس السلطان عـدة حربه وركب جواده وجاء الى مكان النحاس فسأل الفرسان عن الخبر فقالوا ان نحاس السلطان هاشم أوقر آذاننا ونحاسنا ساكت فلم يعد لنا صبر على هذه الحال فإما ان نسكت نحاس السلطان هاشم ونردعه عن البغي او نموت في هذا السبيل فقال السلطان تيراب اتبعوني إذاً فتبعوه ولحق بهم الجيش فاستمر السلطان سائراً والجيش يتبعه الليل كله الى طلوع الشمس فتقـدم احد الوزراء الى السلطان وقـال له يا مولاي ان الجيش أنهكه التعب ولم يذُقْ زاداً فلم يصغِ السلطان اليه وواصل السير الى العصر فتقدم اليه وزير آخر وقال يا مولاي ان الجيش قصّر عن السير حتى الفرسان فوضع يده تحت فخذه وأخرجهـا ملوّثة بالدم وقال انظر ما جرى لي ولم أتضجر وعاد الى متابعة السير فتقـدم اليه إمامه

الحاج عبد الغني وقال له يا امير المؤمنين فاتنا خمسة أوقات من الصلوات المفروضة علينا ديناً فان كنت لا تقف شفقة على نفسك والجيش فلا بدّ من وقوفك لأداء فرض ربك في الصلوة فوقف السلطان اذ ذاك وقال لقد أوقفتني بالرغم عني يا حضرة الامام. وكان على مقربة من بئر تولو فنزل عندها واستأنف الاستعداد للحملة على كردوفان فجمع عربان البادية القاطنين بلاد دارفور من إبّالة وبقارة وأمرهم بمرافقة الجيش بما معهم من الابل والبقر لحمل الذخائر والمؤن فعهد الى الابالة حمل الماء والحبوب والى البقارة حمل باقي المؤمن من العسل والسمن .

ولما أتمّ استعداده ترك ابنه اسحق وكيلاً عنه في ريل وسار هو لقتال السلطان هاشم بجيش كثيف بهيئة مربع هائل في طليعته دادات السلطان حاملين الفؤوس لقطع الاشواك والاشجار وتمهيد طريق الجيش . وفي ساقته مقدوم الغرب، وفي ميمنته مقدوم الصعيد، وفي ميسرته مقدوم الشمال ، وفي القلب القوات الآتية على الترتيب . محافظ العاصمة ومعه الموظفون الملكيون من وراء دادات السلطان الذين في طليعة المربع ، ثم قبيلة السروج حاملين الحراب والدرق ، ثم قلعة السلطان من امامه حملة النبابيت ومن ورائه الياروان حاملين الحراب المكسوّة بأكياس من الجوخ الملوّن وعن يمينه الوزراء والملوك وعن يساره اولاده وأولاد السلاطين السابقين ، ثم حريم السلطان يحيط بهنّ الغفر من الاغوات وعليهم « ابو شيخ » مقدوم الشرق رسماً ، ثم حريم كبار الجيش وأغواتهن . ثم حملة العربان حاملين المؤن والذخائر امام مقدوم الغرب الذي في ساقة المربع .

وكان السلطان هاشم قد علم بقدوم السلطان تيراب بجيش كثيف لا قبل له بمحاربته وتفرّق عنه اكثر رجاله ففرّ بحاشيته وعائلته والتجأ الى ملك سنار . فسار السلطان تيراب في أثره حتى وصل قرب ام درمان فقابله جيش العابدلاب من قبل ملك سنار قاصدين منعه عن النزول الى النيل فأوقع بهم واقعة عنيفة وكسرهم شر كسرة فحملوا نحاسهم المسمى بالمنصورة وفرّوا به

طالبين النجاة فتبعهم جيش السلطان تيراب بقصد الاستيلاء على النحاس فدافع العابدلاب عنه بأنفسهم دفاع الابطال حتى قتل منهم سبعون رجلاً وفاز تيراب بنحاسهم فسرّ به سروراً فائقاً حتى انـه طلاه بالذهب من الداخل والخارج وعمل له نهوداً من الذهب وحفظـه الخلف عن السلف الى انقضاء ملكهم . وكانوا في كل سنة يجدّدون تجليده بموكب حافل يجتمع فيه اهل دارفور خاصتهم وعامتهم من جميع الأنحاء وداموا على ذلك الى ان سقطت دارفور بيد مصر فحُمِل الى القاهرة .

ثم ان السلطان تيراب بعد انتصاره على العابدلاب نزل في ام درمان وأخذ يستعد للزحف على سنار فوجد النيل في طريقه وعرضه ٦٠٠ يرداً ونيف ولم يكن عنده المراكب والمعدّات اللازمة لاجتياز النيل فبقي هناك أشهراً يدبر الوسائط لاجتيازه فـــلم يفلح فسئمت نفوس رجاله من الانتظار واشتاقوا الى عيالهم في دارفور فألحوا عليـه بالرجوع فأقسم لهم ان لا يرجع الا برأس هاشم فاغتـاظوا منه واتفقوا مع علي ود برقو والد احدى زوجاته على قتله فاطلع تيراب على الدسيسة وقتـــل علي ود برقو وبقي في أم درمان الى ان مرض فحملوه وعادوا به قاصدين دارفور فاشتد عليه المرض في الطريق ومات في باره فحنطوه وحملوه الى جبل مرة ودفنوه في طرّه التي هي مدفن سلاطين الفور . وقد اتسعت مملكة دارفور في ايامه اتساعاً لم نرَ مثله قبل ولا بعـد فكان حدهـا من الشمال بئر النترون في الصحراء الكبرى ومن الجنوب بحر الغزال ومن الشرق بحر النيل ومن الغرب مضيق ترجه وهو مضيق بين جبلين فاصل بينها وبين ودّاي وكان طولهـــا مسيرة ٣ اشهر على القوافل وعرضها مسيرة شهرين . وقد بنى السلطان تيراب سوراً من الطوب في ام درمان لا تزال آثاره ظاهرة هنـاك الى اليوم . ولم يخلفه على الملك ابنه اسحق كما دبّر من قبل بل خلفه :

٢٣ — السلطان عبد الرحمن اخوه ١٢٠١ : ١٢١٥ هـ — ١٧٨٧ : ١٨٠١م

فلقب باليتيم والعادل والرشيد قيل لقب باليتيم لأنه عند وفاة أبيه كان لا

يزال رضيعاً وبالعـادل لأنه كان عادلاً وبالرشيد لأنه ارسل الى « جلالة امير المؤمنين وسلطان السلاطين في الآستانة » هدية من العاج والريش فأرسل جلالته كتاباً يشكر له هديته ويلقبه بالرشيد وهو اللقب الذي عرف به في اختـام سلاطين الفور. وقالوا في تفصيل ولايته انه لما مرض أخوه تيراب كان يطلب العلم في بلدة كريو من اعمال دارفور وكان له هناك صديق يسمى الشيخ مالكاً من الفلّاته فأشار عليه بالذهاب الى أخيه بحجة عيـادته فاذا توفي تسنّت له الفرصة للملك فسار عبد الرحمن برأي صديقه وأدرك أخاه في باره قبل فلمـا سمع تيراب بقدومه فرح بـــه وقال : « احضروا اليّ ابن والدي لأراه قبل موتي فانه سلطان فور بعدي » فأحضروه اليه فترحب به وأمر له بهدية نفيسة ولما توفي قام أبناء السلاطين المرافقين لجيش تيراب فادّعى كل منهم الحق بالملك بعده الا عبد الرحمن فانه لم يقل شيئاً فعقـــد الأعيان ورؤساء الجيش مجلساً بحضرة العلماء وحلّفوا أبناء السلاطين على الكتاب انهم يرضون بالذي يختارونه لهم فاختاروا عبد الرحمن باتفاق الآراء لأنه كان رجلاً عادلاً صالحاً محبوباً من الرعية فنادوه الى المجلس وولّوه سلطاناً على دارفور ثم نادوا البـاقين واحداً واحداً وأخبروهم بولايته سلطاناً عليهم فبايعوه مضطرين .

وكان عبد الرحمن متزوجاً بجارية سوداء طيبة الاخلاق من قبيـــلة البيقو تسمى ام بوسه وكان يحبها محبة شديدة وقد أحضرها معه الى باره قبل فلم يتم الأمراء مبايعتهم له حتى حضر عبد من منزله فقـال ان سيدتي وضعت غلاماً هذه الساعة ففرح به عبـد الرحمن وقال فليكن اسمه محمد الفضل وهو الملك بعدي إن شاء الله . وكانت ولاية عبد الرحمن في رأس القرن الثـــالث عشر الهجري فقال اللهمّ اجعل هذا القرن لي ولذريتي من بعدي وكان كذلك .

ثم ان السلطان عبد الرحمن قام بالجيش الى الأبيّض فوضع فيهـا مقدوماً يرجع بأحكامه اليه واستطرد السير الى دارفور وكان عليها اسحق بن تيراب كما علمت فرفض الطاعة له وحاربه في عدة وقائع كان النصر فيهـا للسلطان عبد الرحمن وفي الواقعة الاخيرة أصابته رصاصة طائشة من رجال عبد الرحمن

فأصابت منه مقتلاً ولكنه بقي يومين حياً فدخل عليه عبـــد الرحمن قصد عيادته قيل فأغمض عينيه وقال له لا أريد ان أرى وجهك الى يوم القيـامة وبقي مغمض العينين حتى خرج عبـد الرحمن من الخيمة ففتحها ولم يمض الا القليل حتى مات فاستتب الملك لعبد الرحمن ونقل كرسي السلطنة الى الفاشر الواقعة على خور تندلتي على ٣٥ ميلاً من جبل مرّة فصارت الفـاشر عاصمة دارفور من ذلك العهد وبقيت الى انقضاء السلطنة .

وقد نال عبد الرحمن شهرة لم ينلهـا غيره من سلاطين الفور الذين تقدموه وكان له علاقـــة بمصر وفي ايامه انتشر العلم في دارفور واتسع نطاق التجارة وقويت شوكة الديانة الاسلامية لأنه كان عالماً ورعاً : وفي سنة ١٧٩٣ م زار السائح الانكليزي برون بلاد دارفور من طريق الاربعين .

ويظهر ان المماليك ضيقوا على القوافل التي كانت تأتي من دارفور وعطلوا التجارة بينها وبين مصر فلما دخل بونابرت مصر في أواخر القرن الثامن عشر ونكل بالمماليك كتب اليه السلطان عبد الرحمن يهنئه بفوزه عليهم وهـذا هو فحوى الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمـــد لله رب العالمين ، من سلطان دارفور السلطان عبد الرحمن الرشيد، الى المعظم سلطان الجيوش الفرنساوية ألف سلام.

أما بعد فنعلمكم ان خبر انتصاراتكم على المماليك وصل الينا فتلقيناه بغاية السرور وقد أخبرنا احد الافرنج الذين اعتنقوا الاسلام بحسن معاملتكم للأجانب فأرسلنا كتابنا هذا مع خبير القافلة يوسف الجلّابي وكلفناه ان يؤكد لكم صدق مودتنا التي نسأل الله دوامها ونحن نوصيكم بالخبير خيراً لتحموه هو وأتباعـه وعبيده ولكم منا ألف تحـية وسلام » اه . فكتب اليه بونابرت في الجواب ما معناه :

« ١٢ مسيدور من السنة السابعة للجمهورية الفرنساوية سنة ١٧٩٩ م .

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله ، الى السلطان عبـد الرحمن سلطان دارفور .

تناولت كتابكم وفهمت فحواه واعلموا ان قافلتكم قد وصلت في حين كنت متغيباً في بلاد الشام أعاقب اعداءنا وأدمّرهم والآن طلبي اليكم ان ترسلوا اليّ مع اول قافلة ألفي عبد من العبيد الأشداء المتجاوزين السنة السادسة عشرة من العمر اذ مرادي ان أبتاعهم لنفسي والامل ان توعزوا الى القافلة بسرعة القيام ومواصلة السير الحثيث وها أنا أمرت من يلزم بحمايتها ووقايتها حيث تكون».

(الامضاء) : « بونابرت القائد العام للجيش الفرنساوي »

٢٤ – السلطان محمد الفضل ابنه ١٢١٥ : ١٢٥٤هـ – ١٧٨٧ : ١٨٣٩ م الملقب بقمر السلاطين وكان اول اعماله انه حرّر قبيلة أمه أم بوسه البيقاوية ومنع اخذ الرقيق وبيعه منها . قيل انه عند توليه الملك كان خاله المسمى فزاري يرعى البقر في بلاده على ٥٠ ميلاً الى الجنوب الغربي من الفاشر فأرسلت أخته رسولاً تبشره بتولية ابنها على الملك فسار الرسول بالخبر على جواد مطهم وأطلق له العنان فما وصل الى فزاري حتى نهك الجواد التعب فسقط في الارض ميتاً وتقدم الرسول الى فزاري وقال له ابشر بالخير فان ابن اختك أم بوسه قد تولى عرش سلطنة دارفور منذ خمسة ايام وكان فزاري اذ ذاك يسقي البقر عند حوض الماء فطار فرحاً لهذا الخبر وضرب الحوض برجله ووزّع البقر على الحضور ثم أتى بعنكريب ونام عليه وقال للذين حوله « احملوني » فحملوه حتى أوصلوه الى الفاشر فولاه محمد الفضل الوظيفة المعروفة بملكة الخوال .

وكان عمر محمد الفضل عند توليه الملك ١٤ سنة فوكله أبوه الى رئيس خصيانه كرّة المعروف بلقب « ابو شيخ » وجعله قيماً عليه لأنه كان وزيراً صادقاً له وكان من الشجاعة وحسن الدراية على جانب عظيم فأقام كرّة في خدمة سيده محمد الفضل بالأمانة والاخلاص كما خدم أباه حتى حدث ما غيّره فانقلب عليه وذلك ان السلطان محمد الفضل أولم وليمة لكبراء دولته فجلسوا على الموائد فئات حسب مقاماتهم كل فئة على مائدة وكان ابو شيخ كرّة في

فئة الملوك فمر السلطان بالموائد لمؤانسة المدعوين على جاري العـــادة فلما مرّ بمائدة الملوك حيّاهم بالسلام فرد الملوك عليه السلام احسن ردّ أما ابو شيخ كرة فانه كان قد أكثر من الخمر وفقـد الواعز فالتفت الى السلطان مازحاً وقال له « تفضل معنا » ولم يكن من عادة سلاطين الفور الأكل مع احـــد فاغتاظ السلطان من دالة كرة وتطاوله وكان بيده عصى من الخيزران فضربه بهـا على أم رأسه ضرباً أليماً حتى كسّر العصى وطرده عن المائدة فانصرف كرة الى منزله من غير ان يفوه ببنت شفة ولكنه حقد على السلطان من ذلك العهد ولم يعد اليه حتى اجتمع الوزراء وترضوا السلطان فرضي عنه وأعطاه هدية فاخرة فرجع ولكنه بقي حاقداً عليه وأخذ يسعى في ثل عرشه وتولية أخيه باسي عوض الله مكانه فاغتـــال أكثر الملوك المخالفين له ولم يبقَ منهم سوى الملك ابراهيم ولد رماد ملك النحاس فدعاه يوماً الى منزله ليقتله فعلم بالمكيدة فاعتذر بعدم مقدرته على الذهاب وسعى حتى دخل على السلطان وقال له اعلم ان كرة لا يزال حاقـــداً عليك من يوم ضربته على المائدة وهو يسعى في ثل عرشك وتولية أخيه باسي عوض الله مكانك وقد استمال أكثر رجال الجيش اليه وقتل الملوك غيلة وهو يريد ان يقتلني لهذه الغاية فقال السلطان وما دليلك على ذلك قال نرسل احد الضباط ينفر من العساكر الى الآبار التي يستقي منها ليمنعوا عبيده الورود فاذا جاءك شاكياً كان لا يزال على الولاء وإلا فلا. فاستحسن السلطان هذا الرأي وأرسل ضابطاً الى آبار كرة فكان كلما وردها احد من جماعة كرة منعه الضابط وردّه خائباً فلما علم بذلك جمع عبيده ورجال الجيش الذين من حزبه وجاء الى الآبار فقتل الضابط ومن معه وتقدم الى منزل السلطان فدخله محارباً وكان الملك ابراهيم قد أعدّ الجيوش لمصادمته فاقتتل الفريقـان الى ما بعد الغروب فنادى الملك ابراهيم أيا شيخ كرة من وراء الجدار وقال له « حقاً انك امرأة لأنك لو كنت رجلاً لم تطلب الحرب ليلاً بلا ميعاد » فقـال كرة « كنت قد نويت ان لا اخرج من هذا المكان حتى أقتلك وأخلع سلطانك أما الآن وقد قلت اني فاجأتك ليلاً بلا ميعاد فلاقني صباح الغد الى ساحة القتال

شرقي المدينة » قال ذلـك وانصرف بعساكره الى منزله فأخذ كل فريق يجهز جيشه للغد .

وكان في جيش السلطان محمد الفضل رجل كهل مشهور بالفروسية والاقدام يسمى احمد ود جراب الفيل وقد حضر عدة وقائع حربية من جملتها واقعة السلطان أبي القاسم مع ملك ودّاي فأبلى فيها بلاء الأبطال وحضر الواقعة التي تقدم ذكرها فلم يُبدِ ما كان ينتظر منه بل كان كلما قابلته كتيبة من الفرسان أعرض عنها فلما جمع الملك ابراهيم رؤساء العساكر للنظر في قتال الغد كان ود جراب الفيل حاضراً فقال له الملك ما أصابك أمس يا ود جراب الفيل حتى أحجمت عن القتال أصحيح ما شاع ان كرة اشتراك بمئة رأس من الرقيق فتركت القتال فقال ود جراب الفيـل ألمثلي يقال هذا الكلام يا ملك ابراهيم أأنا ابيع ود السلطان عبد الرحمن بمئة رأس رقيق ولكن قل لي بماذا أحارب أبسيفي وقد اخذوه مني ووضعوه في خزينة سلاح السلطان أم بحصاني هـذا الضعيف النحيف الشبيه بالنعجة فان كنتم تحبون ان ترون مني حرب الرجال وتشاهدون بأعينكم ما اشتهر عني من البسالة والاقـدام فأرجعوا لي سيفي وهاتوا لي فرساً يحمل الكر والفرّ فأريكم غداً ما يسركم فأمر السلطان باحضار سيفه فأحضر اليه ثم أمر باحضار الخيول ليختار منها جواداً يعجبه قيل وكان ود جراب الفيل يقبض على ناصية الجواد ويجذبه بيده وهو جالس في الارض فيخرّ الجواد على ركبتيه من شدة الجذبة الى ان قبض على ناصية جواد فجذبه كما فعل بما تقدمه فنفض الجواد رأسه ورفع ود جراب الفيل حتى أوقفـه على قدميه فقـال ود جراب الفيل « هـذا جوادي الذي أركبه » ثم ركبه واستل السيف وقبّله والتفت الى أم السلطان وقال « اعلمي ان دارفور تكون بيد ولدك لا ينازعه فيها منازع قبل ظهر نهار غد ان شاء الله » ففرح الملك ابراهيم بذلـك وكان له ثلاثون ولداً من صلبه راكبين الخيول كاملي العدّة فأحضرهم الى ود جراب الفيل وقال له انت رئيس أولادي هؤلاء وأريد منكم

اذا التقى الجمعان في الغد لا تقاتلوا احداً غير كرة فاقصدوه حيث يكون وقاتلوه حتى تقتلوه .

فلما كان صباح الغد واصطف الفريقان للقتال برز ود جراب الفيل ومن معه من اولاد الملك ابراهيم قاصدين كرّة فاعترضهم اخوه باسي عوض الله فقتلوه وتقدموا الى كرّة فتلقاهم بقلب لا يهاب الموت وكان لابساً درعين من الحديد وعلى رأسه خوذة تغطيه وتغطي وجهه حتى كان لا يُرى منه الا عيناه فكانوا يضربونه بالسيوف فلم يتمكنوا منه وكان هو ايضاً يكرّ عليهم ويهاجمهم مهاجمة الاسود فلم يصب منهم مقتلاً لأنهم كانوا متدرعين مثله فاحتال بعضهم عليه بأن ركب على فرسه من ورائه وجندله فأطبق الفرسان عليه ونزعوا خوذته ثم حزّوا رأسه وحملوه الى السلطان فلما رأى جيش كرّة ما جرى لشيخهم ولّوا الادبار منهزمين فتبعهم جيش السلطان ونكل بهم .

وكان من عادة كبار الخصيان في دارفور ان يقتنوا زوجات من الأرامل اللواتي لهنّ اولاد فيتبنون الاولاد لتنتفي عنهم مذلة الخصي ولو كان ظاهراً وكان لأبي شيخ امرأة ولها ابن يسمى شيل فوت (أي خذ واذهب) وهو من الفرسان المعدودين وكان السلطان محمد الفضل يودّ ان يجعله من أتباعه وأعوانه فأوصى جيشه قائلاً : اذا انهزم جيش كرة وظفرتم بشيل فوت فلا تقتلوه بل ائتوني به حياً فلما كان انهزام جيش كرة ظفر بعض الفرسان بشيل فوت فتصدى لهم فأخبروه بوصية السلطان لهم ولما أمن جانبهم جاء معهم الى السلطان فأمّنه وعفا عنه. ثم التفت اليه الملك ابراهيم وقال له : « يا شيلفوت ألأجل فضلة الطعام تحارب مثل هذه الحرب ؟ » قال ذلك لأن شيلفوت كان يأكل فضلة طعام كرّة على عادة الابن مع ابيه في السودان وكان من عادة الملك ابراهيم كملك النحاس ان يوزع طعام السلطان على الجيش فأجابه شيلفوت على الفور : » انت حاربت لأجل توزيع الطعام أفلا احارب أنا لأجل أكله ؟ ».

واستتب الملك للسلطان محمد الفضل بعد قتل كرّة ولم يعد له معارض فتفرغ لتأديب العرب الذين خرجوا عن طاعته وهم بنو هلبه والعريقات والرزيقات

اما بنو هلبه والعريقات فقد أخضعهم بالسهل اما الرزيقات فكانوا قبيلة قوية وقد طالما عصوا سلاطين الفور واستقلوا عنهم فصمم السلطان محمد الفضل على الإيقاع بهم فجمع جيشاً عظيماً وأحاط ببلادهم إحاطة السوار بالمعصم وحصرهم وأثخن فيهم وقتـــل كل رجل فيهم ولم يستحي الا النساء والاولاد فقسمهم نصفين فأرسل النصف الواحد الى ارض العريقات وأسكنهم إياها وأبقى النصف الآخر في أرضهم وأعاد لهم قسماً من ماشيتهم فأعطى كل ارملة قتل زوجهـا بقرة حلاّبة وثوراً .

وحكي عن السلطان محمد الفضل نادرتان احداهما مع احمد ود عدلان آخر وزراء الهمج بسنار تدل على كرمه والثـانية مع السلطان آدم سلطان ودّاي تدل على شهامته . اما نادرته الاولى فهي ان جعلياً التقى بود عدلان في البرية خارجاً للقنص فقبض على لجام فرسه وقال له ايهـا الملك اني رجل فقير وقد جاوزت سن الاربعين ولم أذق رائحة البخور يريد بذلك انه لم يتزوج بعـــد لعدم مقدرته على الزواج فقال له الملك تعال معي الى سنار فأعطيك ما قسمه الله لك فقال له الجعلي لا أتركك حتى تعطيني مـا قسمه الله لي الآن لأني اذا ذهبت معك الى سنار دخلت منزلك وشغلت عني ولم يدخلني اليك احد . ولم يكن مع ود عدلان في ذلك الحين الا فروة من الجلاد مفروشة فوق سرج فرسه فأعطاه إياها وقال له أدلك على واسطة تنال بهـا الغنى : تذهب بهذه الفروة الى السلطان محمـد الفضل سلطان دارفور وتقص عليه قصتك وتعطيه الفروة فإن كان الله قد أغناك فهو يغنيك فحمل الجعلي الفروة وسار حتى وصل دارفور واستأذن فدخل على السلطان محمد الفضل وقصّ عليه قصته مع محمد عدلان وأعطاه الفروة فنادى السلطان محمـــد الفضل احد وزرائه وقال له خذ هذا الرجل الى منزلك وأكرمه غاية الاكرام وائتني به في الغد ففعل الوزير كما أمره السلطان وفي الغد حضر الرجل بين يدي السلطان فسأله عما قاله له ود عدلان فقال : « قال لي خذ هذه الفروة الى السلطان محمـد الفضل فإن كان الله قد أغنـــاك فهو يغنيك » فأمر السلطان وزيره بأن يعطيه اربع مئة رأس من

الرقيق والابل والبقر والغنم من كل صنف مئة رأس ويأخذه الى منزله فيكرمه ويعود به اليه في اليوم الثاني ففعل الوزير كما أمره السلطان ولما مثل الجعلي امام السلطان في اليوم الثاني سأله ايضاً عما قاله له ود عدلان فأعاده له فأمر له بأربع مئة رأس اخرى من الاصناف الاربعة المذكورة . وهكذا بقي الجعلي يتردد على السلطان والسلطان يأمر وزيره ان يعطيه ما أمر له في اليوم الاول على عشرة ايام حتى اجتمع عند الجعلي ٤٠٠٠ رأس من كل صنف ألف فلما أتى به في اليوم الحادي عشر وسأله السلطان عما قاله له ود عدلان قال : « أطال الله بقاء مولاي وأيده بالنصر على الأعداء اني قد اغتنيت غناء الأبد وقد نسيت الذي قاله لي ود عدلان » فضحك السلطان لقوله وقال لوزيره : خذه الآن وسلمه ما وهبناه إياه وارسله مع الحرس اللازم الى بلاده وأما الاصناف التي أعطيناه إياها ولا يمكن نقلها الى بلده كالبقر والغنم فبعها واعطه ثمنها ففعل الوزير ما أمره السلطان وخرج الجعلي بهداياه من ارض دارفور شاكراً حامداً وعاد الى وطنه فتزوج من اشتهاها من نساء بلده وشم رائحة البخور !

اما نادرته الثانية مع السلطان آدم سلطان ودّاي وهو السلطان الثامن بعد السلطان عبد الكريم فهي ان السلطان محمداً الفضل بلغه ان عند السلطان آدم فرساً سريع الجري مشهوراً بالسبق فأرسل اليه في طلبه فجمع السلطان آدم وزراءه وشاورهم في الامر فقالوا له هذا « عشم فَسِل » أي هذا رجاء باطل يشفّ عن احتقار واستخفاف فقال اذاً ما الرأي ؟ فقالوا الرأي عندنا ان تكتب له وتقول اذا ازوجتني بأختك أرسلت اليك الفرس فكتب السلطان آدم هذا الجواب ودفعه الى الرسول فلما قُرىء الجواب للسلطان محمد الفضل طار صوابه من شدة الغضب قيل وكان بيده اليسرى سيف فلما وصل القارىء الى قوله اذا ازوجتني بأختك جعل ينقر السيف بسبابة يده اليمنى حتى انكسر الظفر وسال منه الدم وهو لا يدري وعزم على التنكيل بالسلطان آدم وارغام أنفه فسأل الحاضرين أتعرفون احداً هنا من أهل ودّاي ولو انه من عامتهم

لنوليه على وداي بدل هذا السلطان فقال له بعضهم عندنا يا مولاي في بلدة جديد الرأس الفيل جزار من دار وداي يسمى محمد شريف وربما كان من العائلة المالكة مع انه جزار لأن آدابه وأخلاقه تدل على كرم اصله وفي وجهه أثر النعمة والعز فقال ائتوني به في الحال فأتوه به فقال له السلطان من انت يا رجل وما أتى بك الى هذه البلاد قال يا مولاي «انا محمد شريف ابن السلطان صالح بن خريفين شقيق السلطان آدم سلطان برقو الحالي وقد فررت من وجه اخي السلطان آدم خوفاً على بصري لأن من عادة سلاطيننا كما يخفى على مولاي انه اذا تولى احدهم الملك قلع عيون اخوته وجميع أقاربه الذين يخاف شرهم حتى لا يبقى له مزاحم على الملك ففررت الى هنا وفضلت ان أعيش جزاراً في بلاد الغربة وانا أبصر على ان اعيش في بلادي اميراً بلا بصر » . فقال السلطان محمد الفضل فهل لك ان تكون سلطاناً على بلادك بدلاً من اخيك فقال له ومن أين لي ذلك يا مولاي قال لك ذلك مني ان شاء الله . ثم أمر فألبسوه حلة السلطنة وسيره الى وداي بجيش عرمرم وعليه اثنان من وزرائه واربعة من اولاده ومنهم حسين الذي تولى السلطنة بعده فسار محمد شريف بالجيش حتى وصل حدود وداي فالتقاه السلطان آدم بجيوشه وحصل بين الجيشين عدة مواقع دموية قتل فيها خلق كثير من الفريقين ولكن غلب فيها جيش السلطان محمد الفضل واخذ السلطان آدم أسيراً وغنم نحاسه وولى محمد شريف سلطاناً على وداي وعاد الى دارفور ومعه السلطان آدم اسيراً فبقى السلطان آدم في دارفور مدة ثم تمكن من الفرار الى وداي فأرسل السلطان محمد شريف عسكراً وراءه فتعقبه وقتله وبقي لا ينازعه احد الى ان مات . وتولى بعده على وداي السلطان علي ابنه ثم السلطان يوسف اخو علي فالسلطان ابراهيم بن يوسف فالسلطان احمد الغزالي بن علي فالسلطان محمد دود مرة اخو ابراهيم وهو السلطان الحالي .

هذه رواية البعض في سبب الحرب بين السلطان محمد الفضل والسلطان آدم ، وقال بعضهم ان رواية الفرس لم تكن بين السلطان آدم والسلطان محمد

الفضل بل كانت بين السلطان علي المذكور وبين معاصره من سلاطين برنو وان السلطان علياً هو الذى طلب الفرس من سلطان برنو فأجابه سلطان برنو بما هو منسوب الى سلطان وداي قالوا وأما سبب الحرب بين دارفور وودّاي فهو ان محمد شريف المذكور جاء الى السلطان محمدالفضل يستنصره على اخيه فنصره لأنه كان أميل الى دارفور من اخيه السلطان آدم .

وفي ايام السلطان محمد الفضل ارسل محمد علي باشا ابنه اسماعيل بجيش جرّار لفتح سنار وصهره الدفتردار لفتح كردوفان وكان في كردوفان مقدوم من قِبل السلطان محمد الفضل يقال له المقدوم مسلّم فتغلب عليه الدفتردار وامتلك البلاد منه بعد واقعة شديدة على ما سيجيء بالتفصيل في الفتح المصري قيل وكان السلطان محمد الفضل واجداً على المقدوم مسلم فلم يشأ ان ينصره فلما علم انه قُتل أرسل جيشاً تحت قيادة ابي اللكيلك فخرج له جيش الحكومة فالتقاه في سودره بين فوجه والأبيّض وحدثت واقعة شديدة حارب بها جيش الفور حرب الرجال حتى قتل قائدهم فانهزموا راجعين الى الفاشر فخاف السلطان محمد الفضل على دارفور وأخذ من ذلك الوقت يحشد الرجال ويستكمل العدة محافظة على سلطنته . وقيل انه كتب « أسماء » على نية منع الحكومة المصرية من الدخول الى بلاده وجعلها في قماقم من نحاس ودفنها في الصحراء الشرقية والشمالية ولم يخف على سلطنته من الجنوب حيث دخل الزبير باشا كما سيجيء .

وكان لمحمد الفضل أخ يكرهه ويزاحمه على الملك يسمى أبا مَدْين ففرّ الى مصر وأخذ يهوّن على محمد علي فتح دارفور فأرسله محمد علي الى كردوفان للسعي مع مديرها في ذلك فبقي في الأبيّض الى ان توفي .

ولما كانت سنة ١٢٤٥ هـ ١٨٣٠ م ارسل محمد علي باشا كتاباً الى محمد الفضل يدعوه فيه الى التسليم فأجابه محمد الفضل بكتاب أخذنا صورته عن نسخة بيد الزبير باشا بمصر وهذا نصّ الكتاب :

« الحمد لله الذي حكم بين عبـــاده بالحق قطعاً سبحانه يجزي كل نفس بما تسعى واليه المعاد والرُّجعى وهو حسبي وكفى .

« من حضرة من أمّن الله به البـلاد وجعل ملكه مسموعاً من كل احد وصيّره في قلوب الأعداء ناراً تستعر وجمراً يتوقد وجعل الله على يده ضرب من طغى وتمرّد ومن ضلّ وتعنّد وهو شاب صغير السن ولو صار كهـــلاً لخضعت له الانس والجن وقد اشتهر بالكرم والجود وحـــال بعوارضه أنجم السعود وإن قامت الهيجـــاء بنفسه يجود ويصل الى الأعداء بقواطع الهنود وينتصر بعون الله على كل موجود !!! هو مولانا السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن الرشيد أعزّه الله .

« الى حضرة الكوكب العالي والنير المتلالي بهجة الأنام وقدوة الليـــالي صاحب العزّ والافتخار أخينا العزيز محمد علي باشا سلمكم الله تعالى من المحذورات واستعملكم بالباقيات الصالحات بمنّه وكرمه .

« اما بعد فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته لديكم قد وصلنا جوابكم أوصلكم الله الى رضوانه وفهمنا خطابكم ومقتضى جوابكم وكل كلمة من المرقوم يستحق جوابها المفهوم ولكن يكفي من ذلك كله كلام الحيّ القيوم حيث قال : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » ... « فمن كان يرجو لقـاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه احداً » ... انكم طالبون دولتنا وطاعتنا وانقيادنا لكم هل بلغكم اننـــا كفار وجب لكم قتالنا وأبيح ضرب الجزية علينا أوغرّكم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية فنحن السلاطين وهم الرعية . أورد لك دليل من الله تجـد فيه ملكك أم ورد لك حديث من رسول الله تجد فيه تمليكك أم خطر لك خاطر من عقلك بأن لك رباً قوياً ولنا رب ضعيف الحمدلله نحن مسلمون وما نحن كافرون ولا مبتدعون ندين بكتـاب الله وسنة رسول الله ﷺ ونؤدي الفرائض ونترك المحرّمات ونأمر بالمعروف وننهي عن المنكر والذي لم يُصلّ نأمره بالصلاة والذي لم

يزك" نأخذ منه الزكاة ونضعها في بيت المـال ولا ندخرها ونردّ الأمانات الى أهلها ونعطي كل ذي حقّ حقه حتى دانت لنا القبائل العظام ومن أتى دولتنا يرجع مكرماً باذن الله تعالى ولو اشتدت بـه الريح في يوم عاصف ألم ترَ الى قوله ﷺ « لو بغى جبل على جبل لدكّ الباغي » أما علمت ان دارفور محروسة محميـة بسيوف قطع هندية وخيول جرد أدهمية وعليها كهولة وشبان يسرعون الى الهيجاء بكرة وعشية ! أما علمت ان عندنا العبـاد والزهاد والأقطاب والاولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات في وقتنا هـذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم فتصير رماداً ويرجع الملك الى أهله ويكفي من بعـد ذلـك والله يكفي شر الظالمين . كتبـه الفقيه محمد ود عماري من متخرجي الأزهر وكان مدرساً للسلطان محمد الفضل وأولاده بالفاشر اه» وتوفي السلطان محمد الفضل سنة ١٨٣٨ وخلفه :

٢٥ – السلطان محمد حسين ابنه ١٢٥٤ : ١٢٩٠ هـ – ١٨٣٩ : ١٨٧٤ م

وكان معاصراً للمغفور لهما سعيد باشا واسماعيل باشا فبادلهما الهدايا والمكاتبات فكان يهدي اليهما الخصيـان والريش والسن وغير ذلـك من تحف دارفور وهما يهديان اليه النفيس من تحف مصر . وقـد أرسل له سعيد باشا مركبة برأسين من جياد الخيل وخيماً وتحفاً كثيرة أما المركبة فانه لم يركبها قط بل امر سائقها عند وصولها بركوبها امامه فذهب بهـا السائق من بيت السلطان الى الجامع مسافة فرسخ وعاد بها الى بيت السلطان فأمر السلطان بوضعها في الاسطبل فبقيت الى الفتح المصري وأما الخيل فقـد قيل له انها مسحورة فتركهـا للعلف نحو ٥ سنين ثم وهبها لبعض خاصته . وأهدى اليه اسماعيل باشا شالات كشمير وسروج ذهب وسبح كهرمان وخرز سوميت وغيرها من تحف مصر المستحسنة في دارفور . وكان السلطان حسين جواداً كريماً محباً للرعية . حدثني الشيخ علي بك الخبير من مشاهير التجار بدارفور وقد عاصره قـال : دخلت يوماً على السلطان حسين للسلام عليه وأخذت له

معي هدية نفيسة من تحف مصر تساوي ألفي غرش فأمر لي بمئتي بعير من أكرم الابل .

ولما كانت سنة ١٨٥٦ م كف بصره فطلب التحفظ على ملكه فألف جيشاً ينيف على ١٠٠٠٠ مقاتل وسلحهم بالأسلحة النارية فكان هو اول من استعمل الاسلحة النارية في جيش دارفور وقد كان اعتماد السلاطين قبله على السيوف والحراب والدرق والسكاكين والنشاب . وكان للسلطان حسين أخت تسمى ايا باسي زمزم اشتهرت باتساع الثروة وكان لها نفوذ تام في السلطنة .

وفي ايام السلطان حسين كانت « واقعة القرطاس » المشهورة بين عربان المعالية وعربان حمَر وذلك ان عربان المعالية قطعوا الطريق على قافلة آتية من مصر الى دارفور وقتلوا تجاراً مشهورين بأهل زريبة عبد العزيز وأخذوا اموالهم من سكر وأنسجة ونحوها فغضب السلطان حسين من تعديهم وكان بينهم وبين عربان حمر عداوة قديمة فأرسل السلطان في طلب الشيخ مكي ود منعم شيخ عربان حمر وقال له اني أبحت لك دماء المعالية وأموالهم فجمع الشيخ مكي رجاله وحلفاءه وغزا عربان المعالية وكانوا مشهورين بالصبر والثبات في الحروب فحدث بين القبيلتين واقعة دموية شديدة كان النصر فيها لعربان حمر فقتلوا المعالية شرّ قتلة . قيل وقد سميت هذه الواقعة بواقعة القرطاس لأن الصحارى امتلأت من قرطاس السكر والانسجة التي نهبها المعالية من التجار .

٢٦ – السلطان ابراهيم ١٢٩٠ : ١٢٩١ هـ – ١٨٧٤ : ١٨٧٥ م

وهو آخر سلاطين الفور وكانت مدة ملكه سنة وسبعة اشهر وأربعة عشر يوماً . قيل لما مرض السلطان حسين وعلم بدنوّ أجله أراد ان يضمن الملك من بعده لابنه ابراهيم لأنه كان يحبه اكثر من جميع اخوته ولم يكن اكبرهم بل كان ابو البشر اكبرهم فانتدب اثنين من أمنائه وهما الامين بخيت من قبيلة الميدوب ابن الوزير آدم بوش كبير الامناء والامين « خير قريب » من عبيد الفرتيت امين الخزينة والاسلحة وأتى بالمصحف المسمى بسوار الذهب وحلفهما

عليه بأن يوليا ابنه ابراهيم بعد وفاته . وكان احمد شطة امير الصعيد المقيم في دارا يحب ان يولي الامير أبا البشر لأنه كان متزوجاً بشقيقته وكان له صديق في الفاشر يسمى الشيخ احمد الدردير فلما اشتدّ المرض على السلطان حسين أرسل الدردير يخبر الوزير احمد شطة فأتى الفاشر ونزل في منزل احمد الدردير واستأذن فدخل على السلطان وسلم عليه فقال له السلطان كيف تركت مركزك وجئت الى هنا بلا اذني قال بلغني يا مولاي خبر مرضك فأسرعت بالحضور لعيادتك فقال له ارجع على الأثر ولا تبيتنّ هنا فقال سمعاً وطاعة ولكنه علم ان السلطان مائت قريباً فتربّص في الفاشر ليرى ما سيكون من الامر بعد وفاته .

وعلم الوزيران المار ذكرهما قصد احمد شطه فلما توفي السلطان أخفيا خبره وأرسلا الى احمد الدردير يقولان ان السلطان حسيناً يطلب حضورك لتكتب له حجاباً فلما حضر قبضا عليه وقيداه بشعبة وخبآه في غرفة منفردة ثم أرسلا يطلبان الامير ابراهيم بن السلطان حسين فأجلساه على كرسي السلطنة وطلبا الوزير احمد شطه فحضر وسلم على السلطان ابراهيم وهو يظن انه السلطان حسين فأخبراه اذ ذاك بموت السلطان حسين ووصيته لهما فما وسعه الا التسليم وقال : « ما استخدمنا السلطان حسين الا لننصره وننصر من يحب وحيث ان السلطان ابراهيم هو ابن السلطان حسين وقد تولى بإرادة ابيه فسمعاً وطاعة لأمره » فقال السلطان ابراهيم : « أما وقد أظهرت الطاعة فقد ثبّتك على مركزك في داره تقيم فيه كما كنت في حياة أبي كل العمر » فدعا له وحلف له يمين الطاعة ثم أرسلوا الى الوزراء واحداً واحداً فحلفوا له يمين الطاعة ودفنوا السلطان حسيناً في اليوم الثالث من وفاته . وأما الدرديري فان السلطان ابراهيم ارسله الى كوبى وحبسه حبس عين بمنزل الحاج محمد صالح ثروة الجعلي المار ذكره فبقي الى ان أطلقه الزبير باشا بعد فتح الفاشر .

وقد اشتهر السلطان ابراهيم بالكرم كأبيه . حدثني علي بك الخبير السالف الذكر قال : كنت أعرف السلطان ابراهيم شخصياً قبل توليه الملك فلما تولى

كنت في مصر فأخذت له هدية ودخلت للسلام عليه فوجدت عند بابه قطيعاً من الابل فيه خمسون بعيراً فقلت في نفسي إن كان هذا السلطان كأبيه في الكرم تكون هذه الابل لي اليوم وكان كذلك فاني لم أنصرف من مجلسه حتى أمر لي بها فخرجت شاكراً حامداً .

وبقي السلطان ابراهيم نافذ الامر والنهي في دارفور الى ان قتله الزبير باشا في بلدة منواشي في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ — ٢٤ اكتوبر ١٨٧٥ م في واقعة دموية شهيرة وكان في قتله زوال سلطنة الفور ودخولها في حوزة مصر على ما سيجيء .

وبعد استيلاء الحكومة المصرية على دارفور ألقت القبض على عدة أمراء من ذرية سلاطين الفور وارسلهم مع بعض الأعيان الى مصر فأسكنتهم في الحي المعروف بسوق السلاح تحت القلعة وأجرت لهم « المرتبات » فعاشوا براحة وسلام الى هذا اليوم . وبينهم الامير عبد الحميد ابن السلطان ابراهيم و ١٩ آخرون من أبناء السلاطين .

وكان في جملة الأعيان المرحوم الشيخ الطيب إمام جامع السلطان ابراهيم فتوفاه الله في مصر القاهرة في ٢١ اوغسطوس سنة ١٩٠٢ على نحو ستين سنة من العمر وكان رحمه الله رحمة واسعة عالماً صالحاً ذكياً طيب الخلق نقي القلب وقد حفظ في ذاكرته تاريخ دارفور برمته فأخذت عنه معظم ما رويته هنا عن تاريخ السلاطين وهو اقرب الى الرواية منه الى التاريخ ولكنه افضل ما روي عن سلطنة الفور الى اليوم ما عدا الذي رواه سلاطين باشا في كتابه « النار والسيف في السودان » ونقله « المقتطف » الأغرّ الى العربية فانه يجعل السلطان كور اول سلاطين الفور . ثم يذكر بعده السلطان احمد المعقور الذي لم يملك في روايتنا. ثم السلطان دالي الذي هو في روايتنا احد كبار الخصيان. ثم السلطان صولون . ومن هذا السلطان فنازلاً الى السلطان ابراهيم تتفق سلسلتنا مع سلسلته ولكنها تختلف اختلافاً طفيفاً في تفصيل اخبار بعض السلاطين .

هذا وقد ظلت بلاد دارفور في يد الحكومة المصرية الى ان كانت الثورة المهدية فدخلت في حوزة المهديين. ولكن قام في أثناء ذلك من ذرية السلاطين الذين بقوا في البـلاد من ناصب الحكومة العداء ثم المهدية وحاولوا استرجاع السلطنة فخذلوا .

والذي قام منهم في عهد الفتح الاول :

الامير حسب الله ابن السلطان محمد الفضل .

الامير بوش اخوه .

الامير هارون ابن الامير سيف الدين ابن السلطان محمد الفضل .

الامير دود بنقا ابن الامير بكر ابن السلطان محمد الفضل .

وأما الذين قاموا في عهد المهدية فهم :

الامير يوسف ابن السلطان ابراهيم .

الامير ابو الخيرات اخوه .

الامير علي دينار ابن الامير زكريا ابن السلطان محمد الفضل : وهو القائم الآن بأمر دارفور على جزية يدفعها للحكومة السودانية وقد جاءها بعد واقعة ام درمان وسيأتي ذكر هؤلاء الأمراء وما كان من أخبارهم بالتفصيل في تاريخ السودان الحديث .

الفصل الثاني

في

حكومة سلطنة الفور وبعض أخبارها

رجال السلطنة : اما حكومة سلطنة الفور فكانت من النوع الملكي المطلق. وكان السلطان سليمان الاول لما أخضع ملوك البلاد على مـا مرّ قد خلعهم من مناصبهم وولى على البلاد نوّاباً من أهلهـا وجعل مع كل نائب عدة شراتي او مدراء ومع كل شرتاي عدة دمالج او مأمورين ومع كل دملج عدة مشايخ بلد.

وبقي هذا النظام معمولاً به الى ايام السلطان موسى فرأى عدم الاخلاص من النواب الوطنيين فعيّن عليهم اربعة مقاديم من رجال حاشيته الأخصاء في كل جهة من الجهات الاربع مقدوماً وجرّد النواب من السلطة الا انه أبقـاهم في مراكزهم يحكمون بالاسم فقط واستمر هذا النظام الى انتهاء السلطنة .

وكان تعيين المقـدوم بفرمان خاص يُقرأ على النواب والشراتي والدمالج ومشايخ البلاد والعربان واصحاب الحواكير وغيرهم . ولباس المقدوم كلبـاس السلطان وإكرامه في ناحيته كإكرام السلطان وحكمه نافذ في كل القضايا حتى في القتل الا في بعض الاحوال الخاصة فانه يرجع في حكمه الى السلطان .

اما رجال حاشية السلطان الذين بيدهم سياسة البلاد المركزية فأهمهم :

« الوزير » : وعليه ادارة شؤون البلاد سياسياً وادارياً وحربياً .

« وابو شيخ » : وهو كبير الخصيان ومقامه اكبر مقام في السلطنة اذ هو المرجع الاعلى لقانون دالى الذي هو القانون العرفي في البلاد وسيأتي ذكره. وله الفصل في الخلاف الذي يقع في حرم السلطان وهو مقدوم الشرق رسماً والمحافظ على نحاس السلطنة ومن رجال الادارة المركزية : ملك النحاس وملك دادات السلطان وملك خوال السلطان وملك الفاشر او محافظها وملك الجباة وملك الحدادين. وكان لكل سلطان من سلاطين الفور وكيل رسمي من ذرية السلطان شاو دورشيت يسمى « الكامنة » . وفي دار السلطنة ممن بيدهم الحل والعقد الميارم اخوات السلطان والحبوبات جدّات السلطان . وفيها رهائن النواب المسلمين ورهائن ملوك المجوس السبعة المار ذكرهم وكان كلٌ من هؤلاء الملوك يرسل وليّ عهده ليكون رهينة عند السلطان فيجعله السلطان في خدمته ويعوّده على طاعته ويعلمه القراءة والكتابة حتى اذا ما مات الملك أعطى السلطان وليّ عهده كسوة فاخرة وعكازاً مفضضاً وطاقية مقصبة بقرنين ونعلين ونقارة نحاس وولّاه بفرمان خاص على بلاده في مكان سلفه . وكان على كل ملك من هؤلاء الملوك جزية سنوية معلومة من الرقيق والسمن والعسل .

الحواكير والعربان : وقد عمل « ١٧ – السلطان موسى » بالنظام المشهور في الشرق في ما يتعلق بملكية الاراضي فجعل البلاد كلها ملكاً للسلطان وقسم بلاد الحضر الى « حواكير » او اقطاعات ووزعها على أهله وأخصّائه وكبار قومه بحجج مختومة بختمه فعاشوا بريعها هم وأهلها المزارعون . وكذلك قسّم قبائل البادية فخصّ كل قبيلة بأمير من أبناء السلاطين او بعين من الاعيان تجبي له زكاتها . وجمع السلطان نصيبه من الزكاة والفطرة والعشور حسبما يفرضه الشرع الاسلامي وكان المقاديم يجمعون الزكاة من البادية وملوك الجباة يجمعون الفطرة والعشور من الحضر وربما تنازل السلطان عن نصيبه في الحاكورة او

القبيلة فأعطى صاحبها « حجة بالجاه » فلا يقربه احد من الجباة او المقاديم . وقد جرى على هـذا النظام جميع السلاطين الذين أتوا بعد السلطان موسى الى انقضاء السلطنة .

قانون دالي : وكان القضاء في دارفور شرعياً وهو المشروع بالكتـاب والسنة او عرفيـاً وهو المشروع بالعرف وقد جمعت الاحكام العرفية كلها في كتاب واحد عرف « بقانون دالي » وهو بمثابة قانون الجزاء عندنا . وكان القائم بتنفيذه المقاديم ومن هم دونهم من الحكام بالاتحاد مع اصحاب الحواكير والقبائل . والقاضي الأعظم الذي يُرجع اليه في هذا القانون هو كبير الخصيان الملقب بأبي شيخ كما مرّ . اما لفظ دالي فهو في لغـة الفور بمعنى لسان ويُراد بقانون دالي لسان السلطان او أوامره. على ان بعض الرواة يجعل دالي سلطاناً من سلاطين الفور المتقدمين كما سيجيء .

ومن أحكام هـذا القانون : ان الملك يكون وراثياً للابن الاكبر الا اذا كان الاكبر غير لائق للاحكام فيولون غيره ممن فيه اللياقة من العائلة المالكة. وقصاص السارق غرامة ست بقرات او ما هو بثمنها فاذا لم يقدمها حُبس الى ان يفتديه أهله . وقصاص القـاتل القتل اذا كان القتل عمداً والا فدفع الدية مئة بقرة اذا كان من البقارة او مئة بعير اذا كان من الأبالة. وأما الزاني فإن زنى بمحصنة فغرامته ٦ بقرات او بأيّم فبقرة واحـدة او ببكر فكل منهما يغرم بقرة . وقصـاص الضارب فإن كان في الضرب جرح فغرامة ثوب من الدمور وإن لم يكن جرح فنصف ثوب وهكذا جزاء الشاتم. وقصاص شارب الخمرة الجلد ثمانين جلدة وكسر أواني الخمرة في بيته ومع ذلك فهم لا ينقطعون عن تعاطي الخمرة لأنهم مولعون بشربها. حكي ان رجلاً من اهل دارفور طاب له شرب « المريسة » حتى لم يمكنه الانقطاع عنها مع تكرار وقوع الحدّ عليه فحفر له غاراً تحت الارض وسقفه سقفاً متيناً وجعل له باباً ضيقاً وصار كلما أحبّ شرب المريسة ينزل الى الغـار فيشرب حتى يسكر ثم يصعد على سطح الارض ويبقى على ذلك حتى سمع حاكم البلدة به فباغته في الغار وهو يشرب

فقال الرجل لا حكم عليّ هنا فان الحكم لكم على ظاهر الارض اما الحكم في باطن الارض فلله . واذا حصل حريق في الصحراء في العشب الذي ترعاه المواشي غرّمت أقرب بلدة الى الحريقة على حساب بقرة لكل طول درقة وذلك سواء كانت الحريقة من اهل تلك البلدة أم من طارىء مفاجىء والمراد بتعميم هذه الغرامة منع الناس عن إحراق الزرع وتحريضهم حتى اذا ما شبّت حريقة في جوارهم أسرعوا الى إطفائها في الحال لئلا تتسع فيتسع الجزاء عليهم.

وفي دارفور خرافة قديمة عند بعض العجائز مؤدّاها انه لا يخصب لهنّ زرع الا اذا قتلنَ شخصاً مسموماً بسمّ حية ولكن قانون دالي يعاقب على هذه الجريمة بأعظم عقاب وذلك بتصدير مال القاتلة الى خزينة السلطنة وإحراق بيتها ثم لفها بحصير من شوك وضربها بالعصي الى ان تموت .

اما محصول « الدالي » فنصفه للسلطان والنصف الباقي لأصحاب الحواكير والمقاديم والشراتي على نسبة معلومة .

دخل السلطان وخرجه : اما دخل السلطان الذي كان ينفق منه على بيته وأخصائه وجنوده فالعشور والفطرة من الحضر ، والزكاة من البادية ، وعشور البضائع من التجار، ونصيبه من قانون دالي ، والضرائب على التجار والحدادين « والنفوس » ، ومن الهدايا التي كانت تأتيه من الحكام وأصحاب الحواكير والتجار اذ لم يكن يدخل للسلام عليه احد من رعيته من موظفين وأعيان وتجار الا بهدية نفيسة تعرف « بالسلام » من الرقيق والابل والخيل والبقر والغنم والتكاكي والطرق والطاقات والذهب والفضة والعسل والسمن والسن والريش .

اما دخل المقاديم والشراتي والدمالج فمن نصيبهم من محصول دالي والهدايا ومرتبات اصحاب الحواكير ومن حواكيرهم الخاصة .

وكان سلاطين الفور يكرمون رجالهم الذين يصدقونهم الخدمة حتى كانوا يزوّجونهم بناتهم ويمهرونهم الحواكير والعربان. وهذه هي صورة حجة حاكورة

مهرها السلطان حسين لصهره احمد بن عيسى من أعيان دارفور عند تزويجه بابنته الميرم فاطمة ام ادريس . ويليها حجة « عربان » مهرهم ايضاً لصهره ثم حوّلها صهره لزوجه وابنته :

« من حضرة امير المؤمنين وخلاصة الاكرمين خادم الشريعة والدين الواثق برب العالمين سيدنا ومولانا السلطان محمد الحسين المهدي ابن السلطان محمد الفضل على ضريحه سحائب الخير والرضوان آمين .

« الى حضرة كل من يقف على هذه الوثيقة وينظر ما فيها من الحقيقة من الأمراء والوزراء والملوك وأبناء السلاطين والميارم والحبوبات والقضاة والجبايين والشراتي والمكاسين والدمالج وغيرهم من سائر اهل هذه الدولة من ذوي الشوكة.

اما بعد فالذي نصيره بشرف علمكم من قبل حاكورة « نعمة » التي كانت سابقاً بيد الملك كرتكيله متاعاً ثم بيد الملك عبد الله كرقاش متاعاً ثم بيد المقدوم عبد العزيز متاعاً ثم بيد جدّتنا الحبوبة والدة سيدنا المرحوم متاعاً اني الآن تفضلت وأعطيت وأوهبت وصدقتها لصهرنا الحاج احمد بن عيسى برقيقها هبة مختارة وملكتها إياها ملكاً تاماً ثم وجهت لحيازتها ابراهيم المقام من طرف الامين صالح وأمرت المقدوم عبدالعزيز ان يبعث له من طرفه احداً يذهب معه فبعث له الملك هرون ابن الفقيه عبد الله فذهبا لتلك الحاكورة وطافا بها من كل الجهات وحدداها ... فهذه الارض التي شملتها هذه الحدود أقطعتها لصهرنا الحاج احمد ابن الحاج عيسى اقطاعاً ناجزاً وحوزتها حوزاً كاملاً وملكتها ملكاً تاماً هي والرقيق التي فيها وعدّته خمسون يتصرف فيها وفي رقيقها تصرف المالك في ملكه بالزرع والتزريع والبيع والهدم والبنا والصدقة والشراء فهي له ولذريته من بعده فلا يغيره ولا يبدله سلطان بعدي. ثم اني تركت لها الفطرة والزكاة أعني بها الاحكام الشرعية وكذلك عفونا عن سبلها العادية من دم كبير او صغير وفسق وهامل ونار وقوار ودرقه ولا يتعدى عليهم ملك ولا جباي ولا مقدوم ولا خدام من احد الخدامين وقد

تركنا ذلك اعانة لها في دينها ودنيـاها والله على ما نقول وكيل وحسبنا الله ونعم ، حرر ذلك سنة ١٢٦٣ هـ ١٨٤٧ م .

« من امير المؤمنين سيدنا ومولانا وأعلانا السلطان محمـد الحسين المهدي المنصور بالله تعالى آمين . الى كل من يقف على هذه الوثيقة وينظر ما فيها من الحقيقة . اما بعد فان ابنتنا الميرم فاطمة ام ادريس عرضت لنـا مكتوب زوجها الامين الحاج احمد عيسى نظرته بأنه أوهب لها حاكورته « نعمة » التي سبقت فأعطيته إياها فالآن هو أوهبها لزوجته . وأنا أتممت لهـا هبة زوجها فصارت ملكاً وحوزاً لها تتصرف فيها في ذاتها وغلالها الشرعية والعادية لهـا ولذريتها من بعدها . هذا جوابي ومهري لمن يعرفه تحريراً في ٧ شعبان سنة ١٢٦٩ هـ ١٥ مايو ١٨٥٣ م » اه . وهذه حجة العربان :

« من حضرة سلطان المسلمين وخليفة سيد المرسلين سيدنا ومولانا السلطان محمد الحسين المهدي المنصور بالله تعالى آمين الى كل من يقف على هذا الرسم من ولاة الامور والأمراء والوزراء والملوك والشراتي والدمالج وأبنـاء السلاطين والميارم والجبايين وملوك العربان والمشايخ والكراسي والخدامين ومقاديمهم وكافة اهل الدولة من الخدام . اما بعـد فاني سابقاً تفضلت وأعطيت صهرنا الحاج احمد عيسى عرباً من الماهرية من جماعة الشيخ دلم وأسماؤهم عبـد النعيم ونعمان والداني واحمد وحسين وحامد وزرزار وطاهر وعجز واحمـد هؤلاء الرجال المذكورون كسرت عظمهم واتبعتهم لصهرنا الحاج احمد عيسى وعفوت له بجميع منافعهم وصاروا تبعاً له ولذريته والآن صهرنا المذكور أعطاهم لابنته الميرم زهرة في زيانة رأسها وأعلمني به فأنا أتممته لها وقابلتها بجميع منافعهم الشرعية والعادية من الزكاة والفطرة والدم والفسق والهـامل وغير ذلك ليس عليهم شوبة ولا نوبة ولا خدمة جميع امرهم مقابل اتنايتنا (أي ابنة بنتنا) الميرم زهرة لا يتعرض لهـا فيهم معترض ولا ينازعها منازع بل صاروا عرباً لها ورعاتها لها ولذريتها من بعدها هـذا جوابي ومشراطي ومهري لمن يعرفه تحريراً في عام ١٢٦٨ هـ ١٨٥٢ م » .

أختام السلاطين : وكان سلاطين الفور يختمون كتبهم من أعلاها بختم كبير على شكل دائرة قطرها نحو اربعة قراريط وهي منقوشة سطوراً مستوية بين كل سطر وسطر خط دقيق او خطين يضع فيها اسمه وأسمـــاء البعض من أجداده على قدر ما يسع الختم الا انه لا بد من إنهاء النسب بالسلطان سليمان جدّهم الاعلى ومؤسس سلطنتهم وقد يكون حول السطور سطراً في دائرة مكتوب فيه آية من القرآن .

صرّة الحرمين : وكانت سلطنة الفور مستقلة عن دول الارض كلهـــا لا تدفع جزية لأحد ما عدا الحرمين الشريفين فانهـا كانت تخدمها بمحمل وصرّة كل سنة فكان موكب المحمل يأتي الى مصر ومعه الريش والسن والصمغ وغيرها من خيرات البلاد فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرة ثم يستطرد الحج الى الحرمين مع الركب المصري .

منزل السلطان ابراهيم : وكان مـنزل السلطان ابراهيم آخر سلاطين الفور قائماً على شاطىء خور تنـــدلتي الشمالي وهو منزل متسع له سور من الطوب الاحمر محيطه نحو ثلاثة اميال وعلوه نحو عشرين قدماً وحول السور على عشرة امتار منه زريبة من شوك. وللسور بابان كبيران باب للشمال وهو باب الرجال وباب للجنوب وهو باب الحريم ومنزل السلطان في الوسط. ومن كل باب منهما الى منزل السلطان سبعة ابواب تفتح شرقاً وغرباً أي انها على زاوية قائمة من البابين الكبيرين وهي عبـــارة عن شباك من العيدان تصل ما بين أطراف جدران متوازية مبنيـــة داخل السور . وعنـــد كل باب منازل للضباط بهيئة القطاطي او الرواكيب . امـــا منازل السلطان فكلها مبنية بالطوب الاحمر غرفاً مستوية السطوح وغرف منامه وجلوسه مكسوة جدرانها وسقوفها بالجوخ الملوّن منها غرفة معدّة لجلوسه مع الخاصة تسمى « التيرمه » وله غرفة معدّه لاستقبال العامة عند الباب الرابع من أبواب الرجال تسمى « كالا » وكان سلاطين الفور يقتنون من النساء عشرات اربع منهنّ شرعيـــات والباقيات مخطيات .

لباس السلطان : وكان لبـاس السلطان قميصاً مقصباً فوقه برنس مقصب يجلله شال من الكشمير وعلى رأسه تاج مزركش بالذهب تحفّ به سبع ريشات رهيفة من الذهب والفضة على شكل الامواس وفي رجليه حذاء من السختيان الاسلامبولي الاصفر او الاحمر وعلى جنبه الأيسر سيف محدّب محلى بالذهب .

جلوس السلطان : وكان جلوسه في « التيرمه » على عنكريب او سجادة في الارض وعن يمينه مخدّة من قطن . وفي الراكوبة « كالا » على دكة عالية من الطين مفروشة بالسجاد . واذا جلس على « الككر » او كرسي السلطنة لمبايعة النـاس له حمل في يده اليمنى صولجاناً وهو عصا طويلة ملبسة بالفضة المحلاّة بالذهب وفي يده اليسرى سيف مستقيم وعلى جنبه الأيسر سيف محدّب فيبايعه اهل الحل والعقد ليلاً وفي الصباح يبايعه العـامة وهذه هي صورة المبـايعة : « بايعتك على السمع والطاعة الامر أمرك والنهي نهيك على السنة والكتاب .

مقابلة السلطان : وكان القاصدون باب السلطان يأتون باب الراكوبة « كالا » ويستأذنون في الدخول عليه فإما ان يدعوهم الى التيرمه او يخرج فيقابلهم في الراكوبة « كالا » وكان الداخل عليه يخلع نعليه وطاقيته وسلاحه خـارج الباب ويتقدم حتى يكون على عشرين متراً منه فيلقي بنفسه الى الارض ويحبو على الركب والأيدي كالسلحفاة الى ان يكون على بُعد اربعة امتار منه فيقف جاثياً على ركبتيه منكس الرأس ويدعو للسلطان وهو يمهـد الارض بكفيه يميناً وشمالاً ويقول : « أطال الله بقاءك وسترك الله ونصرك على أعدائك ولا أراك سوءاً ولا مكروهاً أبد الدهر » ثم يشرع في الكلام الذي جاء لأجله . وكل من دخل على السلطان ولو انه أخوه لزمه مثل ذلك الا العلمـاء وملوك الفراتيت فان لكل فريق منهم آداب خاصة .

اما العلمـاء فان الداخل منهم على السلطان يحني رأسه الى ان يكون على اربعة امتار منه فيجلس على الارض جلسة المصلي ثم يرفع كفيه فيرفع السلطان

كفيه ايضاً ويقرآن الفاتحة معاً ثم يأخذ العـالم في الدعاء للسلطان وهو يصفق بكفيه والسلطان يؤمّن على دعائه الى ان يتم الدعاء . وأمـا ملوك الفراتيت فالداخل منهم على السلطان يلقي بنفسه الى الارض وهو على ٢٠ متراً ثم يدنو منه متدحرجاً كأنه جذع شجرة حتى يصير على اربعة امتـــار منه فيستوي جالساً ويدعو للسلطان وهو يصفق بكفيه ثم يشرع في الكلام الذي جاء لأجله.

ركوب السلطان الى الجامع : وكان في الفاشر جامع فخيم على نحو فرسخ من منزل السلطان والسلطان يخرج اليه بموكب حافل كل يوم جمعة لأداء صلاة الظهر فكان الفرسان يجتمعون عنـــد باب الزريبة صفوفاً عن جانبي الطريق وأمامهم المشاة حاملين النبابيت ينتظرون خروج السلطان من منزله . وقبـل الظهر بساعتين يركب السلطان جواداً مزركش العدة عند باب التيومه فترفع الامبـاية صوتها اشعاراً للعساكر بأن السلطان قد ركب فيتهيؤون لاستقباله . ثم يخرج اليهم وأمامه العساكر الحاملة الاسلحة النارية مشاةً ومن ورائه الخصيان راكبين الخيول وبينه وبين الخصيان بعض الجياد بسروج الرهط كاملة العـدة يقودها السياس خلفهم صفاً واحداً وعن جانبي السلطان نفر من المشاة يتناوبون حمـل مظلة واسعة تظلله وتظلل جواده وهي مصنوعة من نسيج متين مطرز بالقصب ومبطنة بأطلس مختلف الالوان كل شقة بلون تتدلى من أطرافهـــا شراريب قصب ولهـا يد طويلة من خشب متين مغشاة بنسيج ملون كل شبر بلون . وعنـــد خروج السلطان من الزريبة يحييه الفرسان بهزّ سيوفهم فوق رؤوسهم فيرد تحيتهم بهزّ سبحة او سوط او منديل في يده. ويسير في موكبه هذا حتى يصل الجامع فيقف الموكب خارج السور ويدخل السلطان الى غرفة معدّة له عنـد باب السور فيخلع ثياب الملك ويلبس لباس الصلاة وهو جبـة بيضاء وعلى رأسه عمامة بيضاء فوق مكاوية من الحرير يغطيها ثوب من الشاش الابيض الرقيق على هيئة الخطيب ثم يقف للصلاة في غرفة خاصة به لها نافذة تشرف على الإمام وبعد انتهاء الصلاة يرجع الى الغرفة التي عنـد باب السور فيخلع لباس الصلاة ويلبس لباس الملك ويعود بالموكب الى منزله .

جيش السلطنة : هذا ولم يكن عند سلاطين الفور جيش منظم حتى كفّ بصر السلطان حسين فنظم جيشاً من عبيده وسلّحهم بالبنادق المعروفة بأبي روحين وجعل عليهم عبداً يُقال له « خير قريب » قومندانا وبقي هذا الجيش الى زمن السلطان ابراهيم فحارب به الزبير باشا على ما تقدم . وكان سلاطين الفور الذين تقدموا السلطان حسيناً اذا أرادوا جمع الرجال للحرب أصدروا أمرهم الى المقاديم فبعث هؤلاء بالامر الى الشراتي ومشايخ البادية فجمعوا عدداً معلوماً من الرجال على نسبة عدد بلادهم حتى اذا ما اجتمع العدد المطلوب ساقهم المقاديم بأنفسهم الى ساحة الحرب .

تجليد النحاس : وكان سلاطين الفور يجلدون النحاس « المنصورة » الذي غنموه من العابدلاب مرة في كل سنة ويحتفلون بتجليده احتفالاً عظيماً يجتمع اليه موظفو البلاد وأعيانها فيأتون بثور وخروف أبلقين ينتقونها من قطيع يربونه في جبل مرّة لهذه الغاية ويذبحونها ويجلدون بجلديها النحاس المذكور .

اختبار أولاد السلاطين : ثم يأخذون فخذاً من الثور وفخذاً من الخروف ويتركونها حتى ينتنا ثم يطبخونها بشطة وملح كثير ويضعونها في قدح في غرفة منفردة ثم يؤتى بأولاد السلاطين فيدخلون واحداً واحداً الى قدح الطعام الذي يحيط به الحرس من عبيد السلطان وبيد كلٍّ منهم نبُّوت كبير وكلما دخل واحد أكل لقمة من الطعام فاذا لم يسعل من شدة نتانة اللحم وكثرة بهاراته لم يتعرض له احد بسوء بل سألوه ان يغسل يديه وينصرف واذا سعل اتهم بأنه خائن متعمّد الغدر وأُرسل في الحال الى جبل مرة حيث يبقى في السجن الى ان يُعفى عنه او يتولى سلطان آخر فيخرجه من سجنه .

كسر الضلع : ويأخذون ضلعاً من أضلاع الثور ويحكونها حتى تصير رخصة جداً قابلة للكسر فيأتي السلطان الى بيت النحاس بموكب خاص ماشياً على على قدميه ووراءه كبيرة اخواته ومن ورائها جمهور من الجواري اللابسات أبهى الحلي والحلل ومن خلفهنّ وعن جانبيهنّ الخصيان حاملين السياط والسلطان

نفسه مكموم بقطعة شاش يمسك طرفيها من خلفه كبير أمنائه ويمشي الهوينا حتى يصل مكان النحاس فيأخذ الضلع التي أعدت له ويضرب بها النحاس فاذا انكسرت عدّوا انكسارها نصراً وسلاماً وزغرد النساء وضرب النحاس وإلا أوجس الكل شراً وخافوا سوء المصير :

العرضة وموكب السلطان : وبعد كسر الضلع يخرج منادٍ من قبل السلطان للاستعداد للعرضة فيجتمع الكل مشاة وفرساناً حلقة كبيرة في ساحة السوق امام منزل السلطان ثم يخرج ملك النحاس يجنده محيطاً بنحاسات الفور السبع محمولة على سبعة جمال وفي مقدمتها « المنصورة » التي غنموها من العابدلاب ثم « البيضاء » التي غنموها من آدم سلطان ودّاي ثم نحاسات فور الخمس القديمة فيخترق الحلقة بموكبه حتى ينصّفها فيقف متجهاً نحو الشرق. ثم يأتي السلطان بموكبه الخاص وهو راكب جواده ويقف مقابل ملك النحاس متجهاً نحو الغرب وبينهما فسحة كافيـــة لعرض الجيش . وموكب السلطان الخاص مؤلف من أولاده ووزرائه وأخته الكبرى والعلماء والقضاة فتقف اخته وراءه راكبـة جواداً ومن ورائهـــا الجواري حاملات أباريق النحاس بلا ماء وبينها وبين السلطان حمَلة الحراب المكسوة بالجوخ الملون ويقف أولاد السلطان عن يمينـه ووزراؤه عن شماله ويقف امام صفّي الوزراء والأمراء صفان من العلمـــاء والقضـــاة وتُرفع فوق رأس السلطان مظلة واسعة جداً تظلله وجواده ومن ورائه رجلان حاملان مروحتين كبيرتين يزين حواشيها ريش النعـام لحجب الشمس عن ظهره . وعن كلٍّ من جانبيه مروحة يحملها رجل يروّح بها عليه. ثم يبدأ الاستعراض فيخرج النـاس من الحلقة فرقاً كل فرقة يتقدمها رئيسها راكباً على جواده فيحيي السلطان بهز سيفه فوق رأسه فيرد السلطان التحيـة بهز سوطه ثم يرجع هذا الرئيس برجاله الى مكانه من الحلقـة فيعرض الرئيس الذي يليه وهكذا الى تمام الحلقة . ثم يتقـــدم السلطان وحده الى النحاس ويدور حول الجمال التي تحمله فيهز السيف فوق كل نحاس ثم يدور من داخل الحلقة لرؤية الجنـد ويعود الى موكبه فتستقبله اخته وجواريها بالزراغيت ثم

يأمر فينصرف النحاس ثم يتبعهم بموكبه الى ان يدخل منزله فيتفرق الجنود الى منازلهم. وبعد ايام يُنادى الى مثل هذه العرضة وهكذا الى سبع عرضات ثم ينصرف كلٌّ الى بلاده . وأما في زمن الحرب فيسير الجيش على الترتيب الذي مرَّ ذكره في الكلام عن السلطان تيراب . وكانت عادة سلاطين الفور ان يضربوا النحاس في يومي الاثنين والخميس في الصباح والمساء .

العلم : وكان في دارفور مساجد جمة في كل بلدة مسجد او اكثر يُعلَّم بها الكتابة والقرآن وكان لكل عالم مسجد قرب منزله يصلي به الصلوات الخمس وفي لصقه خلوات للمجاورين يعلم بها العلوم الشرعية وله « حاكورة » هبة من السلطان يعيش هو وتلامذته من ريعها . وكان بعضهم يجيء الى مصر لتلقّي العلوم في الازهر ولهم فيه رواق معروف برواق دارفور الى اليوم .

الجوامع : اما الجوامع فكان لهم في كل بلدة شهيرة جامع إلا الفاشر ففيها جامعان جامع بناه السلطان عبد الرحمن عند بنائه الفاشر فحسّنه السلاطين الذين خلفوه وهو في القسم الشمالي من البلدة مسيرة ساعة من بيت السلطان . وجامع بنته اخت السلطان حسين في القسم الجنوبي من الفاشر . وكوبي ففيها ايضاً جامعان جامع القاضي احمد ود طاها من اهل كوبي وجامع الفقيه سعد العالم من اهل الخبير علي .

الزراعة والصناعة : وأهم زراعة دارفور الدخن يزرع على المطر . وفيها من أرباب الصنائع الحدادون والنجارون والحاكة والدباغون لقضاء حاجاتها كما في بلاد سنار .

التجارة : وكان لها تجارة مهمة مع كردوفان وبحر الغزال وودّاي ومصر وكان يرد منها الى مصر من ١٠ : ١٥ الف جمل تحمل الرقيق والسن والريش والصمغ والتمر الهندي والنحاس والقطرون وحبة العين والجلود والأقداح الخشبية والأطباق والعسل فتعود الى دارفور ومعها من الانسجة القطنية

والحريرية الدبلان والشيت والخام والجوخ والاطلس والملايات الحجازية والبنادق والسيوف والسروج وأنواع الحلى الذهبية والفضة والمرجان والسوميت وغيره من أنواع الخرز المطلوب عندهم .

وكانت العملة الرائجة قطع مختلفة من الدمور ثم راج بعد الفتح المصري للسودان المقاطع المصرية من الخام المصبوغ المار ذكرها وراج في كردوفان ايضاً قطع دقيقة من الحديد على أشباه المسامير الكبيرة تسمى الحشاشات .

الامير علي دينار : هذا ما تيسر لي استقصاؤه عن حال سلطنة الفور القديمة قبل دخولها في حوزة مصر تلقيت أكثره عن الشيخ الطيب محمدين المارّ ذكره. ويقال انها الآن تسير على مثال هذا النمط في عهد أميرها الحالي الامير علي دينار ابن الامير زكريا ابن السلطان محمد الفضل الذي يحكمها على جزية سنوية يدفعها لحكومة السودان كما أشرنا آنفاً .

منشور السلطان ابراهيم عند توليّه الملك : وقد عثرتُ على كتاب أرسله السلطان ابراهيم آخر سلاطين الفور الى الجهات يذيع فيه نعيَ ابيه السلطان حسين وتوليه الملك بعده وهو :

نقش خاتمه في أعلى الكتاب :

ملك أمير المؤمنين السلطان ابراهيم ، ابن السلطان حسين ، ابن السلطان محمد الفضل ، ابن السلطان عبد الرحمن الرشيد ، ابن السلطان احمد بكر ، ابن السلطان موسى ، ابن السلطان سليمان صاحب البر والاحسان . يوم الاحد اثنين وعشرين صفر الخير سنة ١٢٩٠ هـ .

صورة الكتاب :

من حضرة من أنار به البلاد وأزال به الفساد سيدنا ومولانا السلطان ابراهيم المعتصم بالله تعالى آمين . الى حضرة محمود والامام احمد طه وكافة

الجلّابة تجار كوبي وحواليها . اما بعد فالذي نعرفكم به آجرنا الله وإياكم في مصيبة سيدكم والدنا المرحوم السلطان محمد الحسين توفي الى رحمة الله وأنا توليت الملك بضحى الاحد اثنين وعشرين من شهر صفر سنة ١٢٩٠هـ تعلموا به وربنا يلزمنا وإياكم الصبر الجميل .

الباب السادس

في

تاريخ الفتح المصري للسودان

« منذ فتح سنار الى قيام الثورة المهدية في السودان
سنة ١٢٣٦ : ١٢٩٨ هـ — ١٨٢١ : ١٨٨١ م »

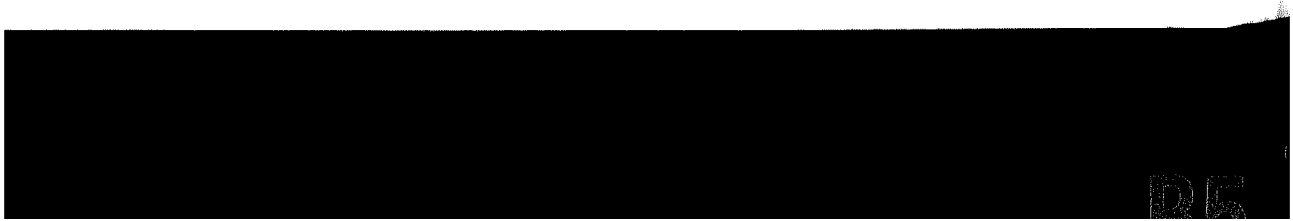

الفصل الاول

في

حملة اسماعيل باشا على سنار

سنة ١٨٢٠ : ١٨٢٣ م

وفيها فتح دنقلة وبربر والخرطوم وسنار وفازوغلي

أسباب الفتح : تقدم لنا ذكر الفوضى التي صارت اليها مملكة سنار بشقاق ملوكها بعضهم لبعض واستفحال وزراء الهمج الذين استأثروا بالسلطة وخلعوا سلطة الفونج . وكانت مصر في هذه الأثناء قد آلت الى البطل العظيم المغفور له محمد علي باشا مؤسس العـــائلة الخديوية الفخيمة فبلغه خبر سنار من التجار المصريين المترددين اليهـــا . وجاءه الملك نصر الدين ملك الميرفاب ببربر فشرح له حال سنار وما صارت اليه من الضعف والانحلال وهوّن عليه أمر افتتاحها. وجاءه ايضاً رجل من عائلة الزبير المالكة في ارقو وأخبره بحال دنقلة وعيث المماليك فيها . وكان محمد علي باشا يودّ افتتاح سنار والاستيلاء عليها لأسباب جمة منها :

اولاً : الاستيلاء على منـــاجم الذهب في سنار التي طبقت شهرتها الآفاق وكثرت فيها الأقاويل والقصص الموضوعة ولا سيما في مدينة القاهرة .

ثانياً : امداد جيشه برجال من السود الذين اشتهروا منـــذ ايام الفراعنة بصلاحيتهم للجندية وشدة بأسهم في الحروب .

ثالثاً : استئصال شأفة المماليك الذين بقيت منهم بقية في دنقلة كما مرّ .

رابعاً : توسيع ابواب الرزق لأنصاره الاتراك والارناؤط والمغـاربة الذين قهر بهم المماليك في مصر والوهابية في بلاد العرب خصوصاً وقد اصبحوا بعد حرب الوهابية مصدر تعب له لأنه أراد ان ينظم جنده على مثال جند بونابارت فلم يوافقوه على ذلك واعتبروا عمـله بدعة ولم يرد قهرهم لأنهم هم الذين شدّوا ازره وساعدوه على تثبيت قدمه في مصر فأراد ان يرسل بهم الى سنار ليستريح من أتعابهم من جهة وينال بهم مطمعه بالفتح من جهة اخرى .

خامساً : اكتشاف منابع النيل لنفع العلم والزراعة المصرية .

سادساً : توسيع نطاق التجارة المصرية والانتفاع بموارد التجارة السودانية . وكانت علائق السودان بمصر في ذلك الحين ضعيفة جداً اذ لم يكن يقصده من التجار إلا المخاطرون من اهل الصعيـد من طرق دراو واسوان وكورسكو وكانوا في خطر دائم هم وأموالهم لأنه فضلاً عن مشقّة هذه الطرق وأخطارها الطبيعية كان الخبراء يحكمون بهم بحسب أهوائهم فلربمـا أوصلوهم الى نصف الطريق وطلبوا حلواناً فوق الاجرة المتفق عليهـا فاذا لم يدفعوا لهم الحلوان تركوهم ليضلوا او يموتوا جوعاً او عطشاً . وكان التجار اذا وصلوا بلاد النيل سالمين نزلوا في حمى ملك من ملوك البلاد او شيخ من مشايخها وعرضوا عليه بضاعتهم فاذا أعجبته وكان طالعهم سعيـداً رضي المضيف عنهم وعوضهم من تجارتهم شيئاً من الذهب وسن الفيل وريش النعـام وإلا استصدر تجارتهم وطردهم من بلاده او أمر بسجنهم وتعذيبهم .

فلهذه الاسباب كلها وبالنظر لمـا طبع عليه محمد علي باشا من حب الحرب والفتوح وشدة الرغبة في توسيع نطاق بلاده أقرّ على اغتنام الفرصة والاقدام على فتح سنار .

وفد محمد علي باشا الى سنار : وتمهيداً لذلك أرسل سنة ١٨١٢ م وفداً الى ملك سنار وقصده في الظاهر تحريض الملك على طرد المماليك الذين لجأوا اليه من مصر وفي الباطن الاستطلاع على أحوال بلاده وما يلزم من الجيوش لفتحها . وقد ارسل اليه هدايا فاخرة قدّرت قيمتها بنحو ٤ آلاف ريال من شالات كشمير وأنسجة حريرية وأسلحة ونحوها. فأرسل اليه ملك سنار اربع جوارٍ وبضعة جلود نمر وقط زباد وقردين وأسداً صغيراً (مات في الطريق) وكلها لا تساوي في سنار ثمانين ريالاً . فلم يُسرّ محمد علي بالهدية ولكنه سُرّ بتقرير الوفد الذي قوّى عزمه على فتح سنار .

اكتشاف الصحراء الشرقية : وفي أثناء ذلك ارسل الموسيو فردريك كايو العالم الفرنساوي الشهير الى الصحراء الشرقية لاكتشاف معادن الزمرّد والذهب التي دلّت التواريخ العربية على وجودها فيها فقام الموسيو كايو من الرديسية من اعمال اسنا في ٢ نوفمبر سنة ١٨١٦ م وبعد مسيرة ستة ايام وصل الى جبل زبارة فوجد فيه كهوفاً قديمة وحفائر ودهاليز وآلات شتى وآثاراً تدل على استخراج المعادن من هذا الجبل وعلى انقطاع العمل فيه فجأة فالتقط من هناك بعض قطع الزمرد فقويت بها آمال محمد علي فبعث به ثانياً الى ذلك الجبل وأصحبه نفراً من الارنام والارناؤط فقام من القاهرة في ٢ نوفمبر سنة ١٨١٧م وعاد بعد قليل بلا فائدة ولكنه فصّل جغرافية تلك البلاد وأخبار سكانها العبابدة وقد عثر على أطلال مدينة خاوية على عروشها وعين موقع مدينة بيرنيس القديمة المعروفة الآن برأس بناس .

الحملة على سنار : ولما أتمّ محمد علي باشا استعداداته جهز جيشاً مؤلفاً من ٤ آلاف مقاتل وعقد لواءه لابنه اسماعيل باشا وأمره بفتح سنار وهذا تفصيل الجيش : ١٢٠٠ فارس من الاتراك والارناؤط والمغاربة بقيادة عابدين بك والحاج عمر وعمر كاشف مع كل منهم ٤٠٠ فارس . و ٤٠٠ فارس و ٨٠٠ راجل من البدو والمغاربة . و ٦٠٠ راجل من الاتراك و ٣٠٠ راجل من

الطوبجية ومعهم ٢٤ مدفعاً نمرة ٤ بقيادة محمد أغا . و٧٠٠ راجل من العبابدة بقيادة خليل وداود كاشف انضموا اليه في اسوان . وصحب الجيش نحو ألفي نفر من التبّع منهم ٢٠ مملوكاً حرس اسماعيل باشا الخصوصي مع ٣٠٠٠ جمل و ٣٠٠٠ مركب لحمل الزاد والمؤونة والذخائر . وصحب الجيش ايضاً ثلاثة من نخبة العلماء وهم : القاضي محمد الاسيوطي الحنفي والسيد احمد البقلي الشافعي والشيخ السلاوي المغربي المالكي ووهب كلاً منهم خلعة سنية و ١٥ كيساً وأوصاهم ان يحثوا اهل البلاد على الطاعة بلا حرب بحجة انهم مسلمون وان الخضوع لجلالة السلطان امير المؤمنين وخليفة رسول المسلمين واجب ديني.

فتح دنقلة سنة ١٢٣٥ هـ ١٨٢٠ م :

وسار الجيش من القاهرة بالبر الغربي والنيل في أوائل يوليو سنة ١٨٢٠ م ولحق به اسماعيل باشا مع اركان حربه في ٢٠ يوليو سنة ١٨٢٠ فأدركه في اسوان فأقاموا هناك برهة ريثما اجتازت المراكب الشلال الاول .

ثم دخلوا بلاد النوبة وكان الحاكم عليها في الدرّ حسين كاشف فجمع رجاله بقصد مقاومة اسماعيل باشا فلم يوافقه اخوه حسن على ذلك ففرّ بعبيده الى كردوفان فولّى اسماعيل باشا حسناً على البلاد التي بين اسوان وحلفا وتقدم الى حلفا فأقام فيها نحو ٢٠ يوماً حتى اجتازت المراكب الشلال الثاني .

ثم استطرد السير جنوباً في بلاد سكوت وكان فيها الكاشف حسن وردي متحصناً في قلعة جزيرة ساي ومعه بضع مئة رجل من العبيد والاعوان مسلحين بالبنادق وبعض المدافع فجاء الى اسماعيل باشا مسلماً فأقرّه في مركزه ولكنه ما لبث ان عصى الناظر الذي أقيم في سكوت من قِبل اسماعيل باشا وقتل بعض رجاله فأرسلت الحكومة المصرية عسكراً فحصروه في القلعة ثم اقتحموا القلعة بالبارود وقتلوه وشتتوا شمل رجاله ومن ذلك الوقت هدأت البلاد ولم يعد يُسمع فيها صوت حرب حتى كانت المهدية سنة ١٨٨٥ م كما سيجيء .

وتقدم اسماعيل باشا الى المحس فتلقاه حاكمها الملك صبير في دلقو طائعاً فأمّنه وأقرّه في مكانه . ثم تقدم الى ارقو فوجد فيها الملك طنبلا من عائلة الزبير حاكماً فأمّنه وثبّته على كرسيه .

وكان في مرّاغة الى جنوبي ارقو ثمانون رجلا من المماليك فأتاه عشرون منهم مسلمين وفرّ الباقون الى شندي فسلموا هناك .

واقعة الشايقية في ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ : وسار اسماعيل باشا في دنقلة لا يعارضه معارض بل كان ملوك البلاد ومشايخها يتلقونه بالطاعة والامتثال وهو يؤمنهم ويقرّهم على أماكنهم الى ان دخل بلاد الشايقية فرآهم قد تجمعوا لقتاله في كورتي مشاة وركباناً . وكان على الشايقية اذ ذاك ثلاثة ملوك : الملك صبّير كبير الحنيكاب وحدّه بين العفاض وحنك ومركزه حنك حيث ابتنى له قلعة متينة من الحجارة وجعل فيها المزاغل ، والملك جاويش كبير العادلاناب وحدّه من حنك الى مروى ومركزه مروى وله قلعة حصينة في كجبي ، والملك عمر كبير العمراب وحدّه من مروى الى بلاد المناصير وأكبرهم الملك جاويش . ولم يكن مع اسماعيل باشا اذ ذاك الا فرقتان من الفرسان فيهما ٨٠٠ فارس مسلحين بالبنادق وهما فرقتا عابدين بك وعمر بك لأن المراكب تأخرت في الشلالات فتأخر الجيش معها ولم تكن هذه القوّة كافية لأن تكفل له النصر ولكنه لم يعد يمكنه الرجوع فأرسل للشايقية رسلا يدعوهم الى الطاعة ويقول ما مفاده : « ان أبي يرغب اليكم ان تسلموا سلاحكم وخيولكم وتتركوا الحرب وتؤدوا الجزية » فأجابه الشايقية : « اما الجزية فنؤديها بلا حرب وأما خيولنا وسلاحنا فما نسلمها الا بالحرب لعلنا نفوز وتبقى لنا » فأقرّ اسماعيل باشا اذ ذاك على حربهم وأرسل مئة فارس لكشف خبرهم فأحاط فرسان الشايقية بهم إحاطة السوار بالمعصم وانقضّوا عليهم انقضاض النسور فقتلوا منهم ٧٥ رجلا وأفلت الباقون وفيهم عشرون جريحاً الى اسماعيل باشا فلما رآهم طار صوابه ولم يعد له صبر حتى يأتيه المدد من الوراء . ففي عصر ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ قاد فرسانه وقصد الشايقية فوجدهم قد تجمعوا في

حلة قرب كورتي تعرف بأم بقر وفيهم نحو الف فارس و ٢٥٠٠ راجل بينهم بعض النوبة الذين أرغموا على الانضمام اليهم وكلهم مسلحون بالسيوف والحراب إلا رؤوسهم فانهم كانوا متدرعين ومتسلحين بالبنادق والسيوف والدرق .

وكان في جيش الشايقية مهيرة بنت الشيخ عبود شيخ بادية السواراب فلما رأت جيش اسماعيل باشا مقبلاً امتطت هجينها وصاحت بقومها : « هيا بنا للدفاع عن استقلالنـــا وبلادنا » ثم زجرت هجينها ودفعته في وجه عساكر الامير فكرّ الشايقية وراءها بقلب واحـــد مستقتلين فتلقاهم العساكر بنار حامية وجرى قتال شديد حارب فيه الفريقان حرب الابطال مدة ٣ ساعات متوالية ولكن دارت الدائرة على الشايقية فكان مشاتهم يقتحمون النيران وهم يظنون انها لا تضرّ بهم لأنهم لبسوا الأحجبة فقتل منهم ٨٠٠ رجل وأما فرسانهم فقد أنجتهم ظلمة الليل فلم يقتل منهم سوى ١٥ فارساً . وأما عساكر الامير فقـد قتل منهم ٣٠ رجلاً وجرح اثنان . وبعد الواقعة وزع اسماعيل باشا منشوراً في البلاد مآله ان كل من يأتي مسلماً يسلم ومن لم يأتِ يعد عدواً ويحرق بيته ثم تقـــدم الى كورتي فأحرقها ونزل فيها ينتظر المدد فأتاه مئتا رجل من مشاته وفرسانه ومعهما مدفعان وكان الشايقية قد اجتازوا النيل الى البر الشرقي وتحصنوا في طابيتي حنـّك وكجبي فاجتـاز اسماعيل باشا النيـل وطردهم منها فالتجأوا الى قلعـة حصينة في جبل الدقر فتتبعهم اليها ورماهم بقنابل المدافع فخرجوا منها منهزمين فتبعهم فرسانه قتلاً وأسراً قيل وكانوا كلمـــا أسروا رجلاً قطعوا اذنيه تشويهاً له وأسروا بنتاً للملك صبير تسمى صفيّة فأكرمها اسماعيل باشا وردّها الى أبيها فلمـا رأى منه هذه المكرمة أتاه مسلماً طائعاً وسلم بعـده الملك عمر اما الملك جاويش ففرّ بمئتي رجل الى المتمة فسلم هناك .

فتح بربر سنة ١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م :

وبقي اسماعيل باشا في كورتي الى ان تكامل جيشه ودبّر مـا يلزمه من

الجمال للنقـل فقـام في ٢١ فبراير سنة ١٨٢١ الى كربكان وهناك قسم جيشه الى ثلاث فرق فذهبت فرقة بالمراكب وفرقة بالبر مقابلها حمـاية لها وكان بين المراكب ١٢٠ مركباً لا يمكن عبورها لكبر حجمها فأبقـاها في كورتي بحماية بعض العساكر المغاربة وسار هو بالفرقة الثالثة وهم السواري والطوبجية بطريق الصحراء فوصل النيل عند البـاقير في ٢٨ فبراير سنة ١٨٢١ م ولم ينتظر الفرقتين الأخريين بل استطرد السير جنوباً فوصل الغبش تجاه بربر في ٥ مارس سنة ١٨٢١ فقابله ملكها نصر الدين ملك الميرفاب المار ذكره بالترحاب وهنأه بالنصر على الشايقيـة فأقره على بربر وأرجـع عابدين بك ببعض العساكر الى دنقلة ليحكمها ويعجل في ترحيل المؤن والذخائر . وفي ٢٢ مارس سنة ١٨٢١ جاءه الملك نمر ملك شندي طائعاً فأمّنه وكساه وأقرّه على بلاده . وجـاءه الكبابيش والحسانية والبشاريين من اهل البادية مقدمين الطاعة فسألهم تقديم الجمال للحملة ولما لم يجيبوه ارسل عساكره فأخذوا الجمال منهم بالقوة. ثم سار الى المتمة فوصلها في ٩ مايو سنة ١٨٢١ فأتاه الملك مساعد مسلماً . وفي ١٥ من الشهر المذكور أتاه الملك جاويش مسلماً مع المئتي رجـل الذين فرّ بهم من دار الشايقية وطلب اليه ان يرافقه برجاله الى سنار فقبله اسماعيل باشا وكساه وعينه على ١٤٠ من رجاله وعين كلاً من الشيخ الازيرق والشيخ عبود شيخ بادية السوارب على خمسين رجلاً وربط لهم مرتبات معينة . وكان هذا اول دخول الشايقية الباشبوزق في جيش الحكومة المصرية بالسودان وقد بقوا فيه الى قيام الثورة المهدية كما سيجيء . وفي اليوم الذي سلم به الملك جاويش سار اسماعيل باشا بالجيش والشايقيـة وملكي السعداب الملـك نمر والملك مساعد حتى وصل تجاه الحلفـاية في ٢٥ مايو سنة ١٨٢١ فقابله الشيخ ناصر ود الامين كبير العابدلاب مقدماً له الطاعة فأمّنه وكساه كسوة فاخرة وتركه في بلده لأنـه كان منحرف الصحة وأخذ ابنه الامين رهينة وتقدم بالجيش الى ام درمان .

فتح الخرطوم سنة ١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م :

وفي ٢٨ مايو سنة ١٨٢١ شرع العساكر في اجتياز النيل الى الخرطوم ولم يكن لديهم إلا مراكب قليلة فبقوا في ذلك ثلاثة أيام وقد اجتاز الكثير منهم النيل سباحة ماسكين بأذناب الخيل وكان جملة الجيش الذي اجتاز من ام درمان ٥٥٠٠ رجل و ٣٠٠٠ جمل وجواد فغرق منهم ٣٠ رجلاً و ١٥٠ جملاً وجواداً . وفي الخرطوم قابله الفقيه محمد علي خليفة الفقيه الارباب فأمّنه وأكرمه .

فتح سنار سنة ١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م :

وقام من الخرطوم في ١ يونيو سنة ١٨٢١ قاصداً سنار وعليها اذ ذاك الملك بادي من النونج أما القوة والسلطة فكانتا بيد وزيره محمد عدلان من الهمج كما مرّ .

وكان اسماعيل باشا عند وصوله الى المتمة أرسل الى الملك بادي كتاباً يدعوه الى الطاعة فكتب اليه محمدعدلان في الجواب كتاباً مشهوراً يحفظ أهل سنار منه الى اليوم هذه الجملة التي مرّ شبهها في كتاب السلطان محمد الفضل الى محمد علي باشا وهي : « لا يغرّنك انتصارك على الجعليين والشايقية فنحن الملوك وهم الرعية . أما بلغك ان سنار محروسه محمية بصوارم قواطع هندية وخيول جرد أدهمية ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية » . وقال الرسل ان عند ملك سنار من ٨ آلاف الى ١٠ آلاف مقاتل ما عدا سبعة مدافع من الطراز القديم نمرة ٤ ونمرة ٦ أتى بها المماليك من مصر .

وكان محمد عدلان فارساً مقداماً ذا عزم وتدبير ولو بقي حياً لأتعب اسماعيل باشا ولم يمكّنه من سنار بالسهل ولكن من سعد اسماعيل باشا حدث ما ذهب بحياة محمد عدلان قبل وصوله الى سنار بأيام قليلة وذلك ان محمد عدلان لما سمع بحملة اسماعيل باشا على سنار أخذ في جمع الاهبة لصدّه ومحاربته.

وكان من عـــادة ملوك سنار في حفظ الجيوش ان يخصصوا لكل رئيس من رؤساء الجيش أراضي او اقطاعات يكون منهـا معاشه ومعاش عساكره ولم يكن لهم مرتبـات معينة من الملك ففرّق محمـد عدلان رؤساء جنوده على الاقطاعات وأمرهم بجمع الغلال والتهيؤ للقتـال ولم يبقَ معه إلا الارباب دفع الله ود احمد وقليل من العساكر . وكان لحسن ود رجب ثأر على محمد عدلان لقتله أخاه محمد رجب سابع وزراء الهمج كما رأيت في تاريخ سنار فاغتنم هذه الفرصة وأوعز الى اثنين من رجاله وهما عبد الله بخيت وادريس عقيد وجماعة من حزبه فدخلوا على محمد عدلان في منزله ليلاً فخرج عليهم وحاربهم بنفسه راجـــلاً حرباً شديدة حتى كسرهم ثلاث مرات ولكنهم تغلبوا عليه أخيراً بكثرة العدد فقتلوه وقطعوه ارباً ودفنوه في منزله وكان ذلك في أواخر مايو سنة ١٨٢١م فهاج حزب محمدعدلان فاجتمعوا في ١ يونيو سنة ١٨٢١ وحاربوا حسن رجب في حلة قندال على ٣ ساعات جنوبي سنار فكان النصر لحسن ود رجب ولكن هذا النصر لم يضمن له الملك فلما سمع ان جيش اسماعيل اجتاز البحر الابيض فرّ من سنار بثلاثمائة رجل وبينهم قاتلا عدلان ولجأ الى جبال فرنيس في حدود الحبشه .

أما اسماعيل باشا فانه زحف بجيشه حتى وصل ود مدني فقابله رجب ود عدلان والارباب دفع‌الله احمد بالطاعة فأمّنهما وأخذهما معه. ولما قرب من سنار خرج اليه ملكها الملك بادي طائعاً وقدم له اربعة رؤوس من جيـاد الحبشة فكساه كسوة فاخرة وهي جبـــة شرف وشالا كشمير وسيف وطبنجات وجوادان مكسوّان احسن كسوه وقرّره ملكاً على أهله وأجرى له ولعائلته مرتباً من الدراهم والحبوب بقوا يتناولونه الى قيام الثورة المهدية في السودان . ودخل اسماعيل باشا سنار بالأبهة العسكرية في ١٢ يونيو سنة ١٨٢١ م فأطلق ٢١ مدفعاً احتفالاً بذلك . وهناك قابله العلمـــاء والاعيان وفي جملتهم الشيخ ضرار شيخ خشم البحر فتلقـاهم بالبشر والإيناس وأجزل لهم العطاء ثم أمر المنادي فنادى في الناس بأن جميع القضايا التي سبقت دخوله سنار تعدّ ملغاة

لا يسمع فيها شكوى وانما ينظر في القضايا التي تحدث بعد الفتح .

وكان اول ما اهتم به بعد فتح سنار القبض على حسن ود رجب في جبل فرنيس فجهز عليه الملك جاويش ورجاله الشايقية و ٤٠٠ فارس من المغـاربة بقيادة ديوان افنـدي فتسلقوا الجبل المذكور وأسروه وأسروا معه قاتلي ود عدلان بعد ان نكّلوا برجاله وعادوا الى اسماعيل باشا في سنار فأمر بسجن حسن ود رجب وسلّم قاتلي عدلان الى ابنيـه ادريس ورجب ليقتلاهما بثأر أبيهما ففوّضا أمر قتلهما اليه فأمر برفعهما على خازوق فراعهما القتل على هـذه الصورة وطلبا سيفاً يقتلان به نفسيهما فلم يُسمع لهما ولمـا قدما للقتل أظهر احدهما ادريس ود عقيد جزعاً وخوفاً فانتهره رفيقه بخيت وقال له : « تشدد ومت موت الرجال » ثم أنفذ أمر اسماعيل باشا فيهما وأشهرا في السوق يومين فكانا اول من رُفع على خازوق في بلاد سنار . اما حسن ود رجب فانه بقي مسجوناً مدة ثم أطلق سراحه برضى ابني محمد عدلان اللذين سكنا جبـال الفونج فملكها اكبرهما وذريته الى هذا العهد .

وكان اسماعيل باشا لما نزل في ام درمان على مـا مرّ قد كتب الى الملك ادريس المحينه ملك الجموعية يدعوه الى الطاعة فلم يجبه ثم بعد فتح سنار بلغه ان الملك المذكور أطلق يده في نهب أموال الناس فأرسل محمـد سعيد افندي بجريدة من الفرسان ومعهم الشيخ رحمه ود دحالة فنزلوا عليه في منزله وقتلوه ورجعوا الى سنار وبذلك تمهدت البـلاد لاسماعيل باشا من اسوان الى سنار .

وكان اول ما أجراه انه أمر بكتابة المنازل « عال ووسط ودون » ثم أحصى عدد الرقيق والماشية ولكنه لم يقرّر عليهـا مالاً ولم يطلب من اهل البلاد سوى العلف لخيوله . وتأخرت المراكب التي كانت تحمل الزاد للعساكر فأرسل السرايا شرقاً وغرباً لجمع الزاد فلم يجمعوا كفايتهم فاشتد الجوع وبقوا مدة لا يأكلون الا الذرة وهم ينامون على الارض ومـات عدد كثير من الخيل والجمال ولم تدفن فأثر ذلك كله في صحة العساكر ففشت فيهم الحمى والديزنتاريا وأمراض شتى ولم يكن معهم الا عدد قليل من الأطباء فمات منهم خلق كثير

وقد بلغ عدد الوفيات فيهم يوم ١٦ اكتوبر سنة ١٨٢١ نحو ١٥٠٠ نفس وكان عدد المرضى مثل ذلك ولم يبقَ في الجيش كله من له قدرة على الخدمة سوى ٥٠٠ رجـــل فعلت شكوى العساكر وكثر تذمرهم فسكّن اسماعيل باشا روعهم وفي ٢٤ و٢٧ اكتوبر وصل ٢٦ مركباً من مراكب الزاد بعد ان غرق الكثير منها في الطريق فتملّكوا بها .

وفي أثناء ذلك وصل الخبر الى محمد علي باشا بفتح سنار فأرسل ابنه ابراهيم باشا لمساعدة اسماعيل باشا على تنظيم البلاد واكتشاف منابع النيل فوصل سنار في ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٢١م فأطلق له ٢١ مدفعاً ترحيباً به. ثم نظر الاميران في ما يفعلانه فاتفق رأيهما على ان يقسما الجيش قسمين قسماً يتولى اسماعيل باشا قيادته ويتألف من ١٥٠٠ مقاتل والملك جاويش والشيخ ضرار شيخ الكماتير فيمد فتوحاته في طريق النيل الازرق ويستطلع مناجم الذهب في بلاد شنقول وآخر يتولى ابراهيم باشا قيادته ويتألف من١٢٠٠ مقاتل والملك بادي فيخترق جزيرة سنار الى بـلاد الدنكا ثم يمدّ فتوحاته في البحر الابيض الى أعاليه . فسار ابراهيم باشا في ٥ ديسمبر سنة ١٨٢١م قاصداً بلاد الدنكا وسار اسماعيل باشا بعده بيومين قاصداً بلاد فازوغلي وبقي ديوان افندي محافظاً ببعض الجند في سنار .

اما ابراهيم باشا فانـه لم يصل جبل القربين في وسط الجزيرة حتى أُصيب بالديزنتاريا فعاد الى سنار ومنها الى مصر وتولى سلاحداره طوسن بك قيادة جيشه فذهب الى الدنكا ثم الى جبل تابي فأخذ منه ٢٠٠ عبد وعاد الى سنار.

فتح فازوغلي ١ يناير سنة ١٨٢٢ م :

أما اسماعيل باشا فانـه سار بالبر الغربي قاصداً فازوغلي وبعث بخمسماية من رجاله فساروا تجاهه بالبر الشرقي فقابله في الطريق رسل من الملك حسن ملك فازوغلي وقالوا ان ملكهم مسلم له فليس عليه إلا ان يحارب المجوس

وكان ذلك في ١٩ ديسمبر سنة ١٨٢١. ولما كان يوم ١ يناير سنة ١٨٢٢ وكان اسماعيل باشا على بضعة أميال من فازوغلي قابله ملكها الملك حسن ومعه مئة فارس من حرّاسه حاملين الحراب فلمـــا رأوا اسماعيل باشا ترجّلوا جميعاً وتقدم الملك حسن فسلم عليه وقدّم له جوادين من جياد الحبشة وأما حرّاسه فانتظموا في صف واحد ثم جثوا على ركبهم ونكسوا حرابهم علامة الخضوع. وضرب اسماعيل باشا على فازوغلي وجبالها جزية قدرها ألف أقة ذهب وألفا عبد ذكر .

مناجم الذهب : ولما تمّ له هذا الفتح سار بجيشه الى بني شنقول لمشاهدة مناجم الذهب وتحقيق ما سمع عنه فوصل خور «أبو» في ارض الكماميل التي فيها الذهب في ٢٠ يناير سنة ١٨٢٢ ومعه العالم الفرنساوي الموسيو كايو المار ذكره فحفر في عـدة أماكن من الخور فلم يعثر إلا على قطع صغيرة من التبر فخاب أمله وقفل راجعاً الى سنار فدخلها في ٤ فبراير سنة ١٨٢٣ م .

وكان ديوان افندي سعيد في مدة غياب اسماعيل باشا في فازوغلي قـــد فرض الضرائب على الأهلين بمساعدة المعلم حنا المباشر والارباب دفع الله احمد فجعـــل على رأس الرقيق خمسة ريالات وعلى البقرة نصف ريال وعلى الشاة والحمار ربع ريال . فثقلت هـذه الضرائب على الناس لأنهم لم يتعودوها وفي أثناء ذلـك شاع ان اسماعيل باشا قتل في الجبال وان جنوده قـــد تشتتت فتحرك اهل البـلاد للثورة لا سيا وان أكثرهم سلموا لاسماعيل باشا خوفاً من بطشه فبلغ اسماعيل باشا خبرهم وهو في الطريق فأسرع الى سنار وهدّأ البلاد وعامل الأهلين بالحلم والعفو ولم يقتل احداً سوى ود عجيلاوي . ثم لم يرضَ بما فرضه ديوان افندي والمباشر من الضرائب وطلب الدفاتر ليعدّلها فوجـد ان المباشر قد أرسلها الى مصر فأرسل الشيخ سعد عبد الفتـــاح ليرجعها فلم يدركها فأمر بالرفق في تحصيل الضرائب .

ولمـا نزلت الامطار في سنار فشت الحمى في العساكر فذكر ما فعلته في معسكره سنة الفتح وذكر نصيحة الموسيوكايو له بالانتقال الى ود مدني لجودة

هوائها فانتقل بعساكره اليها وبنى فيها قشلاقاً كبيراً من الطوب لم تزل آثاره باقية الى اليوم . ومات في ود مدني بعد انتقال العساكر اليها القاضي محمد الاسيوطي الحنفي المتقدم الذكر والشيخ كرار العبادي ومحمود اغا القسطنطيني احد سواري المغاربة وهرب حسن ود رجب المار ذكره الى ابي شوكه .

الفصل الثاني

في

حملة الدفتردار على كردوفان

وفيها فتح الابيض سنة ١٨٢١ م

وكان محمد علي باشا بعد ان أرسل ابنه اسماعيل لفتح سنار قد جهز جيشاً آخر وعقد لواءه لصهره محمد بيك الدفتردار وأمره بفتح كردوفان وكان جيش الدفتردار مؤلفاً من اربعة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان منهم ألف مقاتل من البدو والمغاربـــة ومعهم عشرة مدافع نمرة ٤ فسار الدفتردار الى كردوفان بطريق دنقلة وأبي قسّ . وكان على كردوفان المقدوم مسلم من قبل سلطان درافور فلما بلغه قدوم الدفتردار خرج لقتـاله من الابيّض فالتقاه في باره صباح ١٦ ابريل سنة ١٨٢١ م وحدثت واقعـة دموية قاتل فيها الفريقان قتال الابطال وكان الدفتردار والمقدوم مسلم في مقدمـة رجالهما يحمسانهم على الاستهلاك في الدفاع وكان رجـــال المقدوم مسلم مسلحين بالحراب وكثيرون منهم مسلحين بالبنادق فثبتوا امام الجيش المصري طويلاً واقتحموا نيرانه غير مبالين بالموت حتى انهم اخترقوا صفوفه وجرحوا كثيرين من عساكر الطوبجية فوق مدافعهم وما زالوا يكرّون ويفرون حتى قتل قائدهم مسلم قتله أحـــد

بادية الجهياب فوقع فيهم الفشل وانهزموا امام جيش الدفتردار فأوسعهم قتلاً وأسراً الى ان دخل الأبيّض ومهّد البلاد . قيل وكان في جيش الفور فارس يقال له ابراهيم ود دير فدفع جواده على مدفع في قلب الجيش المصري فأدركه وقتل بعض الطوبجيـة وضرب حديد المدفع بالسيف وكان السيف من الفولاذ الجيد فظهر أثر الضربة في المدفع وبقي يحارب في وسط الجيش الى ان قُتل . قيل انه قبل هجومه قال للذين حوله : « اني هاجم على هـذا المدفع لأضربه بسيفي فإن عشت كان قسمي وإن متُّ كان وسمي » وقد كان الثاني فان هذا المدفع سُمّي بمدفع ود دير وبقي في الأبيّض الى ان وقع بيد الدراويش فحملوه الى ام درمان .

ولما استولى الدفتردار على كردوفان أخذ في الأهبـة للزحف على دارفور وكان على دارفور في ذلك الحين السلطان محمد الفضل فأرسل جيشاً بقيـادة ابي اللكيلك لمحاربة الدفتردار واسترجاع الابيّض منه فالتقـاه الدفتردار في « سودرة » وقهره وردّه خائبـاً كما مرّ في تاريخ الفور . وأبى الدفتردار ان يصحبه احد من الاوروبيين في حملتـه على كردوفان ليحرز الفخر كله لنفسه وكتب عدة رسائل الى القـاهرة في أحوال البلاد وحاصلاتها وتجارتها ورسم خريطة لها فجاءت ساذجة بسيطة خالية من اتقان الصناعة اللازم في أيامنا . ولنرجع الآن الى سير الحوادث في سنار .